

UNIVERSAL
LIBRARY

OU-234503

UNIVERSAL
LIBRARY

تاريخ علم الادب

عند الافرنج والعرب
وفيككتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب
ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى . وما اقتبسه الافرنج عنهم
من الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة . وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر
الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ، مؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

تأليف

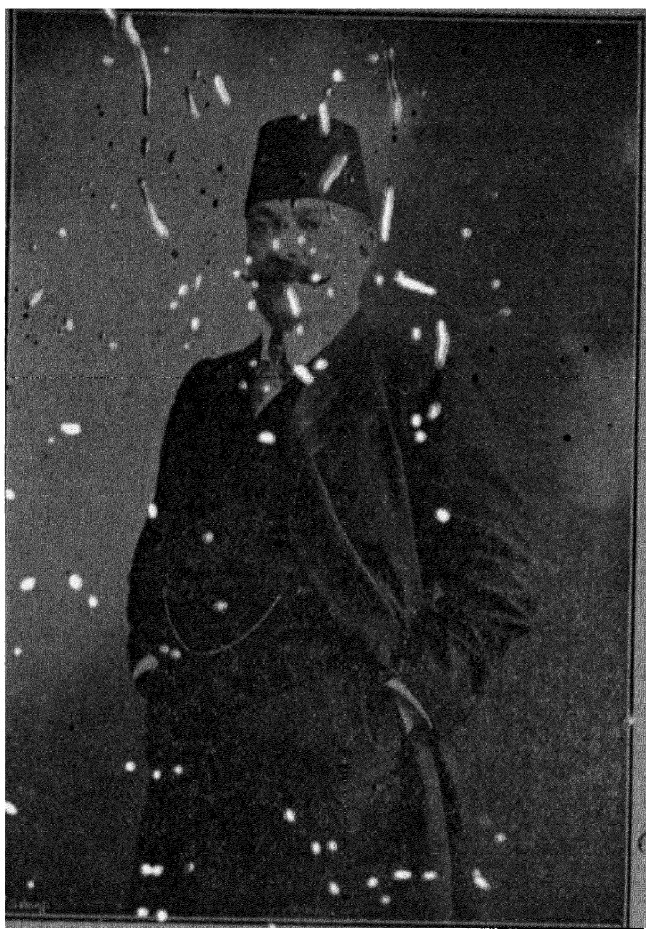
روحي بك الخالدي

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

طبع بنفقة ادارة الهلال

الطبعة الثانية

طبع بمطبعة الهلال بالقجالة بمصر سنة ١٩١٢



روحى بك الحامد

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان وناجى الشعب العربى

ومؤلف هذا الكتاب



مقدمة الناشر

للطبعة الثانية

صدرت الطبعة الاولى من هذا الكتاب سنة ١٩٠٤ والمؤلف يومئذ قنصل جنرال الدولة العثمانية في بوردو وقد نال الاستبداد من نفوس العثمانيين وقيد اقلاد احزارهم فلم نعد نسمع غير اصوات المتزلزين او المتعلقين . واذا تكلم الحر تكلم همساً واذا كتب اخفى اسمه ولا سيما اذا كان من موظفي الحكومة ولم كان موضوعه في الادب او الطب لان الجواسيس يحولون كل معنى الى المكائد والدسائس . وابت تنس صديقنا الخالدي مؤلف هذا الكتاب الا ان ينشر ثمار درسه وبجته فعهده بذلك الى الهلال على ان تنشر بلا توقيع . فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية والقراء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوقون لمعرفة . فلما طبعناها في كتاب على حدة تقدمنا اليه ان يأذن بنشر اسمه في صدر الكتاب فاكثفنا بالاشارة الى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ « المقدسي » نسبة الى القدس الشريف مسقط رأسه

فأحرز هذا الكتاب اعجاب القراء الادباء في العالم العربي وغيره فحملنا ذلك على اعادة طبعه رغبة في نشر علم الادب بين قراء العربية ونحن في اشد الاحتياج اليه . ولا سيما على الاسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية والافرنجية وذكر ما اقتبس من الافرنج من آدابنا واساليبنا مما لم يتصد البحث فيه احد قبله - ولم نر احداً تصدى له بعده . فضلاً عما يتخلل ذلك من الفوائد التاريخية والقواعد الاجتماعية عن الادب العربي وتاريخه وما يقبل عليه من الاطوار تبعاً للسياسة والاجتماع . وتاريخ الادب الفرنسي من اول عهده الى زمن فيكتور هوغو وما ادخله فيه هذا النابغة من التعديل نقلاً عن الاسلوب العربي في الشعر والادب وصل اليه عن طريق اسبانيا . وناهيك بسهولة عبارة الكاتب وتناسقها مما يرتاح اليه القاري . ويجد فيه لذة وشوقاً للمطالعة . غير ما عني بتلخيصه ووضحه من مؤلفات هوغو وبسط ما حوته من الفوائد الفلسفية والادبية ومقابلة ذلك بما عند ادباء العرب

فيكتور هوغو وعلم الادب

وبالجملة فان هذا الكتاب من الذخائر النفيسة التي لا يستغني عنها اديب . فلما
ضمت نسخ الطبعة الاولى استاذناه في اعادة الطبع فاذن لنا خدمة للأدب العربي
وقد اعلن الدستور وصحار المؤلف من اعظم اركانه فلم يبق ثمة باعث على التكم
فطبعناه وصدرناه باسمه وزانه برسمه ليتيم المتعارف بينه وبين القراء المجين
بأدبه وفضله

القاهرة في ١٥ يناير سنة ١٩١٢

وهذه صورة منشور كان قد وزعه الافرنجية بعد صدور الطبعة الأولى يخاطب
به ادباء الافرنج على الخصوص قال :

AU LECTEUR

L'éditeur de ce livre a bien voulu l'illustrer de quatre gravures et lui donner le titre flatteur d'**Histoire des Littératures**.

L'auteur lui sait gré de sa bonne intention. mais il doit s'excuser auprès du lecteur. Habitant Bordeaux, loin des bibliothèques orientales où se trouvent les documents nécessaires pour écrire une pareille histoire, il n'a jamais pensé à se donner une tâche si lourde. Il a écrit seulement des mélanges historiques littéraires et il les a fait paraître sous le titre de :

فيكتور هوغو وعلم الادب عند الافرنج والعرب

« Etudes sur Victor-Hugo et sur la littérature chez les Européens et chez les Arabes ». Il les a signés EL-MAQDIS, hiérosolymite qui désigne sa ville natale.

En publiant ce recueil en 1902-1903 dans la revue arabe **al-Hilâl**, fondée au Caire par DJORDJI ZAIDAN, l'auteur a voulu prendre part à la manifestation littéraires qui s'est produite dans le monde civilisé à l'occasion du centenaire du grand poète. De là, la hâte de cette publication dont l'actualité ne donna pas le temps d'approfondir le sujet et d'y apporter les corrections nécessaires.

L'auteur a eu d'autres buts encore : c'est de propager les idées modernes parmi ses coreligionnaires et tous les lecteurs de la langue du Coran et de donner aux jeunes poètes arabes une idée précise de la littérature française en particulier, et des littératures européennes et mondiales en général. Enfin, il a voulu faire connaître aux écrivains orientaux de la nouvelle génération les différents genres et les multiples sujets que peut traiter un poète moderne.

C'est ainsi que l'auteur a été amené à résumer l'histoire de la littérature arabe et à parler de la conquête musulmane en Europe, afin de prouver l'influence de la littérature arabe sur les littératures européennes du moyen-âge. Il a développé ensuite la différence qui existe entre l'Ecole classique, et l'Ecole romantique et traduit littéralement des morceaux choisis de Victor Hugo en les comparant avec quelques poésies d'EL-M. 'ARRI, d'EL-MOTÉNEBBI et d'autres poètes arabes.

Ce volume aurait pu être écrit en prose rimée à l'imitation des séances de Hariri, mais était-il nécessaire de le faire briller par un vain luxe de mots inutiles ? Il est préférable d'être clair précis et accessible à la masse des demi-lettrés sortis des écoles, d'Orient organisées à l'Européenne. C'est ce qui a été fait.

Bordeaux, 5 Juin 1906

MOHAMMED ROUHI EL-KHALIDY

el-Maqdisi



تذكار فيكتور هوغو

لمئة عام مرت من ولادته

احتفلوا بتدشينه في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٢

في ميدان فيكتور هوغو بباريس

فيكتور هوغو

احتفال الفرنسيين له باليوبيل القبرلي .

احتفل الفرنسيون في ماوائل سنة ١٩٠٢م للشاعر فيكتور هوغو في البانتيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق تيوييل الكماوي برا في الصور بين : والبانتيون هيكل فخيم على رابية من روابي باريس بالتمهين بين الصور بوثن . وهو اليوم مدفن اعظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنسي بالفضل والحسن في السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختام القرن الاول من ميلاد فيكتور هوغو ابتداء موسم الاحتفال يوييل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باويس من الرجال والنساء واكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكماوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الاقتدار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلة الالوان او مكثفون بتزيين صدورهم بأزرار الوسامات واشارات المدايات على اختلاف درجاتها واشكالها . وافصح هذا الاحتفال المرسوم جورج لينغ ناظر المعارف الفرنسية بخطبة شائعة

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديمية الفرنسية فاختلف الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب بيلاعة معانيه فانتقل كلامه بالتلفراف والتلفون لجميع المدن الفرنسية وربما تجاوزها الى كثير من البلاد الاجنبية . لان الموسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياسة وحل عقدة ماداغسكار والحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقية الغربية ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية وأقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان له شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق . وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق باباه على بولفار سن جرمن ويصعد الى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة



تذكار فيكتور هوغو

لمئة عام مرت من ولادته

احتفلوا بتدشينه في ٢٥ فبراير سنة ١٩٠٢

في ميدان فيكتور هوغو بباريس

فيكتور هوغو

احتفال الفرنسيين له باليوبيل القبرلي . .

احتفل الفرنسيون في ماوائل سنة ١٩٠٢ للشاعر فيكتور هوغو في البانتيون كما احتفلوا في اواخر العام السابق بيوبيل الكماوي برا في الصورين : والبانتيون هيكل فخم على رابية من روابي باريس بالآداب من الصورين . وهو اليوم مدفن اعظم الرجال الذين يعترف لهم الوطن الفرنسي بالفضل والحسن .

ففي السادس والعشرين من شباط الماضي (فبراير) الموافق لختام القرن الاول من ميلاد فيكتور هوغو ابتداء موسم الاحتفال بيوبيل هذا الشاعر واجتمع في البانتيون الرؤساء والسفراء والعلماء والشعراء والمشخصون والمشخصات وكل من اشتهر في باويس من الرجال والنساء واكثرهم بالالبسة الرسمية والعسكرية والكساوي العلمية والقضائية موشحون بوسامات الافتخار او متمنطقون بمناطق الحرير المثلثة الالوان او مكتفون بتزيين صدورهم بازرار الوسامات واشارات المدايات على اختلاف درجاتها واشكالها . وافتتح هذا الاحتفال المرسوم جورج لينغ ناظر المعارف الفرنسية بخطبة شائعة

وتلاه في الخطابة السياسي الشهير الموسيو غابريل هانوتو بالنيابة عن الاكاديمية الفرنسية فاحتلب الاسماع بجواهر لفظه واجتذب القلوب ببلاغة معانيه فانتقل كلامه بالتلفراف والتلفون لجميع المدن الفرنسية وربما تجاوزها الى كثير من البرد الاجنبية . لان الموسيو هانوتو بعد ان حاز قصب السبق في ميدان السياسة وحل عقدة ماداغسكار والحقها ببلاده وفك العراقيل السياسية في افريقية الغربية ونهر النيجر تنحى عن كرسي الوزارة وقد شغله مدة تزيد على اربع سنوات وجلس على كرسي الاكاديمية واقبل على نشر الكتب وطبع المقالات التي اشتهرت في العالم كله وكان له شأن في مصر وغيرها من بلاد الشرق . وهو على رفعة قدره وعلو شأنه لم يزل كما كان في صباه مقيماً في الطابق الخامس من بيت يستطرق باباه على بولفار سن جرمن ويصعد الى مسكنه بدون مصعدة (اسانسور) مائة درجة

ثم أنشد بعض المشخصين والممثلات شيئاً من قصائد فيكتور هوغو وتلوا
 أجزاء من أحاديثه وانفض الجمع ليستأنفوا الاحتفال في مواضع أخرى من باريس
 لأن حفلة البانتيون لم تكن إلا افتتاح موسم أدبي في عموم البلاد الفرنسية ورامت
 الزينات والإفراح ثوبها بسبعة أيام ولما إليها وفي كل يوم ليلة يرفعون الأعلام
 ويضيئون الأنوار ويجمعون الجموع ويلتمون الخطب ويأدبون المآدب ويشربون
 النخب ويمثلون على المراسح الروايات وينشدون الأناشيد وبحررون المقالات
 المبتكرة ويصورون الرسوم البديعة ويعملون أنوعاً كثيرة من المظاهرات ولزينات
 ماختلفاً بهذا الموسم وقرره مجلس نواب الأمة اتفاق ثمانين ألف فرنك لهذا الاحتفال
 عدا ما تنفق مجالس البلدية والجمعيات الخيرية والعلمية مما يفوق اضعاف هذا المبلغ
 فجاء هذا الاحتفال على أتم منوال وأحسن نظام لأن الفرنسيين أقدر الأمم
 المتمدنة على اتقان الزينات واتمام معدات الاحتفال للطاقة اذواقهم وخفة ارواحهم
 وميلهم إلى البهجة والزينة . وهم يتهافتون على تعظيم رجال العلم والأدب ويبالغون
 في اجلالهم حتى كادوا يعبدونهم من دون الله ويتنسكرون في ادخار آثارهم وجمع
 مناقبهم وحفظ أخبارهم ورفع الهياكل والتماثيل والانصاب لهم . كان الواحد منهم
 معبوده من معبودات قدماء المصريين أو اله من آلهة اليونان أو الفينيقيين . وهم
 والله أعلم يعتاضون بهذه الاحتفالاتهم عما فهم من الاحتفال بتتويج الملوك ويوبيل
 القياصرة . وقد رفعوا لفيكتور هوغو تماثلاً عظيماً بل تماثيل وسموا باسمه الشوارع
 والبادين واتخذوا داره منجلاً سموه باسمه وسيجمعون فيه متاع الشاعر واثاث بيته
 وكل ما له أدنى علاقة به أو ذكر في أشعاره ولم يفرطوا بشيء من ذلك ولا اضاعوا
 له قلماً ولا دواة ولا ورقة من الأوراق التي تعلم بها وهو في المدرسة وقد كتب على
 واحدة منها « أريد ان اكون شانوبريان أولاً شيء » ولا الأوراق التي كان يلعب
 بها اولاده ورسم لهم فيها الرسوم الهزلية والمضحكة ولا الكيس الذي وضع فيه مبلغ
 المائة وخمسة وعشرين فرنك ثمن المجلدين الاولين من تأليفه المسمى ميزيرابل
 ولو ازدنا وصف هذه الاحتفالات وايراد الخطب التي تليت فيها والأتان
 على ما حررته الجرائد من الفصول الطوال لاستغرق الكلام مجلداً ضخماً لأن هذه

الاحتفالات كان لها رنة عظيمة في اوربا كلها . وقد نشرت جريدة التيمس الانكليزية ترجمة هذا الشاعر بالفرائض اعظاماً لثأته لأن شهرة فيكتور هوغو ليست في فرنسا وحدها بل هي طائر في آفاق العالم المتباعدات . وقد وصلت الى بلادنا الشرقية منذ سنين . أتذكر اني كنت في « المطاف » وهو لا يزال في سورية اياتاً لفاضل من الادباء لخص فيها فكرياً من افكار فيكتور هوغو المذكورة في كتابه انشار اليه وصف بها حالة البائس المسكين الذي اشتدت حاجته واضطره الجوع حتى كسر قفل الخبز وانفذ رغبته لسد رمقه فانتبه له الخفير واتقض عليه انتقاض البازي على العصفور وقاده الى حبس التوقيف ثم رفعه الى محكمة العدل فلم يشفق عليه حكاهم العدلية ولا رحمه قضاة الحقانية فارتعدت نفس الشاعر من هذا الظلم القاهر حتى صرخ قائلاً : « اين العدالة في اوهام شرعكم »

ثم لما اتيت الاستانة وجدت ادباء الانراك وشعراءهم ترجموا كثيراً من نظم فيكتور هوغو ونثره في ما نشر من مؤلفات كمال بك وعبد الحق حامد بك واکرم بك ومدحت افندي صاحب جريدة « ترجمان حقيقة » وفي « مجموعة الضياء » و « كتيبة الضياء » وترجم شمس الدين سامي باتا صاحب قاموس الاعلام جزءاً كبيراً من كتاب (ميزيرابل) وسماه بأضافة اداة الجمع التركية على كلمة (سفيل) العربية فقال « سفيل » اي السفلة من الناس . ثم بلغني ان بعض ادباء مصر شرع في ترجمة هذا المؤلف الجليل وسماه « البؤساء » ونحنو ذلك فجمعت شيئاً من أخبار فيكتور هوغو ليحصل لنا علم اجمالي بترجمة حياته وحقيقة فلسفته وسبب شهرته

الدور الاول من حياته

من ولادته سنة ١٨٠٢ الى تفرغه سنة ١٨٥٢

كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها فغير معالمها وثل منها عرش الاستبداد وحرر العقول وبديل الظلام بالنور ووضع العدل في موضع الظلم وجرى بسبب ذلك من الفظائع المموية ما تقشع من سماع حديثه الجلود . لبث الانقلاب من سنة ١٧٩٠ الى سنة

١٧٨٥ . ثم نبغ بونابرت واكتسبح بالعساكر الفرنسية ايطاليا ثم مصر وفلسطين وطاف بها اوربا من مشرقها الى مغربها وقهر الملوك والامبراطور والقيصر واستمتع بالبابا من هومة الى باريس ليلبس تاج الامبراطورية ويسميه نابوليون الاول واجلس زوجته جوزفين على سرير الاسكندرية ماري انطوانيت ثم لم يستحسن انتاج على رأسها لانها ملة الجنرال بونابرته فاقبها باري لويز بنت امبراطور المانيا وجعل اخاه الاكبر يوسف بونابرت ملكا على نابولي ثم ملكا على اسبانيا وحشد عساكره في هاتين المملكيتين . وكان سيجسبر هوكو واليه صاحب الترجمة ضابطاً في عسكر الفرنج واولين واموراً مع جنودهم بالمحافظة على بيزانسون وهي مدينة على طريق السكة الحديدية بين مرسليليا وباريس وكان ابوه نجاراً وجده فلاحاً

وفي ٢٦ شباط سنة ١٨٠٢ وضعت امرأته ماري في تلك المدينة غلاماً نجماً ضعيفاً فقيدته في سجل نفوس البلدة باسم « فيكتور ماري هوكو » وكان له ولدان اكبر من فيكتور احدهما يسمى ايل والاخر اوجين . وبعد شهرين من ولادة فيكتور تلقى والده الامر بالمسير الى جزيرة كورسيكا وفهما الى جزيرة ايليا فحمل اليها امرأته واولاده واقام فيها الى سنة ١٨٠٥ . ثم دعي سيجسبر هوكو الى باريس فذهب اليها بعائلته ودخل في خدمة الملك يوسف بونابرت ورافقه الى نابولي ومعه عائلته فشاهد فيكتور بركان فيزوف وهو في السادسة من عمره وانطبت في ذهنه صورة هذا الجبل وما يتصاعد من فوهته من اللهب والدخان . وارتسمت في مخيلته مناظر ايطاليا الطبيعية وجوها الصافي : فلما كبر ونظم هذه الرحلة وصف هذه المناظر في اشعاره احسن وصف

ولما ذهب يوسف بونابرت الى اسبانيا ليلبس فيها تاج الملك اصطحب سيجسبر هوكو وعاد فيكتور مع امه واخويه الى باريس وسكنوا في دير فيليتين بجوار سكة الطب العسكرية التي يقال لها « فال دوغراس » وهي قرية من البانتيون . فكان فيكتور يقرأ مع اخويه اشعار فرجيل على رهاب متضلع في الآداب اللاتينية واستمر على ذلك الى سنة ١٨١١ وقد رقي والده وصار قائداً على الجيش وبلغ راتبه الى ثلاثين الف فرنك اسبانيولي (ريوس) ومنحه الملك يوسف لقب كونت

وعينه ناظراً على مطبخه العام . فاحضر حينئذ امرأته واولاده الى مادريد . فاستفاد فيكتور هوغو من هذه الاسفار فوالد كبرى وتمكن من جمع حداثته سنة من مراقبة جمال الطبيعة وحفظ أسماء المدن والبقاع التي مر بها . وشاهد في قصور مادريد آثار العمران الشرقي وصور اعظم الرجال الذين تأمت بهم القرون الماضية فاستمت بحيلته وانفق ثمنه ونفح بنفحات شعرائنا الاندلسيين فرفقت الفاظه . اقبلت فعاينه وظهر النفس الاندلسي في اشعاره وسمعت النخلة الاندلسية من اكثر قوافيه وذكر في قصيدته التي سماها خرناطة اكثر مدن الاندلس ووصف ما فيها من المائي والقصور وذكر في غير هذه القصيدة جميع المدن التي مر بها في طريقه مثل ابرون وعين العرب التي يقال لها اليوم « فونت أرابي » وقلعة ايرناني وجعل اسم هذه القلعة مخزناً لرواية من رواياته . ودخل وهو في مادريد مدرسة اولاد الاشراف وخالط فيها أبناء الامراء من الاسبانيولين وعرف اخلاقهم وعاداتهم فنظمها في رواية (ايرناني) و (ريو بلاس) وغيرها من مؤلفاته واستعار اسماء كثير من رفاقه ليشخصهم في قصصه ورواياته وكان يدق في احوال الجند ويتأثر باصوات ابواقهم وصدى موسيقاهم فأبدع في وصف حركاتهم العسكرية وفتحهم القلاع ونزولهم مساء ورحيلهم صباحاً وسيرهم ليلاً الى غير ذلك من الاوصاف التي شخص بها حال العساكر تشخيصاً تاماً

ولما انقلبَت السياسة في اسبانيا واشتد الخطر على عساكر الاحتلال اعاد الجنرال هوغو عائلته الى باريس ولم يبق عنده الا ابنه الاكبر ايل فأدخله في خدمة الملك ورجع فيكتور هوغو مع امه واخيه الى الدير الذي كان فيه وعكف على مطالعة ما عند امه من الكتب كمؤلفات فولثير وجان جاك روسو وديدرو احد مؤلفي الانساكوبيدي ومؤلفات السائح كوك وغيرهم . وكان لامه الفة بعائلة فوشر احد مستخدمي نظارة الحربية فكانت مادام فوشر تكثر التردد عليها ومعها ابنتها الصغيرة عادلة (اديل) لتلعب مع فيكتور واخيه اوجين وتستنشق الهواء الصافي في بستان الدير . ولما ضبطت الحكومة هذا الدير في جملة ما ضبطته من املاك الرهبان سكنت زوجة الجنرال هوغو بالقرب من دار فوشر فكثرت اختلاط فيكتور هوغو بهادله والفها

حتى صارت فيما بعد زوجته

ولم يمض كثير من الزمان حتى اشتدت الازمات السياسية وتوالت الحوادث
المرهبة وعاد نابليون بالخيبة من مهنر موسكون وعاد اخوه يوسف بعساكره من اسبانيا
ومعه الجنرال سيسجيسر هوغو فالتمس اللجوء للأموريتيه والدخول في سلك العساكر
الفرنساوية فلم يمهله الابرتيه السابقة . وبعد ان دارت الدائرة على نابليون الاول
وحبطت اعمال الحكومة الامبراطورية وعاد آل بوربون الى كرسي المملكة الفرنسية
تقرب الجنرال هوغو الى لويس الثامن عشر وتلقى اليه حتى صار من القربين لديه
تخلع عليه رتبة الجنرال وسلمه قيادة العسكر . فارد ادخال ولديه الاصغرين في
هذا السلك كما ادخل اخاهما الأكبر من قبل فوضع فيكتور واخاه اوجين في مدرسة
(لوي لوغران) ليدخلها فيما بعد مدرسة الفنون الحربية وهما من المدارس التي لم
يزل يتردد اليها بعض ابناء الشرق في باريس . فاقبل فيكتور هوغو على تحصيل
العلوم الرياضية ولم يترك مع ذلك نظم الاشعار فنظم عدة قصائد في الغزل والمدح
والهجو والهزل والرثاء وقصيدة في الطوفان ولم ير مباينة بين العلوم الرياضية المبنية
على حقائق البرهانية وبين علوم الشعر التي كان يظنها الناس خيالات باطلة واوهاماً
كاذبة وان اعذب الشعر اكدبه . بل كان يعتقد بان الشاعر لا بد له من تعلم العلوم
الرياضية والطبيعية وكان يعتبر تصور حوادث الكون وتخيل مناظر الطبيعة وجمع
معاني ذلك في الذهن ثم افراغ المعاني في قوالب الالفاظ ونسجها في ايات الشعر
كل ذلك اشبه بتصوير المسائل الحسابية والهندسية وحل المعادلات الجبرية . ولذا
قال بان صباه لم يكن الا تخيلاً طويلاً ممزوجاً بدرس مدقق وان لا مباينة بين
التدقيق والشعر لانه القواعد الرياضية تطبق في الشعر كما تطبق في هذا العلم وقال
ايضاً « أن الكلمة كائن حي فاعلموه »

وكان شاتوبريان من الخلل ادباء العصر وله مؤلفات جلييلة في النظم والنثر
وقد طاف بلاد الشرق وزار مصر وسوريا واليونان والاف بعد ذلك كتابه المسمى
(روح النصرانية) وبحسب عن حكمة الديانة المسيحية فطالبه فيكتور هوغو واعجب
به وتشرب منه آراء المذهب الكاثوليكي وسياسة الحزب الملوكي فكتب على دفتره

وهو في المدرسة بتاريخ ١٠ يوليو سنة ١٨١٦. « اريد ان اكون شاتوبريان اولاشي » وبعد سنة من هذا التاريخ فتحت الاكاديمية الفرنسية سباقاً للشعراء وجعلت موضوع السباق « فوائد المطالعة » فنظم فيكتور هوغو في هذا المعنى ٣٢٠ بيتاً عرضها على لجنة التحكيم ولم يكن له من العمر الا خمس عشرة سنة فاستحسنوا ابياته واستصغروا سنه وظنوه « اوقاً شعراً فلم يعطوه الجائزة واكتفوا بقيد اسمه في دفتر الشعراء . وفي السنة التالية بعث الى جمعية « لعب الازهار » - وهي جمعية ادبية تأسست قديماً في طولوز - القصيدة التي سماها « عذارى فيردون » وتشبب فيها بينات تلك المدينة التي على الحدود الالمانية وبعث ايضاً بقصيدة أخرى في مدح هنري الرابع فنال بهما جائزة الجمعية . وفي سنة ١٨١٨ اكمل فيكتور هوغو دروسه في مدرسة « لوي لوگران » واستنكف من الدخول في امتحان المسابقة لاجل قبوله في المكتب الحربي وكتب لايه بانه عدل عن سلك العسكرية واتخذ لشعر صنعة يتعيش منها وان لاجابة له بالراتب القليل المعين له واقبل على الجد والاشتغال ومثابة الاعمال واشترك مع أخيه الكبير ايل وكان له مشاركة في علوم الادب فأسس جريدة ادبية عنوانها « المحافظ الادبي » ونشر فيكتور هوغو الاشعار البديعة والمقالات الانتقادية

وكان لويس الثامن عشر الذي جلس على سرير الملك سنة ١٨٢٤ عاقلاً ماهراً لم يصنع لاقوال الذين يريدون اطفاء نور العلم والحرية واعادة المظالم القديمة بل أعطى الشعب حقوقه وسن لبلاده القوانين وكان ولي عهده أخاه شارل العاشر وابنه ولد اسمه دوك دوبري قتل احد الرعاع وهو خارج من مسرح الاوبرة سنة ١٨٢٠ وخلف دوك دوبري طفلاً صغيراً اسمه دوك دوبردو فنشر فيكتور هوغو في جريدته قصيدة هنا فيها بالمولود وأخرى رثى فيها الوالد والقصيدتان موافقتان لسياسة الحزب الملوكي فاستحسنهما لويس الثامن عشر واجازة عليها بخمسمائة فرنك . وفي تلك السنة بعث فيكتور هوغو الى جمعية « لعب الازهار » في طولوز بالقصيدة التي عنوانها « موسى علي النيل » فكافأته عليها بالميدالية الذهبية وكانت على شكل الزهرة ومنحته لقب الأستاذ في جميعتها

فاشتهر هو كوك وانتشر شعره ولقبه شاتوبريان بالولد النجيب وفتحت الشعراء له ابوابها فتعارف على القريظ وفينيه ولأملوتين مؤلف « الرحلة الشرقية » وسومه واميل دوغاق وغيرهم من شعراء العصر ونحوهم ادبائه وفرح به جميع المتصيرين للحزب الملوكي لانه على مذهبهم النسائي ودينهم الكاثوليكي وترغوا بأبياته في مجامعهم وانشدوا قصائده في نوادي سمرهم وكانت ينظم لهم القصائد الهزلية والمدائح الملوكية على ما يوافق مشربهم مثل « التفراف » و « المقيد السياسي » و « القريحة » وغيرها

فانشرح صدر الشاعر هذه الشهرة وارتاح باله من جهة تأمين معاشه في المستقبل وأبى المومي في رأسه فرأى بجانبه صاحبه من الصغر قد انتقلت الى سن الشباب واتصفت قامتها كالغصن وابست انواب الجمال والحسن فقام في حبه اراد الاقتران بها فتمتعه امه لفقر البنت وعدم وجود مهر كاف (دوته) معها وقطعت علاقتها مع عائلة فوشر فتألم الشاعر بالم الفراق واخذ يرسل حبيبته برسائل الحب والاشتياق ونشرت هذه الرسائل بعد موته تحت عنوان « مراسلات الحبيب » وفي سنة ١٨٢١ توفيت والدته فحزن عليها حزناً شديداً لزيادة خنوها عليه او كثرة احسانها اليه . ولم يمض شهر على وفاتها حتى تزوج والده بواحدة من الغنيات الشريقات لقله وارده وكثرة نفقاته وبقي فيكتور هو كوك وحيداً فريداً وانتقل من الدار التي كان فيها مع امه الى مسكن صغير وتضايق في امر معاشه لقله ما في يده ولاحتياجه لمن يدبر له البيت ويهيئ له الطعام . واخذ يفكر في معشوقه وفي الوصول للاقتران بها لان اباه افتقر بعد سقوط الحكومة الامبراطورية وابو محبوبته لم يكن من اصحاب الثروة العظيمة فاجهد فيكتور هو كوك في تحصيل المال واقبل على النظم والتأليف ونشر سنة ١٨٢٢ ديوان قصائده فكان له رواج عظيم وقرأه لويس الثامن عشر وأعجب به واحسن على الشاعر من خزينته الخاصة براتب سنوي قدره الف فرنك ففرج الشاعر بهذا المعاش وتزوج بعادلة فوشر ولها من العمر ١٩ سنة . وبينما هم في حفلة العرس على مائدة الطعام نهض اخوه اوجين واجرى افعالا منكرة وفاه بكلام غير معقول فحملوا ذلك اولاً على اكاره



فيكتور هوگو

من شرب المدام وذهبوا به الى بيته وفي الصباح وجدوه مختل الشعور وفهموا انه يجب عاقلة محبة شديدة وكان يخفي عنها فلما تزوجت باخيه هاجت عواطفه وذهب عقله فمضى في بمارستان ساراتون وهو في ارباض باريس واستمر فيه الى ان طهرت وكانت عاقلة بدية الحسنة بركة ليل الى دارها بصفة النكر غير منقطعة الدوام وكان زوجها متباً في حبها المتكبر مدققتهم بهمة ولا يلح راتبه من الملك ٢٠٠٠ فرنك في السنة خرج بها من دارها وسكنها في بيت عمل خذول ولدت له اولاداً تكبروا وماتوا في حياته ثم ليوبولدين ماتت غريقة في نهر السين وشارل مات فجأة عند صاحبة له في بودو وفرنسوا مات في باريس وعاقلة تزوجت من كره من ايها واصيبت بدهاء البنون مثل عمها وهي لم تنزل في قيد الحياة . فكانت هذه المصائب باعثة على نظم القصائد التي عنوانها « اولادتي » ورتام ايضاً في كتاب (التأملات) وغيره بارتق المراتي . وكان موحداً بالاعتقاد ولم ينبع مذهب المسيحيين في البقاء على زوجة واحدة بل شغف بعد ذلك بحب احدى المثلثات واسكنها مع زوجته وعمل على القائلين بتعدد الزوجات مع رعايته واحترامه لزوجته الاولى

واخذ فيكتور هوغو يحرر في مجلة « الموز الفرساوية » التي اشأها الاديان سومه وديشان ويتودد على بيت شارل نورية وكان هذا الفاضل مديراً لمكتبة ارسنال وهي احدى المكاتب الاربع الكبيرة في باريس . ونال معاشاً وافراً بسبب هذه الوظيفة وفتح بيته للعلماء والشعراء حتى صار مجمعاً للادباء واسسوا في سنة ١٨٢٤ جمعية ادبية على الطرز الجديد . وفي هذه السنة توفي لويس الثامن عشر وليس اخوه شارل الماشر تاج الملك فدحه الشاعر بقصيدة عنوانها « التوبيخ » فازت القبول وانهم عليه الملك بوسام الاختيار من رتبة شيفاليه كما أنهم بذلك على الشاعر الشهير لامارتين . ولما نشر فيكتور هوغو ديوانه في المدح والفرل وحاد عليه على ملك الشعر القديم المسمى (كلاسيك) وصل في النظم مسلماً جديداً انتعش عليه السبيل القويمة القديمة وسقوه بالشعر المثلث الشامود منتسبات في جريدة الطلاب بالرقم ١٨٢٧ فكانت انتعاشه كانت شامود

انظار الناس الى الطريقة الجديدة ولتعارف الشعارين حتى صاروا من اعز الاخوان
وكان شارل العاشر قد حاد عن طريقة أخيه العادلة في سياسة الملك ومال الى
الاستبداد ففهر منه الادباء والاحرار . واغتنم سفير النمسا في باريس هذه الفرصة
وندد في البرلمان المساكين الذين خدموا مصالح نابوليون الاول وأهانهم في الكلام
فانصرف فيكتور هوغو لانفائه كان في ذلك الوقت في السجن فكتب في ذلك (العمود)
اي العمود الذي رفع لنابوليون في سجنه فكتب في ذلك (العمود) الذي رفع لنابوليون في
سجنه في جروبة وحمل على اسم المواقف الحرة والحرية العسكرية . وعلى الشاعر في
ذلك التبرع في ذلك من الحرية وهو الس الذي يامل فيه الرجل لحقوق الاشخاص
فطن كبقية اداء العصر المتخوفين من استبداد شارل العاشر ان الحكومة
الامبراطورية لا تترك لحرية من الحكومة المالوكية ولذا اقبل على اظهار فضل
نابوليون واشهار مجده بدون ان يتعرض بالقدر لآل بوربون . ونشر عقب مدحه
السر في كروسل . وشرح في مقدمتها طريقة الجديدة في علم الادب وشكل
جمله من انظار هذه الطريقة وفي مقدمتهم الفرد دوفنيه وستابوف وأميل دوشان
والكشافين وغيرهم ولا يصح فيهم مثل لامارتين وسماط طريقهم « روماتيك »
كما كان الحسنون يطعن طريقهم « كلاسيك » وصار فيكتور هوغو امام المدونين
في هذه الطريقة الجديدة . فانتقد عليه كثيرون من ارباب السياسة وحقه الكلام
ولامروا من دوشان استبداد النمسا واليونان واشهاره مجد الحكومة الامبراطورية
وثانيها لدولة من مذهب النصرانية في . النظام والنظام في ذلك
غير ان الشاعر لم يصنع لهم الاكل والشعر في ذلك من دوشان في ذلك
وينشد قصائده امام الحاضرين . ويستعملهم في ذلك من دوشان في ذلك
انظار العموم نحو الشرق بسبب ثورة اليونان وذهاب المساكين المصرية للموره
وغدر الدول في وقعة نافارين نشر فيكتور هوغو ديوانه المترجم « بالشرقيات »
ولم يزر الشرق ولا رأى نساءه مثل ساتوريان ولا مارتين ولكنه درس احواله
درسا مدققا وقرأ ما ترجم من كتب ديوانه مثل كستان سعدى وديوان حافظ
شيرازي وما ترجم من الايات القرآنية والاحاديث النبوية فراج ديوان الشرقيات

لحدثه موضوعه وبحث فيه عن الممالك العثمانية والعوائد الشرقية وعن بلاد اليونان وإيطاليا وإسبانيا وكانت النفوس متشوقة للاطلاع على ما في ذوايا الشرق من الخبايا .

نم نشر قصة عنوانها « آخر أيام المحكوم عليه » وصور فيها الاضطراب الذي يحصل للقتول قبل قتله . وفي سنة ١٨٣٩ وجه الشاعر الثقات نحو المرحح الفرنسي (كوميدي فرانس) وشرع في اكتشاف الرقعة التي في الروايات المحزنة التي يسمونها « درام » ورواية « فيكتور هوغو » من غواني باريس

إسبانيا آخر العهد وكان لما على صبيحت على بعد أربعين عاماً من عمره ولما أراد مدير المرحح شخص الرواية منه المراقب فرجع للظاهر شكوكه من ظلم مراقب

المرحح إلى الملك فلم يأذن له بتشخيصها ومع ذلك قرّبه إليه ولاضفة بالكلام على « أحب قريحتك الشرعية وليس عندي أشعر منك من حسن صديقك » وزاد في رآيه حتى بلغ ٤.٠٠٠ فرنك فرفض فيكتور هذا الراتب مع شدة استعجابه إليه وشرع في تحرير رواية « إيراني » فأكملها في بضعة أسابيع وشخصت على المرحح الفرنسي ليلة ٢٥ شباط سنة ١٨٣٩ واشتد بسببها القيل وقال وعلا في المرحح الصغير والجدال بين أصحاب المذهب القديم والمذهب الحديث في علم الادب .

وتم النصر في تلك الليلة لهو كوكو وشيعته ولم يبق معه من القدر سوى شخصين فتركهم فقدم إليه منزله الطبع وارك له بمجاح رواية وقده في مقابلة حتى طبعها سنة ١٨٤٠ فرك واستلم منه النسخة الخطية وعقد معه مقابلة على تحرير قصة « نوتر دام دو

باريس » وسلمها في ظرف ستة أشهر . فأكب الشاعر على المطالعة والتحرير واكل القصص في تلك الأجل المحدود فليمت وكان له رواج عظيم وأسلم الرواية مأخوذ من كتيبة باريس الجاسية وهي قصة طغرى من دار البلدة ودار الخزانة

ولما أصدر شارل العاشر أمره بقتل فيكتور هوغو في السجن فتمتع بتمطيل أحكام القانون الاساسي على فيكتور هوغو في السجن فتمتع بتمطيل وسالت الدماء في العاصمة ثلاثة أيام بلياليها ثم شارل العاشر من فرنسا وتنازل عن الملك لابنه وولي عهده دوك انكوليم - وانكوليم بلدة بين بوردو وباريس - غير ان هذا الدوك امتنع أيضاً واتقل الملك بالارث الشرعي الى دوك بوردو

وهو. حفيد شارل المشار اليه . فالجمهور من الفرنسيين لم يلتفتوا الى حقوق هذا الصبي واتخبوا ملكاً عليهم لويس فيليب ابن عم شارل العاشر لقبوله اعطاء الاهالي حقوقهم وتعهد بحماية القوانين . فهو كـ « شاعر الملك والمدافع عن حقوق الملكية وتاظم القضاة القراء في ولادة دوك بورژوا صاحب الميراث الشرعي وفي رثاء ابيه دوك بورژوا » . يهتز لهذه الحوادث بل مظهر استحسانه ما فعله الشعب ولم يعبأ بالمسائل السياسية . « فيقول في قنصلية في قنصلية ديوانه المسمى « اوراق الميراث » . وشخص على المسرح الفرنسي سنة ١٨٣٩ رواية ماريوم دولورم التي منع تشخيصها سابقاً ثم رواية « الملك ينسلي » وهي رواية تاريخية موضوعها فرنسا الاولى الذي التجأ الى ساكن الجنان السلطان سليمان القانوني من شارلكين . فمنع مراتب المطبوعات اعادة تشخيص هذه الرواية للتعريض فيها للملك . فرجع الشاعر شكواه الى محكمة التجارة ودافع عنها بنفسه امام المحاكم فلم يسمحوا له بالتشخيص . ولم يجر تشخيصها مرة اخرى الا سنة ١٨٨٢ وكان الذي ربحه فيكتور هوكو من مؤلفاته كافياً لاقتضاه من محالب الفقر وسعادة حاله ففتح له الزائرين حتى صار جميع الادياء ومركو الفقراء . وفي عهده الكاتب الشهير تيوفيل غوتييه الا ان الشقاق وقع بينه وبين صاحبه القديم الكساندر دوماس ودام الخصام أعواماً كثيرة . لان غيرة الشعراء والعلماء بعضهم من بعض اشد من غيرة الامة ..

ووجهه ايضاً حبيب سائب بوف الماهر في فن الانتقاد وقال عن مؤلفاته بانها مملوكة من الناحية الملكية والديانة الكاثوليكية والفلسفة السيبنونية - وهي التي وضعها الكسندر سيمون في اواخر القرن الثامن عشر وفرض فيها تعلم الصنائع على كل فرد من افراد الامة . فلم يتبعه الا القليل من الناس مثل كارنو والد رئيس الجمهورية الا انهم لم يعمل برأيه ومع جلالة قدره جعل أحد اولاده نجاراً والآخر مهندساً وكلاهما من اكابر رجال الدولة . ثم الف فيكتور هوكو رواية « لوكريس بورجيا » وفي اخت فيكتور بورجيا المشير بالاسراف وفساد الاخلاق وكانت بديعة الحسن ولها حديث غريب فشكلت هذه الرواية في ٢ فبراير سنة ١٧٣٣ فاقبل

الناس على استماعها ثم شخصت مراراً على المسرح الذي يباب سن مارتن وكانت الممثلة التي شخصت دور الاميرة نيكروني هي مادموزيل جوليت دروه التي سبت الشعراء بحسنها وعقلها . فشغف فيكتور هوغو بحبها وبعد ان تردد على بيتها كثيراً استكن في بيتها عند زوجته فلما له أحد اصحابه فخر اليه يعتذر بان زوجته اذنت له وسأحته على ما فرط به من حب جوليت ولم تزل زوجته تحبه وتحميه . واستمرت في صحبة الشاعر ورافقه في منفاه وكانت تحرر له القصائد وهو يجلي عليها ودامت معه الى بعد وفاة زوجته ورافقه ايضا في سن ١٨٤٣ فيكتور هوغو أيضاً رواية « ماري تيدور » وهي ملكة الانكليز ورواية « المجلو » وهو أمير ظالم من امراء الطليان ورواية « ريبولاس » وهو اسم خادم الوزير الذي خدعت به ملكة اسبانيا . وشخص اليوم على المسرح الفرنسي في رواية « ايرناني » . ورواية « كلودكو » وهي مما ترجم من مؤلفات هوغو الى التركية وفيها دفاع بليغ

عن المحكوم عليهم بالاعدام وتشنع هذا القصص

وما نشره في هذا التاريخ من الاشعار الموسيقية غير اوراق الخريف « اغاني الشفق » و « الاصوات الداخلية » و « الاشعة والظلال » وغير ذلك فصار فيكتور هوغو بهذه التاليف يعد من فحول ادباء المصرواكتسب لوريلان وزوجته ووجه عليه لويس فيليب نشان الافتخار من درجة اوفيسيه واهداه صورته واتخذته الاكاديمية الفرنسية عضواً في حصيلتها من بعد ان عارض أعضاؤها زماناً طويلاً في قبوله لشدة تمسكهم بالقواعد وانهاليب الاشياء القديمة . ولم يدخلوه بينهم الا بعد أن اشتهر فضله كالشمس في رابعة النهار . سنة ١٨٣٩ ساح فيكتور هوغو في جبال الالب على جبال ايطاليا وسويسرا وشاهد مناظرها البديعة وزار بعد سنتين ضفاف الرين ودرس احوال بلاد الالماني وكسب سياحته في مجلدين نشر بعد موته . والف أيضاً رواية « بورغراف » التاريخية وبين فيها اخلاق امراء الالماني في القرون الوسطى . فشخصت على المسرح الفرنسي سنة ١٨٤٣ ولم يقبل عليها الجمهور ولا حصل منها ارباح للمشخصين فتكدر الشاعر من سوء طالعها وعدل عن تأليف الروايات وترك رواية « التوأم » التي شرع في تأليفها بدون ان

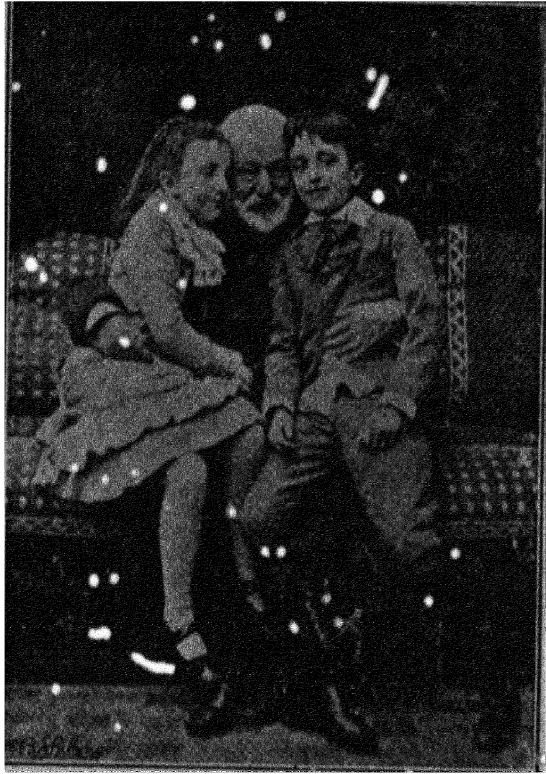
فيليب باب الحكومة ليفكتور هوغو وعينه عضواً لمجلس الإعيان سنة ١٨٤٥ فجلس مع اصحاب اليمين وانضم لحزب الامة الكثيرة وهو حزب الوزارة وقال بقولهم وتكلم في بعض المسائل فخطب خطبة في «ماركة الفابريكات» و«واجري في» المسألة البولونية» ومدح البابا الحرو طالب ارجاع عائلة بونابرت فلم يكن لكلامه تأثير على اعضاء المجلس كما كان لا شعاره وذكرا كان في نفوس الجمهوريين وبنسبها على المراسم من الحزب الثامن والمشتبهات في الجبل من اقلية الطبقة لادله من القليل والذين

ولما تحوي حزب الجمهورية وحدث انقلاب سنة ١٨٨٠ وأول الذي فيليب عن عرش الملك واعلنت حكومة الجمهورية الثانية على فرنسا اتت فيكتور هوغو عضواً في مجلس الامة من اقلية السين وامسن في تلك السنة جريدة الوقائع (الاعتقال) وكتب عليها «البنفس الشديد للفوضوية والقيام في الشعب والحرفاء وكان يمينه في تحرير الجريدة ابناه شارل وفرانسوا وأصدقائه من اقلية الجمهوريين على قول موريس و«لويس» كيني ونيفيل غونيه والبر لوكروا وغيرهم وكان للفرع رئيس الجمهورية اثنين وهما نابليون الثالث وشارل كاتيلانت فالت جريدة الوقائع في خطها السياسية ثابته لان فيكتور هوغو كان يترنم في قصائده والمدح في السور، ويترنم في ذكر نابليون الاول. ولما قام لسب في باريس الاسراء لليم نابليون الثالث وظن انه يترنم اليه ويكون مستشاراً للفرع في الانتخاب على الامر. واكتسب نابليون الثالث اكرمية الامم لشركائه في العمل على حبه وكان يصفه ب«مستغل» وبنسبها على الجمهورية واسم زعيم الادارة ولم يكتسب فيكتور هوغو. كما كان له الشاعر اقلية من اصحاب اليمين الى اصحاب الشمال من الكبر و«الزهر» الحزب الخفاف. كتب انقلابه بانه مذبذب يتردد بين اليمين والاشمال و«طلع» عنه اصحابه فيليب باب الفاضل بهم بالاحزاب وانما يرى مصلحة الامة فيسير معها. وكان فيليب باب في المجلس خطبة شددوا عليه النكير وذكروه بسوابق اعماله واشعاره. ولما تمت الرئاسة لنابليون مالت نفسه لليس التاج وشرع في اعداد المعدات ونهيشه الاسباب فظاهر فيكتور

هو كوله بالعداوة ونشر في تقبيح سيلسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع
فسماه نابليون الصغير: قائمهم مراقب الجرائد: ابنهم المحررين لتلك الجريدة وحاكمها
والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١
والتي القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية
وكان اسم فيكتور هوغو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيته الممثلة جوليت دروه
على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس خائراً وهنا تم الدور
الاول من ادوار حياته

الدور الثاني .

وهو مدة وجوده منفياً من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠
بعد ان فر فيكتور هوغو من باريس تجاوز الحدود الفرنسية واتى بروكسل
عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته بوصيها بالتدبير
والتقدير ويعرفها بان مصروفة في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير
والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة
من الصواعق التي رماه بها . ثم نشر « تاريخ جرم » قهافت الناس في فرنسا وعموم
اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فنع نابليون دخولها للمالكة وامر سفيره في
بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوغو عنها فلم تجسر الحكومة
على ذلك الا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب الى جزيرة
جرسي التابعة لانكلترا وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا
العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل
وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة
آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله : ان الخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً
وتملأه بالحقد » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابليون
اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرنسا واوربا ورج ملتزم طبعه في بروكسل
ربحاً وافراً لم يعد منه على المؤلف الا اليسير
ولم يزل نابليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينهبهم من الارض



فيكتور هوگو و حفيده

هو كوك له بالعداوة ونشر في تقبيح سيلسته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع
فسماه نابليون الصغير: فاتهم مراقب الجراند ابنهم المحررين لتلك الجريدة وحاكمها
والقاهما في السجن . ثم استبد نابليون بالامر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١
والتي القبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية
وكان اسم فيكتور هوكو في رأس قائمة المتهمين فساعدته حبيته الممثلة جوليت دروه
على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس خائراً وهنا تم الدور
الاول من ادوار حياته

الدور الثاني .

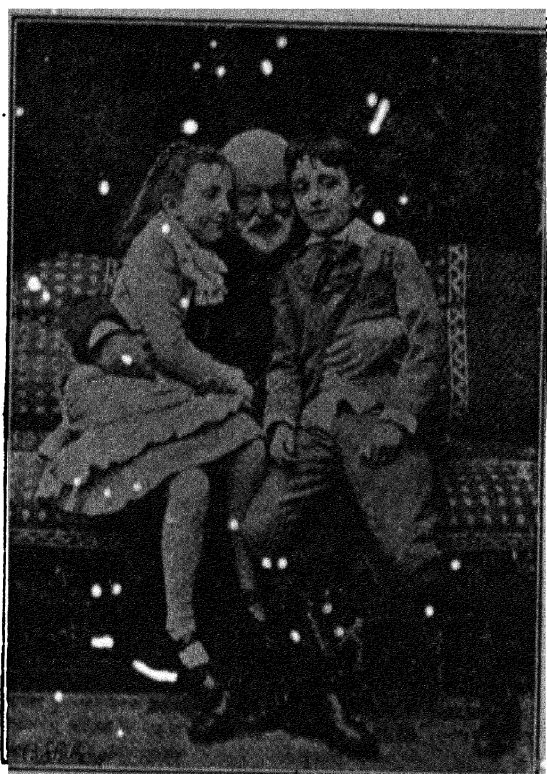
وهو مدة وجوده منفياً من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠
بعد ان فر فيكتور هوكو من باريس تجاوز الحدود الفرنسية واتى بروكسل
عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته بوصيها بالتدبير
والتقدير يعرفها بان مصروفة في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير
والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة
من الصواعق التي رماه بهلم ثم نشر « تاريخ جزم » قهات الناس في فرنسا وعموم
اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فمغ نابليون دخولها للملكه وامر سفيره في
بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوكو عنها فلم تجسر الحكومة
على ذلك الا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب الى جزيرة
جرسي التابعة لانكلتره وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا
العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل
وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة
آلاف فرنك فمرف الجوع بقوله « ان الخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً
وتملأه بالحنق » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابليون
اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرنسا واوربا ورج ملتزم طبعه في بروكسل
ربحاً وافرآ لم يعد منه على المؤلف الا اليسير

ولم يزل نابليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض

هو كوله بالعداوة ونشر في تقبيح سيلمته فصولاً وعرض باسمه في جريدة الوقائع
فسماء نابليون الصغير: فاتهم مراقب الجرائد ابنه المحررين لتلك الجريدة وحاكمها
والقاهما في السجن . ثم استند نابليون بالاجر واجرى حادثة ٢ دسمبر سنة ١٨٥١
والتي قبض على زعماء الحزب الجمهوري وجميع المتهمين بمخالفة السياسة الامبراطورية
وكان اسم فيكتور هوغو في رأس القائمة المتهمين فساعدته حبيته الممثلة جوليت دروه
على الاختفاء واستحصلت على تذكرة مرور فخرج من باريس خائراً وهنا تم الدور
الاول من ادوار حياته

الدور الثاني .

وهو مدة وجوده منفياً من سنة ١٨٥٢ الى رجوعه لباريس سنة ١٨٧٠
بعد ان فر فيكتور هوغو من باريس تجاوز الحدود الفرنسية واتى بروكسل
عاصمة البلجيك وكان في غاية الضيق من قلة النقود فحرر لزوجته يوصيها بالتدبير
والتقدير يعرفها بان مصروفه في الشهر لا يتجاوز مائة فرنك . واقبل على التحرير
والتأليف وهو يستشيط غضباً فنشر كتابه « نابليون الصغير » وكان اول صاعقة
من الصواعق التي رماه بهلم ثم نشر « تاريخ جزم » قتمافت الناس في فرنسا وعموم
اوروبا على مطالعة هذين الكتابين . فنع نابليون دخولها للمالكة وامر سفيره في
بروكسل بان يطلب من حكومة البلجيك ابعاد فيكتور هوغو عنها فلم تجسر الحكومة
على ذلك إلا بعد اخذها قرار مجلس النواب فدعته للخروج . فذهب الى جزيرة
جرسي التابعة لانكلتره وهي جزيرة في بحر المانش بين فرنسا وجزائر بريطانيا
العظمى . وجلب اليها عائلته وكانت حبيته جوليت سبقتها واقامت معه في بروكسل
وشاركته في السراء والضراء وكان في ضيق من جهة المعاش ولم يكن معه الا سبعة
آلاف فرنك فعرف الجوع بقوله « ان الخمصة تثقب في قلب الانسان ثقباً
وتملأه بالحق » ونشر كتاب « القصاص » سنة ١٨٥٣ وكان صاعقة على نابليون
اشد من الاولى وراج رواجاً عظيماً في فرنسا واوربا ورج ملتزم طبعه في بروكسل
ربحاً وافرآ لم يعد منه على المؤلف الا اليسير
ولم يزل نابليون الثالث يضطهد رجال الحزب الجمهوري وينفيهم من الارض



فيكتور هوکو و حفيداه

فعارضه فيكتور هوغو ونظم عدة قصائد في وصف حالة اولئك المضطهدين الذين اخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطالب «فير فرانسا» في لوندرا اخراج هوغو من جزيرة جرسى وابعاده فاخرجه الحكومة الانكليزية ارضاء للتايبيون ولكنهم لم تضيق عليه فذهب الى جزيرة كيرينزي وهي بجوار الجزيرة الاولى في بحر المانش وتابعة لها الانكليز . واشترى فيها داراً خربة ثم هجرها متوجهاً على صخرة عالية مظلة على الاوقيانوس المحيط وتسمى «هوت فيل هرس» فرمى بها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لآعماله فكان يشغل فيها بالنظم والتأليف يفكر في تقاليد الدهر واحوال العالم وينسره شاخص الى لجة البحر المحيط . وكان يعينه في التحرير والمطالعة اباه وزوجاته وصاحبه الشاعر اوجست فاكيري . فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأملات وعرفه بسامحات البال . ثم أخذ يسلي همومه بطالعة اخبار المتشددين ودرس سير الانسان في مدارج الترقى والعمران فنشر القسم الاول من كتاب «سير الدهور» سنة ١٨٥٩ ثم الف قصته الشهيرة المترجمة «البؤساء» . وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا نادر البحرية في الوزارة الفرنسية السابقة اي وزارة الموسيو ميلان فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية فلما بعث اليه بالجندين الاربين من كتاب البؤساء باعدها ملتزم الطبع في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ الف فرانك ذهب انكليزي

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ اقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوربا في آن واحد . وكان اصحاب المطابع تستدعي الموسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب الى لوندرا عند الكاتب الشهير في بنترنوستر ودس له بعنف : —

— كم نطالب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية : — فاجابه

— ثلاثة الاف كاهنية . فتناول دفتر الشاك وحرر المبلغ والاسم وقابل

له خذ نحن على وفق

فسعد حال فيكتور هوغو من جهة المانش وذهب عنه الضيق فنظم دارة وغرس ارضها بالاشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المثمدن وقصده الزوار

فعارضه فيكتور هوغو ونظم عدة قصائد في وصف حالة أولئك المضطهدين الذين أخرجوا من ديارهم ظلماً وعدواناً فطلب هينري فرانسوا في لوندرا إخراج هوغو من جزيرة جرسى وابعاده فأخرجته الحكومة إلى انكلزية أرضاء النابليون ولكنهما لم تضيق عليه فذهب إلى جزيرة كيرنيزي وهي بجوار الجزيرة الأولى في بحر المانش وتابعة مثلها للانكليز. واشترى فيها داراً خربة ثم جعلها مكتبة على صخرة عالية مطلّة على الاوقيانوس المحيط وتسمى « هوت فيل هرس » بمفرمها وسكنها واتخذ الطبقة العليا منها غرفة لأعماله فكان يشغل فيها بالنظم والتأليف. يفكر في تقلبات الدهر واحوال العالم وبصره شاخص إلى لجة البحر المحيط. وكان يعينه في التحرير والمطالعة اباه وزوجته وصاحبه الشاعر اوغست فاكيري. فنشر سنة ١٨٥٦ كتاب التأمّلات وعوفه بسانحات البال. ثم أخذ يسلي همومه بمطالعة اخبار المتقدمين ودرس سير الانسان في مدارج الترقى وال عمران فنشر القسم الاول من كتاب « سير الدهور » سنة ١٨٥٩ ثم ألف قصته الشهيرة المترجمة « بالبؤساء » وكان له صديق حميم وهو موسيو لوقروا ناظر البحرية في الوزارة الفوضاوية السابقة أي وزارة الموسيو ميلين فكان هذا الاديب يعين الشاعر على طبع مؤلفاته في البلاد الاجنبية. فلما بعث اليه بالمجلدين الاولين من كتاب البؤساء باعها لما تنزم الطبع في انكلترا بمبلغ قدره ١٢٥ ألف فرنك ذهب انكليزي .

ولما نشر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢ أقبل المترجمون على ترجمته ونشروه في تسع لغات من لغات اوربا في آن واحد. وكان اصحاب المطابع تستدعي الموسيو لوقروا من جميع الجهات في انكلترا والمانيا والنمسا ليشتروا منه حق الترجمة والطبع ولما ذهب إلى لوندرا عند الكتبي الشهير في بترنوسترود سأل بهنفة: —

— كم تطلب بحق نشر كتاب البؤساء في اللغة الانكليزية ؟ — فأجابه

— ثلاثة الاف ليرة انكليزية. فتناول دفتر الشك وحرر المبلغ والأسم وقال

له خذ نحن على وفاق

فسعد حال فيكتور هوغو من جهة المعاش وذهب عنه الضيق فنظم داره بغرس أرضها بالأشجار والرياحين وطار ذكره في العالم المتمدن وقصده الزوار

وكتابه الرجال . وكان البعض يحرر عنوانه « فيكتور هوغو في الاوقيانوس » فكانت
تصله بهذا العنوان المبهم لسعة شهرته . واشتهر اسمه لا اترانه باسم نابليون وكبره
البعد والاعتزال في مخيلات الناس حتى اعتقدوه من اكبر العقول البشرية . وكانت
العيون ترقب طلوع مؤلفاته كما ترقب شمس الشتاء . وفي سنة ١٨٦٤ نشر كتاب
« ولیم شکسپیر » في الفلسفة في بنامها سنة نشر « ديوان اغاني الشوارع والاحراج »
وفي سنة ١٨٦٦ نشر قصة « المشتغلين في البحر » وصف فيها ما يكابده الفلاحون
من المشاق وما يتوصلون فيه من للاخطار . وفي ثلثة ١٨٦٩ نشر قصة « الانسان
الضاحك » . ولم يأل جهداً وهو في تلك الجزيرة عن الانتصار للاقوام الذين غدر
بهم الزمان ورواهم سوء الطالع بالخسران . وفعل ما فعله فولتير وهو في فيرين فدافع
عن عصاة ايرلانده وعن مكسيميليان امبراطور المكسيك وهو اخ امبراطور النمسا
اغراه نابليون الثالث على لبس التاج وامده بالعساكر الفرنسية ثم نخلى عنه فخاكه
المكسيكيون وقتلوه . . .

ثم ان المسائل العائلية اخلت براحة الشاعر واققت افكاره وذلك ان ابنته
عادلة احبت قومندان المركب المحافظ على الجزيرة وتزوجت به رغماً عن والدها
وذهبت معه الى الهند منشأ الطاعون ومهب الريح الاصفر فمات فيها وعادت
لفرانسا محتلة الشعور سنة ١٨٧٢ فادخلوها بهيماستان مثل عمها وهي التي ورثت
اباها . وفي سنة ١٨٦٨ توفيت زوجة فيكتور هوغو في بروكسل بعد ان كف
بصرها وذهب ابنه في السنة التالية الى باريس مع صاحبها اوغست فا كيري
لينشئوا فيها جريدة « رابل » وينددوا بالحكومة الامبراطورية وذهب فيكتور
هوغو الى بلاد سويسرا ليحضر مؤتمر لوزان ويخطب فيه خطبته المشهورة . ولما
جرت الانتخابات في اوائل سنة ١٨٧٠ نشر فيكتور هوغو رسالة اعتراضية
عنوانها « لا » ثم انتشبت الحرب بين فرنسا وبروسيا ودارت الدائرة على نابليون
الثالث فسلم سيفه في ميدان القتال الى ملك بروسيا وطار الخبر الى باريس فاجتمع
رؤساء الحزب الجمهوري في دار البلدية واعلنوا الحكومة الجمهورية مكان
الامبراطورية في ٤ سبتمبر سنة ١٨٧٠ وهي الحكومة الجمهورية الثالثة الحالية ولم

بعد مانع فيكتور هوغو من الرجوع الى فرنسا . وبذلك انتهت ايام نفيه

الدور الثالث

هو دور شيخوخته اي من رجوعه الى فرنسا سنة ١٨٧٠ الى وفاته سنة ١٨٨٥

بعد ان قام فيكتور هوغو في منفاه ثنائي العشوة سنة عاذه الى باريس مع من عاد من لكان الحزب الجمهوري واستقبله احباؤه وأشياعه وانزلوه على السعة والرحب فخر خطاباً بليغاً للامانيين يحضهم فيه على الصلح وترك الحرب وكان من رأيه السياسي وضع اتفاق بين الالة الفرنسية والبروسانية وتقسيم البلاد بينهما . فلم يضع الامانيون لخطابه وظلوا هاجمين حتى بلغوا خنادق بارس واقوا الحصار عليها فترك فيكتور هوغو القلم من يده وامسك السيف واتظم في سلك الجنود المماطين من الاهالي ودافع عن اوطانه وتالم بالام اخوانه . ولما احتلت العساكر البروسانية بارس هاجر منها اهلها واتخذت الحكومة الجمهورية مدينة بوردو مركزاً لها عوضاً عن بارس . وانتخبت ابالة السين فيكتور هوغو مبعوثاً لها في مجلس النواب فلما قام بخطب عارضه اصحاب اليمين واكثروا اللغظ وابوا الانصات له فقال لهم « منذ ثلاثة اسابيع رفض المجلس الاصغاء لغاريالدي واليوم يرفض الاصغاء لي فاقدم استعفائي » غاريالدي هو من القواد الذين حاربوا لاجل استقلال ايطاليا وهاجم رومة العظمى وانتزعها من يد البابا وسلمها الى ملك ايطاليا ليتخذها عاصمة للملك فلما انتشبت الحرب بين فرنسا وروسيا دخل متطوعاً في العسكر الفرنسي ودافع عن فرنسا اشد المدافعة فانتخب مبعوثاً في مجلس النواب مع كونه طلياني الاصل وكانت الاكثرية في المجلس من حزب الملوكيين والرهبانيين فاتهموه بالكفر والاحاد لتجاوزته على رومة ونزعه سلطة البابا منها ولذا لم يصغوا لكلامه

وفي ذاك التاريخ اعيد طبع كتاب « القصاص » نكالا من حزب الامبراطورية وكان يباع بالمائة الف نسخة معاً . ولما كان ابن فيكتور هوغو المسمى شارل في بوردو دخل عند صاحبة له يقضي ايلته فتوفي فجأة في فراشها وحزن ابوه حزناً شديداً فجاء بجثته الى بارس ودفنها يوم حدوث ثورة الكومين وانعطف بالحنو

والراقة على ولديه الاصغرين وهما مجوزج وجان وبالغ في دلالهما حتى أثر هذا الدلال في اخلاقهما واصبحت جان لا تهتبط بمعاشرة زوجها حتى طلقها لشدة ميلها الى اللهو والخلعة . وبعد وفاة شارل تزوج الموسيو لوقروا بزوجه لتربية الولدين لحياء بيت فيكتور هوكو فبناه الشاعر وأحبه حباً شديداً

ولزم فيكتور هوكو الحيادة في المعامل السياسية لحزبه على ولده وفلذة كبده غير انه لم يطق الصبر على ما شاهد من فظائع الرعاع فلأمهم على قلبهم العمود المنصوب لتابليون الاول كما لام حكومة فرسايل على اطلاقها القابل على قنطرة النصر المنصوبة له . وبرا تابولين الاول مما جناه ابن اخيه على البلاد من الحرب التي جلبت عليهم الويل والدمار وذهب هوكو في انشاء تلك المعامع الى بروكسل والى لوندرة ونشر كتابه المعنون بالسنة الموبلة وشدّد فيه النكير على دخول الاجانب افرانسا وعلى الفظائع التي اجراها الرعاع والسفلة وهم الكومين . ثم عاد فيكتور هوكو لباريس وانشأ فيها جريدة سماها « الزمب الحاكم » وجعل ثمنها خمسة سنتيمات لكل نسخة ليتمكن الفقراء من مطالعتها . ولم يهدأ بال الشاعر برجوعه لوطانه واجتماعه على احبابه وتخلّيه الا واصيب بموت ابنه الثاني فرانسوا فصبر على مصائب العمر ونكبات الزمان وسلم الامر لله لانه كان من الموحدين وعكف على النظم والنثر فنشر سنة ١٨٧٤ قصة عنوانها « ثلاث واسعون » وتكلم فيها عن الانقلاب الفرنسي الكبير . وفي سنة ١٨٧٥ انتخب فيكتور هوكو عضواً للمجلس الاعيان (سينات) فجلس في نهاية اصحاب الشمال ولم يتكلم في المجلس الا قليلاً مثل طلبه العفو عن مجرمي الكومين — والكومين هم القوة الحزبية او الادارة العرفية التي تشكل في العاصمة وتحدث انقلاب الدولة ويحصل بسبب ذلك من تعدي الرعاع وتسلط السفلة ما تقشع من سمائه الجلود . وقد تأسست هذه الادارة المرهبة في باريس مرتين احدهما سنة ١٧٩٢ والاخرى سنة ١٨٧٨ واستمرت هذه السنة من ١٨ مارس الى غاية مايو وجرى في اثناء ذلك كثير من التعديات والمظالم فكان فيكتور هوكو يشير في المجلس بالمفوض عما مضى ولم يظهر له اقتدار كبير في السياسة ولا في فن الخطابة مثل غابيتا وامثاله من مخول السياسيين . وانما صرف كل قواه في

الاشتغال بعلوم الادب والتاريخ ونشر «الاقوال والاعمال» و«اولادي»
و«معرفة ما يكون به الانسان جذاً». وفي سنة ١٨٧٧ نشر القسم الثاني من «سير
الدهور» و«الاملاك العمومية التي تدفع الرسوم» ونشر من سنة ١٨٧٨ الى سنة
١٨٨٥ اربع منظومات فلسفية وهي «الها» و«الرحمة العالية» و«الاديان
والدين» و«الحمار»

وحاز في شيخوخته احتراماً كبيراً ونزوة عظيمة زادت على ثلاثة ملايين فرنك
ولما بلغ الثمانين من عمره احتفل به اهالي باريس احتفالاً عظيماً وزينت له المدينة
في ٢٦ شباط سنة ١٨٨١ ووفد عليه المهنتون من جميع الولايات والنواحي واكثر
الملوك الاجنبية. فاستقبلهم وهو واقف بين حفيده جورج وحفيده جان وكان مغرمًا
في حبها وفي حب جميع الاطفال وقد خصهم بالذكر في اشعاره وتغزل بهم. ولذا
كان في جملة الوفود المهنتين وفد من اجل الاطفال الصغار يحملون له باقات الازهار.
ولم يبق احد في باريس الا ومرت يابه وصاح بهورهم بالدعاء له. فوقف في نافذته
وحياهم كما يحيي الملك شعبه ودموعه تذرف من شدة التأثر والاشفاق. وكان مشاهير
الرجال وامراء الناس واعيانهم كلما جاؤا لباريس زاروه في داره وحضروا مجلسه.
وكان في جملة من زاره امبراطور البرازيل فكان الاحتفال بيلوغه الثمانين من اجل
الاحتفالات التي لم يسبق مثلها الا للشاعر الفيلسوف فولتير قبل موته بقليل. ونشر
فيكتور هوغو في آخر ايامه منظومة طويلة سماها «رياح العقل الرابع» ورواية
«توركاده» والقسم الثالث من «سير الدهور» و«ارخبيل بحر المانش»
وغير ذلك من الآثار التي نشرت بعد وفاته وسيأتي وصفها في اواخر
هذا الكتاب

ولما توفي فيكتور هوغو سنة ١٨٨٥ لبست باريس عليه اثواب الحداد والتبس
فيها الامر على الغرباء حتى لم يعلموا هل اليوم في ماتم غلبيم ام في عيد كبير وحيي
بجثته فوضعت في تابوت عال تحت قنطرة النصر بعد ان كسيت بالسواد وزينت
بالازهار والرياحين واصطف الشعراء حولها صفوفاً واحتاط بهم الفرسان بحملون
بايديهم المشاعل وسهروا عليه طول ليلتهم والناس يمرون امام تابوته افواجاً افواجاً

ولما أصبح الصباح اجتمعت الجموع وزينت الصفوف وكانت اكثر المدن الفرنسية والممالك الاجنبية قد نهئت بالوفود والاكاليل فحملوا الجنازة من تحت قنطرة النصر الى البانتيون . وصار له مشهد لم يسبق لشاعر قبله ولا لفولثير . وكانت وصية هوكو أن لا يحضر جنازته راهب ولا أحد من الاكليروس وان يدفن كالفقراء . ولذا كانت العربى العجي حملوه عليها من عربات القراء لا تناسب دبدبة هذا الاحتفال ولم يجر له احتفال ديني بل كان للاحتفال بجنازته اهائيا . اهـ

فيكتور هوغو

وعلم الادب عند الاقترنج والعرب

أدب مكر لسان ما حصل فيه لاجادة من الكلام المنظوم والمثور . ويشتمل على فنون الشعر والاغاني والروايات والتقصص وضروب الامثال والحكم والنواذر والحكميات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك . وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدمين كتاب مجاني الادب المطبوع في بيروت . والاصل في الكلام للمعاني لا للالفاظ . لان اللفظ قالب او ظرف للمعنى يتخذ المتكلم أو الكاتب لسبك ما يصوره في نفسه ويشكاه في قلبه من المعاني فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده . قال الشاعر :

ان الكلام اني الفؤاد وانما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

فالاعتدال على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى « الفصاحة » و « البيان » لان المتكلم يفصح عما في ضميره ويبيّنه بكلمات عذبة سلسلة وبعبارات جليلة خفيفة على القلب واللسان . فالتكلم على هذا النسق « فصيح » وكلامه ملفوظاً كان أو مكتوباً « كلام فصيح » . وحيث كان المعنى سابقاً للفظ وجب ان تكون الالفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها . وليس المعنى تابعاً للفظ كما حكي عن بعض الامراء انه ولي احدثهم قضاء « قم » وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان ثم كتب اليه بلا سبب موجب « ايها القاضي بقم قد عزلناك ققم » يعني بلفظ « قم » . فقال القاضي والله ما عزاني الا محبة الامير في التزام السجع . ولا يكل علم الادب للمتبحر فيه الا بعد ان ينظر في ادب الامم المتعددة ولو نظرة عامة يطالع بها على مجمل تاريخ ادبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الادراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم

والنثر وتصرفهم في الكلام ويميز بين المتقدمين والمتأخرين منهم
 فإذا احاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان
 وملة ورأى الهدف الذي يروم كل منهم؛ أصابته فيصوب نحوه القلم عسى أن
 يكون له مع الخواطر سهم صائب. لأن البلاغة لا تختص باللسان العربي
 وحده، وكلما ارتقت الأمة في سلم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع وأكمل
 لهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وذنونة فبدركون بالدريج
 حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم واجدادهم غير موضحها بسبب الجهل الناشئ
 من ضيق العمران وقلة العلوم. ويفرغون ما وجدوه وما اصطحوه من المعاني في
 قوالب تناسبها من ألفاظ والتراكيب. « فالبلاغة » هي مطابقة اللفظ للمعنى
 من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال
 والمقام. وفي المثل لكل مقام مقال. سواء كان المقل أي اللفظ عربياً فصيحاً بأعراب
 أو حضرياً بلا أعراب أو عجمياً وإن كان عثمانياً^(١) أو انكليزياً أو فرنسائياً أو
 فارسياً. أو غير ذلك. فإلتكلم بلسان العرب والبالغ فيه يتحرى التركيب المنبذ
 المقصوده على أساليب النوب والحاء مخاطباتهم. وينظم الكلام على ذلك الوجه
 قدر ما ييسر له. فإذا لزم قراءة الطبقة العالية من كلام العرب الأقدمين حصت
 له مائكة فيه وسهل عليه التركيب على أسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحنى
 البلاغة التي للعرب. وإن سُمع تركيماً غير جار على ذلك المنحنى نبا عنه سمعه. وإذا
 كثرت اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت أساليبه اعجمية مع بقاء الالفاظ في
 كلامه عربية. كما يتضح لمن آمن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في أوروبا
 ومنها ما طبع في مصر. وفي رسائل غيره من فلاسفة الاسلام وأهل المنطق. فإنه
 يرى فيها الأساليب الاعجمية واللهجة التي لم يلهجها ادباء الجاهلية

(١) اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس « اللسان التركي » ويتألف
 من ثلاث لغات أحدها لسان جغتاي وهو أصل اللسان التركي. وثانيها اللسان العربي
 وثالثها الفارسي. وأوله من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الإصلاح ذو
 جودت باشا المؤرخ الشهير

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين : الاولى تشمل حركات الاعراب في اواخر الكلم وكيفية تركيب الالفاظ . فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على تعيين الفاعل او المفعول . واما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدعى على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبنية لخصوصيات المقاصد . وكيفية التركيب هي التي تدل في لغة مضر على ما تقتضيه الاحوال من التأكيد والتعريف والتذكير مثل تقديم لفظ لمؤ تأخيره لوصف المعنى وتكييفه ومثل زيادة حرف او تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الاصل لان زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا قائم . وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الاولى « انا اليكم مرسلون » وفي المرة الثانية « ربنا يعلم انا اليكم مرسلون » فالالفاظ باعينها تدل على المعاني باعينها في كل لسان . وخواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الاحوال المكتشفة بذلك المعنى . واما في لغة الحضر وفي اللسان الاعجمية فاكثر ما يدل على هذه الاحوال بالفاظ وكلمات مخصوصة . ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل الفاظاً وعبرة من غيره . ولهذا اشار نبينا محمد عليه السلام بقوله « أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً » على ان بقية اللسان لم تمثل بالكفاية من هذه الخاصة الاولى لسان مضر وحركات الاعراب موجود منها في اللسان العثماني . تقول « زيد كلدي » بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد . و « زيدي جاب ايتدم » بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيدا . وان لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى . واما في لغات اوربا فالاعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الالمانية . غير ان الخاصة ربما كانت في لسان مضر اكثر واعرف واثبت . واذا لم يراع الانسان هذه الخاصة في اللسان الذي يتكلمه وقع له ما وقع للوايد مع الاعرابي . وذلك ان الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحائاً وكان ابوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال له انك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وانت تلحن وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الاعراب فمكث كذلك مدة ثم خرج وهو اجهل مما دخل . فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه اعرابي يشكو صهره له

• فقال الوليد : — ما شأنك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : — أعوذ بالله من الشين .

فقال له سليمان بن عبد الملك : — أمير المؤمنين يقول لك ما شأنك (بضم

النون) .

فقال الاعرابي : — ختني لخلي .

فقال الوليد : — من ختنيك (بفتح النون)

فقال الاعرابي : — إنما ختني الحجام ولست أريد هذا .

فقال سليمان بن عبد الملك : — أمير المؤمنين يقول من ختنيك (بالضم)

فقال الاعرابي : — هذا . وأشار الى خصمه

• والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات

وأنواع البديع من الكلام ومرد أحسنه في القرآن الكريم مثل : أشتعل الرأس شيئاً ، ومنه في الشعر كقول ابن المعتز « والشمس كالمرآة في كف الاشل » فجمع

ذلك أتم واكمل في لسان العرب . ويعمدون من الكلام البديع لفكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر . وقول كمال بك امام الادب في

اللسان العثماني « برق الحقيقة يلعب من تصادم الافكار » . فهذه البلاغة والبيان

ديدن العرب . وفي كلامهم كثير من البديع أنوار بغير تكلف ولا نعمل . وبعضهم تصنع له وتكلف ظناً بأنه اساس البلاغة والمقصود منها بالذات فملاوا

بالبديع والاستعارات النظم والنثر وصرفوا الذهن وأجهدوا العقل حتى قالوا

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم

وتنافلوا عن ايضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجلية التي اوضحها ادباء اليونان والرومان والافرنج فيما القوه من الروايات المضحكة او الفاجعة وعرضوه

في المراسح على انظار الجمهور فقدره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام على ان تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية وان كان لها تأثير عظيم على

النفس فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس . فاما قل بمجتهد بان تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والادب والكمال فان وجد معها شيء من

الحلي فنعم . والا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها : فهي الضالة التي نشدها ونأثي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا وتلبسها ما عندنا من اللباس ونتمتع بها فهذا اولى من اللباس الجارية السوداء الحلي والجلل وصرف التقدير والوقت في تزيينها . والناس فيما يشتقون مذاهب .

فالتكلف في زماننا لتقليد الانشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمقات السبع او سبع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والحداني ليس فيه كبير فائدة ما دام الاصل في الكلام المعاني والمقصود من المعاني اظهار اسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه . ولا ندرى باي عبارة نترجم عنها ولا كيف نوضح شعورنا واحساسنا بهذا الوسط الذي نحياه وهو سجن لنا . والدنيا سجن المؤمن . فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لادباء العصر سبكها في السهل الممتنع عن الكلام الفصيح يغير تهافت منهم على الكلمات الغوية والمحسنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً . رامثال ذلك مما يمدد العقلاء من الملاعب اليونانية اذ ليس هذا غاية الادب والغرض منه . وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلف ولا تحرف في القواميس والمشات . الخطبة ناظر المعارف الفرنسية الذي تلاها بمناسبة يوبيل الكماوي برتلوهي نموذج في بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وايجاب المصاحبة . وهي من احسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع . غير ان ذوقنا ربما يمجها لركاكة الترجمة . فان الالفاظ وان كانت عربية فتركيب هذه الالفاظ بعضها مع بعض لم يجز على اسلوب قس بن ساعدة او سحبان وائل ولا على طريقة الجاحظ امام الادب ولا يشبه رسائل عبد الحميد او ابن العميد الذين قال فيهما الثعالبى : « فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد » بل جرى تركيب اللفظ تلك الخطبة على الاسلوب الفرنسي المترجمة عنه . فاكثر الالفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الاولون . والركاكة بالنظر الى التراكيب . وربما كانت بالنظر الى بعض المفردات ايضاً لان مفردات الناظم لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة اللسان كالذي افه الزمخشري وسماه اساس البلاغة وطبع بمصر

ثم هناك اسباب اخرى أبطأ تحول بيننا وبين ادراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم ومزاج لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الاسلوب من الخطابة . ولذا ينبغي سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب وعما لم يحزر على وفق مذهبهم في فنون الادب . حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف . بل لكل امام في الادب من أي امة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم . ولذا فاهل الذوق في الكلام اذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان واسلوب فلان وهو من انشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمر بوردو على اهل الذوق المشهورين باسم « ديكوستاتور » لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاج حتى اذا سخنت بمرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بونه) هزها ونظر فيها فاذا الخمر في الزجاجه ياقرتة سيالة ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك هي من كرم « شاتولافيت » او شاتولاتور » او « شاتومارغو » وفي هذه الثلاثة انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بارض « ميدوق » وأتفق اهل الذوق والطب على انها من أطيب البقاع وابركها لانبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس واثم اكبر من نفعه . لانه من جهة ترياق نافع ومن جهة اخرى سم ضار

٢٠

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من السن الامم السمدنة والهمجية فان لاهالي افريقيا اشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم وبرقصون على انغامها . وكان في الامم السالفة شعراء مجيدون مثل قياسه صاحب ديوان ماهابهاراته ومثل فاليمكي صاحب ديوان رامايانه وهما من شعراء الهند وكمنها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة وترجمها العلماء في زماننا الى اكثر اللغات الاوربية فوجدوا اشعارها حماسية دينية . وفي الديوان الاول نحو مئتي الف بيت أو قطعة . وهما عند الهند بمثابة ما عند

اليونان من الايلياذه والاوزيسة نظم هوميروس الشاعر الشهير. ولعل البستاني يتحفظاً بنشر ما جناه من ادبه ^(١) فان هوميروس شيخ الشعراء باجمعهم. ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما حولها من ارض الروم قبل ان يفتحها الفاتح وشعراء الرومان اللاتينيين وشعراء الفرس وامامهم الحسن بن اسحاق الفردوسي ناظم الشهنامه في القرن الرابع للهجرة. وهو عند المعجم كوميروس عند اليونان وفرجيل عند الزمان ودانتي عند الطليان ومياتون عند الانكليز. وتشتمل الشهنامه على تاريخ اكاسرة الفرس وأخبارهم وقد دأبت مراراً في الفارسية وترجمت الانكليزية والفرنساوية. وترجمها ثراً للعربية الفتح بن علي البنداري الاصبهاني وقدمها لخزانة احد الملوك الايوية

• ذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين • ان الفارسي سئل فقيلاً له ما البلاغة فقال معرفة الفضل من الوصل ^(٢) وسئل اليوناني عنها فقال تصحيح الاقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال حسن الاقتضاب عند البداة والغزارة يوم الاطالة. وسئل الهندي عنها فقال وصوح الدلالة وانها از الفرصة وحسن الاشارة وقال مرة التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول •

وفي الامم الاوروبية والاميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وابلغ كلاماً ممن تقدمهم من شعراء الامم السالفة. وموازن الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في اعداد المتحركات والسواكن. والشعر الفرنسي تبني اعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الاسكندري (الكساندرين) ثلثي اثني عشر هجاء في الاصل. والروي أي القافية — وهو الحرف الاخير من كل بيت — موجود في لسان العرب وفي السن غيرهم. ولكن الفرنسيين قبل اختلاطهم بعرب الاندلس لم يكن لاشعارهم روي ولا قواف فاخذوا عن جيرانهم الاندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله. فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوغو في علم الادب وشرح أساليبه في (١) ان الايلياذه نظم سايمان افندي البستاني صدرت مطبوعة في مطبعة

اطلال سنة ١٩٠٤ •

(٢) الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه

النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من اخبار العرب لئبين انسا
التأثير الذي أثره ادبهم على أشعار الافرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور
هوكو بوجه الخصوص. لان هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الاندلسي
واغتذى بلبان من ارتضع قديماً لثدي الادب العربي. وبيان ذلك ان مدينة
بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو دخلت في حوزة الاسلام حينما قطع أهله
جبال البيرينه واغاروا على مملكة ايطاليا وليون وفجروا ما في شمالها من المدن مثل
ماقون وديجون. ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارل كان صاحب الوقائع الشهيرة
مع فرانسوا الاول ملك فرنساويين ومع معاهدة وحاميه السلطان سليمان القانوني
وذلك في القرن السادس عشر للميلاد. فنقل الامبراطور شارل كان عائلات كثيرة
من الاسبان وانزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا باهلها ولم يزل لاهل
بيزانسون شبه بالاسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات
والتعبيرات مع ان مدينتهم لا تبعد عن باريس اكثر من اربعة كيلومتر. وقد
أشار فيكتور هوكو الى ذلك في القصيدة الاولى من ديوان اوراق الخريف ووصف
بيزانسون بالمدينة القديمة الاسبانية فذهبت مثلاً. وصار الكتاب لا يفترون عن
وصفها بهذا الوصف. وعلاقة الاسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج
الى ايضاح

٣

أما العرب فلو نظرنا الى تاريخ ادبهم لوجدنا في مقدمته اشعار الحماسة كما نجد
ذلك عند بقية الامم كفرنساويين مثلاً فان النظم في لسان ادبهم دون قبل النثر.
لان النظم يحصل النائق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم اطراف الكلام وحواشيه
ويكون في بادى الامر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على
الاسنة. ثم تزيد العناية به فيدون بالنقش أو الكتابة ويلقى على الجدران. وهذا
معنى قولهم النظم في تاريخ الادب سابق للنثر. والآ قول ما يبدأ من الكلام
بالنثر لقرب تناوله وسهولة استماله. ذكر الباقلائي في اعجاز القرآن المطبوع في مصر

أن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه الى الشعر وكان عثورهم عليه في الاصل بالاتفاق غير مقصود اليه . فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الاسماع تألفه والنفوس تقبله تبنوه وتعلموا وتكلفوا له . فنبت فيهم الشعراء واقبل الناس رجلاً ونساء على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بانشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من أيمانها عند الحاجة . فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم وأخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطائهم وانزلوا الشاعر البليغ منزلة الامام العالم الذي يهتدي بنبراس قريحته ويفزع لرأيه في مشاكل الاقضية ومعضلات الامور . فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله امضى من السيف واحد من السنن وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء . وربما رفع الشاعر البيت الواحد عز القبيلة أو هدمه . كما وقع لشاعر قبيلة انف الناقة بعد ان كان اسمها بحيلة للعارفين القبائل . وكان المجمع من الكلام يجري على السنة الكهان والحكام والعرفان واهل الزجر^(١) والنال وأنواع الحكم والطب مثل شوق وسطوح رحمة بن صفوان كاهن حمير وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة « قل هو الله أحد » كان ابي يقرأ مثل هذا . وامية بن ابني السلت الثقفي وكان افتتاح كلامه : « باسمك اللهم » وقس بن ساعدة ورواح بن عجلة عراف الجاهلية والاباق الاسدي عراف نجد وغيرهم

غير ان تاريخ ادب العرب قبل الاسلام لم يزل في حيز الخفاء اعدم تمكن العلماء من درس اللغات أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كافة حمير مثلاً فإنه لم يشتهر عندنا من قواعد أكثر من حديث « امن امبرامصيام في امسفر » حيث استعمل فيه (ام) عوضاً عن (ال) التعريف . ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الادب الا بعد استخراج ما في ارض اليمن من الألواح التي تدعى بالمسند الحيري وما في خرائب مدائن صالح وارض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لأصحابها نصيب من الحضارة وكانت

(١) وهم صنف من المتكلمين بالغيب يزجرون انفسهم في مسودع او مرثي كسئوح طائر او حيوان ويفكرون فيه بعد معية

لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقى الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . واهمل التثبت بآتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم بهذا البحث . فمن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني وتحن في الاسبانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وحدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلم العربية بلهجة يمانية بدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لؤي المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو ياتي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المستندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حميره وسبأ . ومن المشتغين باللسان الحميري هالبي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي ولمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء ان يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته : ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القبل في

اللسان الحميري انه من القول وكثير من اشياء هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة . اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتضاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب امهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بالاسان مضر من اجل البشيرة اي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . ولعلنا لم نعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه نعتاض عن الحركات الانعراية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولها تكون في اواخره على غير المتهاج الاول في لغة مضر ، آه

فاخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العالمي واستقراء احكامه كما فعل موسبو هوداس الفرنسي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة اللسان الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك ما رُب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العامية — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له مجاذير كثيرة وموجب للثغرة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد المعجم والمهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على لسان واحد . فكيف يجوز حينئذ تفريق لسان امة كبيرة على السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبلاد الموصل والنجار والهنود وان ثم لمواكش وغيرها من المتكلمين بالسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه اللسان التي يراد وضعها كما تدون اللسان الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات افريقية

وانا نجد اللغة الفرنسية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن البانوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البيرينه وافييرنه وفي الايلات الغربية والجنوبية من اراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيها .

لادبهم تأثير على ادب مضر . وقد تفرغ نخبة من مستشرقى الافرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية . واهل التشبث باتمام السكة الحديدية الحجازية يسهل لهم هذا البحث . فمن عرفت من اولئك المستشرقين ادوارد غلازر من الالمانيين وكان اطلعني ونحن في الاستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء به من ارض اليمن . والمسند لوح من الحجر عليه كتابة باحرف مقطعة قائمة الزوايا وبعضها مدور كالدائرة . وجدثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وعمو يتكلم العربية بلهجة يمانية يدوية . وفي سنة ١٨٩٥ نشر في مونيخ كتاباً بالالمانية عن مأرب وحير والحبشة ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ . ولما اتيت هذه المدينة حضرت الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو ياتي دروسه في اللغة الحميرية ويفسر المستندات ويترجمها للفرنساوية وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير . ومن المشتغين باللسان الحميري هالبي الفرنساوي مدرس اللغة الحبشية في الصوربون . وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع اهل سبأ على اهل حمير النازلين في شرقي حضرموت

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في انكلترا وايطاليا ايضاً لاهتمام الاولى بجمع ما يتعلق بالعالم الاسلامي والعربي وللمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير . الا ان هذا العلم لم يزل في النشأة الاولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسر للعلماء ان يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري . فان ابن خلدون يقول في مقدمته « ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد — وهي التي بدون اعراب فقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول وعوض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد — وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته . تشهد بذلك الانتقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على انها لغة واحدة ويلتمس اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القبل في

اللسان الحيري انه من القول وكثير من اشياء هذا وليس ذلك بصحيح . ولغة حمير لغة . اخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من اوضاعها وتضاريفها وحركات اعرابها كما هي لغة العرب لهدنا مع لغة مضر . الا ان العناية بالاسانف مضر من اجل البشيرة اي اعران والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء . واعلمنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا احكامه لتناض عن الحركات الانعراية في دلالتها بامور اخرى موجودة فيه فتكون لها قوانين تخصها ولعلها تكون في اواخره على غير المتهاج الاول في لغة مضر . آه

فاخذ ذلك المستشرقون من الافرنج واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء احكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنسي في لغة الجزائر العربية ونشر فيها كتاباً ولم يزل يدرسها في مدرسة اللسان الشرقية في باريس كما تدرس ايضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها . ولهم في ذلك ما رُب سياسية لا نخوض فيها . الا ان تدوين اللغات العامية — بالنظر الى انتشار العلم وتوسع الحضارة — له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين امم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي الى بلاد المجمع والهند . والعلماء في عصرنا يجتهدون في ازالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الامم ويسعون في ايجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع افراد الانسان على اسان واحد . فكيف يجوز حينئذ تفرق لسان امة كبيرة على السنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبلاد الموصل والنجار والهندوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه اللسان التي يراد وضعها كما تدون اللسان الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات افريقية

وأنا نجد اللغة الفرنسية على ما فيها من التباين بين ما يتكلمه سكان المدن وما يتكلمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي السن البانوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البيرينه وافيرنيه وفي الايلات الغربية والجنوبية من اراضي فرنسا لم يجوزوا فيها تدوين لغة الايالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً ولا سمحوا بانشاء جريدة فيها .

واشهى بهم التعصب الى محو ما كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط مع ان المتكلمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الامم الاوروبية . فكيف يصوغ اذاً تدوين لغة الجزائر ؟ واهلها لا يتعذر عليهم فهم (قفانك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الاصلية من وقوف ربكاه وذكر وحب ونزل . واذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالتصور ناشئ من الجهل بالجغرافية لا باصل اللغة التي لم يزل لهم باصوبها وموادها ملكة راسخة . فان سقط اللوى ، والدخول ، وحومل ، وتوضح ، والمقراة المذكورة في قول امرئ القيس :

قفانك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعرف رسمها لما نسجتها من جنوب وشمال

هي اماكن معروفة عند اهل الحجاز كما ان مقرة ومقطع الحديد من الاماكن المعروفة عند اهل الجزائر اشهرتها باستخراج معدن الحديد . فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دوت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والاجبار على تعليمها في المدارس للاطفال — لو سعى اهل العلم واد باب القلم في التقرب من لغة مضر القديمة وازالوا منها (العامية) كما ازيلت (الباتوا) من اللغة الفرنسية وهذبوها من الجناسات والتشابه الغامضة واختاروا فيها السهل من الالفاظ والتراكيب واصلحوا املاءها وكتابة اسماء الاعلام فيها لكان فعملهم على ما نظن اسهل وانجح من تدوين لسان عامي بل لسان همجية واقامة الحواجز بين المتكلمين بها . مع ان ازدياد وسائط النقل والمخبرة يستدعي كثرة اختلاطهم بعضهم ببعض . وعما قريب سينم مد الخطوط الحديدية ويصبح السفر من مراكش الى بغداد واهند أو الى الحجاز اسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والاسكندرية . فلا يحتاج المسافر الى استصحاب كتاب « جامع اللغات » ليعلم منه السن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز . اما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالتزقي ونجد لمطبوعات مضر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد ان تمتد يوماً على عموم سكان القارة الافريقية

أما لغة مضر فبدون ان تنف على حقيقة الادوار التي دارت عليها ولا على

الاطوار التي قلبت فيها نبعدها في العصر السابق للاسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على انواع التشبيه والاسمارة والبديع واكثرها حماسية وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللفظ والرق واللاطف بما يدانا على ان اللغة لم تكن اذ ذاك في عهد الطنولية فان الفرق بين اشعار المعلقات وبين اشعار « التروبادور » الفرنسية عظيم . لما في الاخيرة من الخشونة وعدم الرقة . واذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحلي حسبته أديباً من ادباء باريس . . .

ونجد ثلث رب قبل الاسلام اراعاً كثيرة من ذون الادب والشعر منها القصيد والرجز والاعاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف . ومنها ما يحدى به للعيس أو يغنى به للرقص وتسكيت الاطفال ومنها السجع والترسل والخطب والرسائل وضروب الامثال والحكم . والحاصل كانت فنون ادبهم اتقن من معيشتهم البدوية . وكان لهم مؤتمروا وكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة . وكانوا يقيمون لذلك المواسم والاعياد فيجتمعون اولاً في سوق عكاظ وهم واديين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه الى سوق مجنة ثم الى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة . ثم يذهبون في ذي الحجة الى البيت اخرام موضع حجهم . فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم ويقفون بهذه الاسواق لانشاد الشعر وانساء الخطب فاذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لاكبر الشعراء في عصره كالناطقة الذياني الذي سمي لأشعر العرب فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسان مثلاً وعرضوا عليه انفس اشعارهم . وقام الحارث ابن حلزة يتبختر بين الجموع يتبختر الجاهلية ويقول :

أذانا بينها اسماء رب ثاور يمل منه الثواء
بعد عهد لها بركة سمرا . فأدنى ديارها الخلصاء

حتى يأتي على آخر همزته فيحكم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم ويميزون فيه بين الفث والسين ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات ثم وقف قس بن ساعدة على بغير له احمر وقال « ايها الناس اجتمعوا واذا اجتمعتم فاسمعوا واذا سمعتم فموا واذا وعيتم فقولوا . واذا قلتم فاصدقوا . من عاش مات ومن مات

فات وكل ما هو آت آت ، فيكهن الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله : أما بعد ... الخ ، كانه خطيبه فرنساوي بل انكليزي بخطب في هايدبارك .

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور وراوي يروي له الاثمار . فكانت الرواة في ايامهم كلواثراند في يومنا ولذا كانت الاشار تنشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب . وافتها في العصر السابق للهجرة الى المناخاة في كتابة قصائدهم بالذهب وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل اصحاب المعونات السبع وهم :

(١) امرؤ القيس واسمه جندح بن حجر الكندي وكان ابوه يملك في جهة الحيرة على بني اسد ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال « اشهر من قفانك » واه غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم الى اللغات الاوربية . ويقال ان احسن ما في شعره وصفه الفرس (١) ولذا ضرب المثل بامرؤ القيس اذا ركب والثابفة اذا رهب وزهير اذا رغب . وقيل ان امرؤ القيس توفي سنة ٥٤٠ م وكان مغرمًا باللهو والزهوة والخمر والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة . ومدح في شعره تغلب على بكر

(٢) طرفة بن العبد وديوانه ترجم الفرنسية في الصور بون وطبعه الموسيو سايفسون (Seligsohn) ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش (٣) عمرو بن كلثوم (٤) وبلارث بن حلزة الشكري من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي معلقته الهزلية وفي معلقته عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب (٥) زهير بن ابي سلمى (٦) عنزة بن شداد وفي معلقتهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان . وقصة عنزة

(١) بقوله :

وقد اغتدي والطير في وكناتها
مكره مغرر مقبل مدبر معاً
له ايطاليا طي وساقا لعامة
وتجوز قبد الاوابد هيكلا
كجلمود صخر حطه السيل من عل
وارحاء سرحان وتقريب تنقل

الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للامانية المستشرق النمساوي هر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الادب العثماني وتاريخ الادب العربي. ترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسيل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية بون بيليه وهي من اقدم مدارس الافرنج. وكان اطباء العرب واليهود المستعمرون يدرسون فيها الطب

(٧) لبيد بن ربيعة العامري القائل «الا كل شيء ما خلا الله باطل» وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في اشعاره اخلاق عرب البادية واطوارهم وعاداتهم وله غير المعلقة ديوان اشعار طبع منه الجزء الاول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة ١٨٨٠ وجعل له مقدمة وشرحاً. وظهر من فطاحل الشعراء غير من ذكر النابغة الذبياني وطبع ديوانه الاستاذ هارنويغ ديربنورغ (H. Derenbourg) سنة ١٨٦٩ وفسره وحشاه. ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع اشعاره غضبان افندي وطبعها في لوندرد وسماها ديوان حاتم طي. ومنهم دريد بن الصمة والشنفرى الازدي والاعشى الاكبر وتأبط شراً وكثير غيرهم. يحكى عن حماد الراوية انه انشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل تأنية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً وفيها ما يربو على المئة بيت. فها بالغا الخاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية. ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الامثال التي نقلت عنهم ودونت في المجاميع

وسمي كلام هذه الطبقة من الادباء «كلام الجاهلية» لجهلهم بما جاء به الاسلام والافهم ائمة في الادب يقتدى بهم. ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالباً فرغوا فيه شبهه من الالفاظ والتراكيب. ولم يزل الادباء على ذلك الى يومنا هذا كما فعل اصحاب «عكاظ الادب» المطبوع في الاسنانة عقب الحرب اليونانية الاخيرة. واذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها اكل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحارهم الرملية فبرزوا بين انواع الرمل وسموا كل نوع باسم مخصوص مثل (الخفف) وهو

الزمل المنفرج و (العققل) الزمل المعقد الداخل بعضه في بعض و (البطن) من الارض و (الجب) من الارض بكل ذلك من اشكال الارض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته:

فممت بها امشي نحر وراعا على اثرنا اذ يال مرط مرجل
فلما اجزنا ساحة الحي واتنحي بباطن خبت ذي حقاف عققل

والمرط نوع من اثوابهم يقال لوشبه الترجيل حشب (مودة) داك الزمان. وقد وصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة ونطقوا بما شعروا به في فلوبهم ووجدوه في انفسهم من التأثير الحسي وان ذكروا بعيراً او فرساً لم يتركوا شكلاً الا شرحوه شرحاً مفصلاً. فحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الابانة عن المعاني الكامنة في النفوس التي كانت غاية الاديب منهم اثبات اقتداره على ايراد صور مختلفة للشيء للواحد واظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة. وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قس في بعض الروايات: «ليل داج وسما» ذات ابراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرسة وأرض مدحاة وانهار مجرة الخ» ولهم اساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والاشجار ومنابت العشب الى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومروفي

ولفزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام انما كانت توابغ الكلم تتفق لهم اتفاقاً وتطرد في كلامهم اطراداً بخلاف من اتى بدم فاتهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفاً وتبحروا عليها. ومع ذلك فالبايع من الكلام لم يصدر من افواه الجاهلية الا بعد التروي والتصنع والتنقيح والتهذيب وقد تعبوا وكذبوا انفسهم وجاهدوا خواطرهم. وكان زهير يسمى كبير شعره الحوليات المنقحة

وقال عدي بن الرقاع

وقصيدة قد بت اجمع بينها حتى اتوم ميلها وسنادها
نظر المتقف في كموب قناته حتى يقيم ثقافه ما دها
وقال سويد كراع :

أبيت بابواب القوافي كأنما / أصادي بها سر بامن الوحش نزعا
وسموا زهير والخطيئة واشباههما عبيد الشعر لانهم تقحوه ولم يذهبوا فيه
مذهب المطوعين . قال الباقلاني « وكانت العرب تعلم اولادها قول الشعر بوضع
غير معقول يوضع على بعض اوزاز الشعر كانه على وزن (قفانيك من ذكرى
حييب ومنزل) ويسمون ذلك الوضع الميتر واشتقاقه من المتر وهو الجذب او
القطع يقال مترت الحبل بمعنى قطمته او جذبته . والفرنساويون يسمون العروض
ميتر وميترك ويقولون انه مشتق من معنى القياس باليونانية وله دروس مخصوصة
وأسانذة في الصور يون . والف في العروض العربي المستشرق استانسلاي كوبرار
معلم المرية في كلية فرانسا عدة رسائل واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها
الجائزة وثناء العموم . وعبر العرب عن قول الشعر ونظمه بالقرض وعن الشعر
بالقريض . ومعنى القرض القطع لان الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن
متحدة في الحرف الاخير من كل قطعة . وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة
للكلام على المنظوم من شعر وسجع لان تأثيره في النفوس اشد لما يحدثه من النغمة
التي تطرب لها الاذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام . وذلك
ان الطرق التي يتقيد بها الكلام البديع المنظوم اي المسبوك تنقسم الى اعاريض
الشعر على اختلاف انواعه . ثم الى انواع الكلام الموزون غير المقفى . ثم الى
اصناف الكلام المعدل المسجع . ثم الى معدل موزون غير مسجع . ثم الى ما
يرسل ارسالاً وتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعاني على وجه بديع وترتيب
لطيف . وهذا القسم الاخير شبيه بالكلام الذي لا يعمل ولا يتصنع له . بخلاف
القصيد من الشعر فانه يلتزم فيه قافية واحدة الى آخر الكلام ويشترط ان يكون
كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاماً في بابه في
مدح أو غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسه . والجزء ضرب من الشعر ولولم يلتزم فيه

أن يكون على قافية واحدة . والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة ويزدوم كل سجع خرج عن اعتدال الاجزاء . والمقفى قد انتصر له في زماننا عند الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندرة والف فيه رواية بالسان التركي على الطرز الجديد . وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام ارسالا بدون تعييد بقافية أو سجع أو وزن أو شيء ما بل يطلق اطلاقاً . ويتأني في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأني في السجع ولا في الشعر . لان السجع من الكلام يتبع المعنى فيه للملفظ الذي يؤدي السجع أو القافية . وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصدده عن تصرفه على قواعده . ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال ويجهز به بذلك القدر من التزيين بالاسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه ببقية الصنائع البديعة ويفعل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني . فلما سلك الشعراء في الجاهلية على حفظ اللفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال : « والشعراء يتبعهم الغاؤون » ألم تر انهم في كل واد يهيمنون وانهم يقولون ما لا يفعلون » قال الباقلاني : « فاخبر انهم يتبعون القول حيث توجه بهم واللفظ كيف اطاعهم والمعاني كيف تتبع الفاظهم وذلك خلاف ما وضع عليه الابانة عن المقاصد بالخطاب . ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب الى النبي عليه السلام وكلموه في هذا الشأن ولهمقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحججة الدافعة والبرهان القاطع قالوا :

— كيف ندي من لا اكل ولا شرب ولا صاح فاستهل اليس دمه قد بطل

قال : — اسجاعة كسجاعة الجاهلية ؛ اسجعاً كسجع الكهان ؟

نعم ان الشعر اذا تهذب ووفي له بجميع الاسباب لم يقاربه من كلام الإدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب . ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد الا في بعض الايات لا سيما في الشعر العربي حيث ضيق فيه النطاق على الشعراء والزموا باتباع القواعد التي نخطاها شعراء الافرنج . على ان اكثر فحول الادب في البلاد المتقدمة صارفون عنيتهم في يومنا الى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوغو في آخر

عمره وكما يفعل اليوم اميل زولا وغيره مثل تولستوي اديب الروس

ثم ظهر الاسلام وجاء القرآن بأفصح لفظ وأبلغ معني على اسلوب جديد يخالف اديب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجع بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطيع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها . ثم يعاد الكلام في الآية الاخرى من غير التزام حرف يكون سجعاً أو قافية . وسيتت آخر الآيات فواصل لانها ليست اسجاءً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قواف . ووقع اللفظ في القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من انواع بلاغتهم . لان الواحد منهم ان برع في فن من فنون النظم أو النثر قصر فيما دونه والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الافادة واشتمل على قصص واخبار وشرائع واحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وامثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول ادارية وسياسية وغير ذلك مما لم يحيط بنصفه بل ولا بربعه اديب من الادباء ولا شاعر من الشعراء . وناضل عن الحرية وخفف اذى العبودية وندد بالظلمة وتوعدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . فقال في الوعيد « وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون » وبين استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية ايقاعهم التفرقة بين رعاياهم ثم ايصال الجور والاذى اليهم فرقة بعد اخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر وغاردة بابل وقياصرة الرومان والروم والكلاسة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد :

« ان فرعون علا في الارض وجعل اهله شعباً يستضعف طائفة منهم يذبح
ابنائهم ويستحي نساءهم انه كان من المفسدين . ونريد ان نمن على الذين استضعفوا
في الارض ونجعلهم ائمة ونجعلهم الوارثين ونمكن لهم في الارض ونري فرعون
وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »^١
قال الباقلاني^(١) « ذكر العلوف في الارض باستضعاف الخلق بذبح الولدان

ومسي النساء واذا تحكم في هذين الامرين فما ظنك بما دونهما لان النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والظلم لا يقر على هذا الجور . ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفت في التظلم وردت آخر الكلام على أوله وعطفت عجزه على صدره . ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقايين بامرهم وارثين لارضهم ، وما اورد في القرآن الكريم في السياسة والمنايات الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها اذ ذاك اورشليم وبين مملكة سباء وعاصمتها مأرب وما كتب به سليمان بن داود عليها السلام الى بلقيس وما اشتعلت به من التدبير والمبشورة واستطلاع عواقب الامور وارسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائط الديبلوماسية الى غير ذلك ما نصه : (١)

قاله — اذهب بكتابي هذا فאלقه اليهم ثم تول عنهم فانظر ماذا يرجعون .
قالت — يا ايها الملك اني اتي الي كتاب كريم انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم الا تعملوا عليّ واتوني مسلمين

قالت — يا ايها الملك افتوني في امري ما كنت قاطعة امرآ حتى تشهدون
قالوا — نحن اولها قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين
قالت — ان الملك اذا دخلوا قرية افسدوها وجعلوا اعزة اهلها اذلة وكذلك يفعلون . واني مرسله اليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون . فلما جاء سليمان

قال — اتمدونني بلعل فما آتاني الله خير مما آتاكم بل انتم بهديتكم تفرحون .
ارجع اليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها اذلة وهم صاغرون — الى آخر العصة — وترى فيها مجيء اهل سباء مسلمين الى اورشليم والاحتفال باستقبالهم . واراثهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما اتى به الذي عنده علم من الكتاب من عرش الملكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو . واصطناعهم لها صرحاً يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشئ في معرض باريس الاخير . وقبل لها ادخلي الصرح فلما رآته حسبه لجة وكشفت عن ساقها قل أنه صرح ممرد من قوارير قال

(١) سورة النمل . والذي قال هو سليمان عليه السلام وقالت هي بلقيس وقالوا هم رجال دولتها واعيان بلادها

الباقلافي - وهو القاضي أبو محمد بن الطيب الاشعري المعروف بابن الباقلافي وكان ملك الاسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه ارسله سنة ٣٧١ هـ سفيراً الى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين، التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه - قال : « متى نهباً لا آدمي ان يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بدد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية « الا تعلوا عليّ وأتوني مسلمين، » . والخلوص من ذلك الى ما صارت اليه بلبس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها امر المستشار ومن تعظيمهم امرها وطاعتها بتلك الالفاظ البديعة والكلمات المعجبية البليغة . ثم كلامها بدد ذلك لتعلم تمكن قولها « يا ايها الملأ افنوني في امري ما كنت قاطعة اراً حتى تشهدون : » وذكر قولهم « قالوا نحن أولوا قوة وأولوا بأس شديد والامر اليك فانظري ماذا تأمرين » لا تجدي في صفتهم انفسهم ابداع مما وصفهم به وقوله « الامر اليك » تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن القائل وملاءمته لما قبله وذلك قوله « فانظري ماذا تأمرين » ثم الى هذا الاختصار والى البيان مع الايجاز فان الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والايجاز وهذا مما يزيد الاختصار بسطاً لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الايجاز منه تصرفاً يتجاوز محله وموضعه . وكم جئت الى كلام مبسوط يضيق عن الافهام ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الافهام فما يجب فيه من شروط الاحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الاعظام . ثم له ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة . أو مدخلاً في باب السياسة . أو مصفوفاً في طريق السيادة . أو مشترك العبارات ان كان مستجود المعنى . أو جيد البلاغة مستجلب المعنى . أو مستجلب البلاغة جيد المعنى أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة . أو مستبهم الجانب مستكره الوضع . وأنت لا تجدي في جميع ما تلونا عليك الا ما اذا بسط افاد واذا اختصر كل في بابه وجاد واذا سرح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في اطرافه عيون مباحثه لم يقع الا على محاسن تتوالى وبدائع تترى . ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله « أن الملوك اذا دخلوا قرية

أفسدوها وجعلوا اعزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون » هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكألقوت يتلألأ بين شذوره . ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها . وان شرحت لك ما في كل آية طال عليك الامر ولكني بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي اليه ربيت والسمت الذي اليه دعوت . ثم فكر بعد ذلك في شيء ادلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الاعجاز في مواقع الايات القصيرة والطويلة والمتوسطة فاجل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبر الخواتم والفواتح والابوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحول ثم اقض ما انت قض . وان طال عليك تأمل الجميع فاقصر على سورة واحدة أو على بعض سور . ما رأيت في قوله « أن فرعون علا في الارض . وجعل اهلها شعباً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين » هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى . وسلاستها زمامها على ما تشاهد . وروتها على ما تعين . وفصاحتها على ما تعرف . وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الارض الخ » اه

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في « الانتقاد الادبي » (١) الذي له المقام الاسمي بين علماء الادب . وللافرنج فيه عناية زائدة وجرائد ثم تنشر فيه المقالات الصافية . ولجزينة الطان محرر ماهر في « الانتقاد الادبي » وهو « غاستون ديشان » واذا امعنا النظر في القرآن الكريم نجد مملوءاً بالحاسن والبلاغة ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه . والا تأمل قوله « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » نجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابريل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الادب والعلم والسياسة والحرية الفرنسية . وما ادراك ما الحرية الفرنسية — هي الحرية التي اقتدت امماً كثيرة من الظلم الاستبداد . وجل ما اتى به في الخطبة التي خطبها اخيراً في

الجزائر عن سياسة الاستعمار في افريقية وعما يجب على الدولة المتمدنة في جانب اهلها المسلمين قوله « يجب لهم علينا الان » يجب لهم علينا العدل ، يجب لهم علينا كذلك التساهل ، أي بالدين . وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام . فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث وحكم ضميرك الحر ان كنت من الاحرار واحكم بعد ذلك بما شئت . لولا أنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية . ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الامم الاسيوية والافريقية آبت الخروج من تحت نير العبودية . أو كما عبر أحد الافاضل بقوله « لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا ان يصعدوا الى القرآن بمقولهم انزوله من مكانه الرفيع ووضعه مع جهلهم في مستو واحد »

٥

وبظهور الاسلام ظهرت طبقة جديدة من الادباء قيل لهم اهل الطبقة الاسلامية وهم الذين كانوا في صدر الاسلام وايام الدولة الاموية التي امتدت الى سنة ١٣٢ هـ وفي اوائل الدولة العباسية وسمي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الاموية والعباسية ونخلص حسان بن ثابت شاعر النبي صلى الله عليه وسلم الطريقة المثلى في الشعر بقوله :

وانما الشعر عقل المرء يمرضه على البرية ان كيساً وان حمقا
وان احسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا أنشدته صدقا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمرو بن ابي ربيعة كبير قریش وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به . ومنهم الخطيب العسبي المشهور في الهجاء وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضه) ثم عفا عنه . وكان جرير والفرزدق والاختل من اعظم شعراء الدولة الاموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنصر رأيه وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدل على تفضيل الشعر الى القتال . والمشهور بين الادباء ان جرير مرجح على الفرزدق

في اكثر انواع الشعر وعلى الاخطل في جميع انواعه . وكان الفرزدق والاخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته . واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع ايا صوفيا بالاسنانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية وحرر شيئاً عن عبودة بن الورد اينما . ومن عام الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت هاتل . ومن هذه الطبقة نصيب وبشار المتوفى سنة ١٦٧ هـ وهو القائل :
والاذن تعشق قبل العين احباً وكثير غيرهم ويجمع كلامهم كتاب الاغاني الذي ألفه ابو الفرج الاصفهاني المتوفى سنة ٣٤٦ هـ . وكان من نسل مروان الحمار آخر ملوك بني أمية وكتابه هذا مطبوع في بولاق . ومختصره اي رواياته مطبوع في بيروت . وهو اشتهر بالثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب وكان كاتباً لمروان الحمار فمات منكوباً حينما انقضت الدولة الاموية . وجمعت رسائله في كتاب فاهل هذه الطبقة وان نسجوا على منوال شعر الجاهلية فكلامهم اعلى طبقة في البلاغة واذواقهم من كلام الجاهلية في منظومهم ومنشورهم وخطبهم وترسيلهم ومحاوراتهم للوك . والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الامة وتأسس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الاقوام بعضها ببعض فالتسعت بذلك دائرة العقول ونهضت طباع اهل الطبقة الاسلامية . وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم . فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تنقيفاً بما استفادوه من اتفاق الذهن وتوسع دائرة الفكر وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث

٦

ثم حصل انقلاب كبير في الامة وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الاموية وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات اعجمية وهي :

- (١) الفارسية او البهلوية
- (٢) الهندية او السنسكريية
- (٣) السريانية
- (٤) العبرانية وسمي المترجم عنها بالاسرائيليات

(٥) اليونانية

وعكف اهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب وتعلم العربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الاعجمية وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفع (١٠٩-١٠٤٥) واسمه عبد الله بن داذه وأصله من مجوس، الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى ابن علي عم السفاح اول الخلفاء الباسيين. وأشتهر ابن المقفع بالنصاحة والإلاغة حتى قيل بأنه ألف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي. قال الباقلاني: فليس له كتاب يدعي مدح انه عارض فيه القرآن بل يزعمون انه اشتغل بذلك مدة ثم مزق ما جمع واستحي لنفسه من اظهاره .. الخ. ثم ذكر له الدرّة اليتيمة وقال انها كتابان احدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والاخر في شيء من الديانات وقد تهوس فيه بما لا ينبغي. اهـ

على ان الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب كلیلة ودمنة المطبوع في بيروت وهو قصة ادبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد ادباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي وحررها باللغة الهندية فترجمت عنها الى اللغة البهلوية على عهد انوشروان ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً. ثم ظهر على عهد هارون الرشيد ابان بن عبد الحميد من شعراء العرب وانتسب للبرامكة وغمر بانعامهم وانظم لهم كتاب كلیلة ودمنة فقال بعد المقدمة

هذا كتاب ادب ومحنة وهو الذي يدعى كلیله دمنه

فيه احتیالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهند

وكان لابان نظر جيد في العلم والحكمة وانظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لابي العتاهية: وكان ابو نواس يأنف من معاشرته لان كلامه كلام فلاسفة وحكماء. لا كلام شاعر اديب متخصص بعلم الادب. واسترحم ابان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بادخاله على الرشيد وعرض اشعاره عليه فاشار عليه يحيى بنظم قصيدته السياسية التي قال فيها:

نشدت بحق الله من كان مسلماً اعم بما قد قتلته العجم والعرب

اعم رسول الله اقرب زلفة لديه ام ابن العم في رتبة النسب

وايهما اولى به . وبعبده ومن ذاله حق التراث بما وجب
 فان كانت عباس اتحق بتلكم وكان علي بعد ذاك على سبب
 قابله عباس هم برثونه كما العلم لابن العلم في الارث قد حجب
 فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبشر . وأنعم على الشاعر بعشر بن الف درهم
 ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنف العامون كتاب قلة وعفوه يعارض
 به كتاب كيلة ودمنة في أبوابه وامثاله . ويزيد عليه في حسن نظامه . ثم جاء ابن
 الهبارية واسمه الشريف أبو يولي محمد بن محمد ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس
 رضي الله عنه . وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير الب ارسلان ثم
 انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد ونظم كيلة ودمنة وسماه نتائج الفطنة في
 نظم كيلة ودمنة وله كتاب آخر على هذا الاسلوب سماه الصادح والباغم ونظم فيه
 الف ييت . وأشعاره سلسلة سهلة ومنها :

يقول ابو سعيد اذ رأني عفيفاً منذ عام ما شربت
 على يد اي شيخ ثبت قل لي فقلت على يد الافلاس ثبت

تولي سنة ٥٠٤ هجرية

وترجم غير كتاب كيلة ودمنة من لغات الاعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف
 الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والادارية وشي
 من كتاب زرادشت وكتاب ماني - قال المسعودي في مروج الذهب « وانتشر
 بلدي الناس في ذلك الوقت كتاب اصله من بلاد العجم واسمه الف ليلة وليلة غير
 ان حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المداول بيننا »
 واشتهر في الكتابة والانشاء أيضاً الجاحظ (١٦٥ - ٢٥٥ هـ) وهو ابن عثمان
 الكنتاني الليثي البصري . له طريقة في الانشاء يقال لها طريقة الجاحظ كما ان له
 مذهباً في الفلسفة وقيل لاتباعه الجاحظية . وله مؤلفات كثيرة في الادب منها كتاب
 البيان والبيان وكتاب الامصار وكتاب الحيوان . وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب
 الاخير ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال باسبانيا وهي التي طبع
 فهرست كتبها المستشرق الاستاذ هارتويغ ديرنبورغ . ويوجد نسخة أصلية من

كتاب الحيوان في مكتبة هامبورغ . وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته ولم يقتصر عنه ابو الفضل محمد بن العميد (توفي ١٣٦٠ هـ) وكان مؤيداً لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه وله رسائل كثيرة وأشعار وكتاب (الخلق والخلق) لم ينقحه واثني عليه الباقراني فقال : انه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعتها ولا يقتصر على ان يأتي بالاسطر من نحو كلامه كما نرى الجاحظ يفعله في كتبه من ذكر من كلامه سطرًا اتبعه من كلام الناس اوراقًا واذا ذكر منه صفحة بن عليه من قول غيره كتابًا . وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب ابا الفضل ابن العميد ولذا قيل له صاحب ابن عباد

ومن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن اوس الطائي (١٩٠ - ٢٣١ هـ) وهو ميال للتصنع والتكلف والتعويض في المعاني . وأحسن ما ألفه كتاب الحماسة وهو مختار من كلام الشعراء المتقدمين . ومطبوع وله أيضاً كتاب فحول الشعراء وكتاب الاختيارات . ومنهم ابو نواس (توفي ١٩٥ هـ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة . ومنهم ابن الرومي وابن المعتز وأشعرهم البحتري (٢٠٤ - ٢٨٤ هـ) وفضله الباقراني على جميع اهل عصره لبهجة كلامه وبديع روقه وديباجة شعره وكثرة مائه . وقال المعري : أبو تمام والمتنبي من الحكماء واما الشاعر فهو البحتري . قالوا والبحتري يغير على ابي تمام اغارة ويأخذ منه صريحاً وأشارة ويستأنس بالاخذ منه بخلاف ما يستأنس بالاخذ من غيره وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجواثب وكان الخلفاء والرؤساء يشقون شعراء الطبقة الاسلامية ويميزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الا فرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالتواعد والنظامات . فان الاكاذيبات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز القدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف أو يتبرع بها اصحاب الخير ومحبو السلم من ذوي الثروة . فهذا الامر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم . وكان للخلفاء معرفة بفتون الادب وتبصر بجيد الكلام ورديته ويحفظون اشعارا كثيرة ويமானون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حين اذا رقوا منابر الخطابة او تكلموا في صدور المحافل تمكنوا من استمالة الناس اليهم والفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الا فرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم

الشهير امبراطور المانيا فانه من ابلغ الخطباء في الملوك . وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب بيلينغ الكلام لا بمجد الحسام . وظهر في ذوي الرياسة فحول من الادباء مثل ابن الخليفة العباسي المعز بالله بن المتوكل واشهر بابن المعتز (٢٤٧-٢٩٦هـ) وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو افضل شعراء بني هاشم . ومثل ابي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنسبين لبني تغلب من قبائل العرب وامتدت حكمه آل حمدان في حلب والموصل نحو ٦٠ سنة . ومن شعر ابي فراس الحمداني قوله :

نظقت بفضلتي وأمتدحت عشيرتي وما انا مداح وما انا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت وكان المتنبّي يفضلّه على نفسه

. ويمن اشهر في الادب ابو بكر الخوارزمي وبدع الزمان الحمداني وسلاهما من ادباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجواثب رسائلها . ونسج الحريري على منوال الحمداني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوروبون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرانس سلفيستر دوسامي . وينتقد عليها ادبا الافرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما ألفه الافرنج او اليونان قديماً وانما صرف الحريري عنايته الى سبك الالفاظ وتصنيعها وكانت ولادته في البصرة ثم نفي الى مشان بقرب البصرة (٤٤٦-٥١٥هـ) ومن المعلوم ان ليراد خلاصة تاريخ ادب اللسان العربي وذكر المشاهير من الادباء وتعيين طبقاتهم ليس بالأمر السهل . ولذا نكتفي بالإشارة الى بعض من دون أخبار الشعراء . فمنهم ابن قتيبة المروزي (٢١٣-٢٧٦هـ) صاحب ادب الكاتب ، وله « ديوان الكتاب » و « طبقات الشعراء » وغير ذلك . ومنهم المبرد الأزدي (٢١٠-٢٨٦هـ) وله كتاب الكامل والمقتضب والروضة . ومنهم ابن المنجم (٢٤١-٣٠٠هـ) وكان أبوه من كتاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس فالف هو في تاريخ الادب كتاب الباهر أو البارع في اخبار الشعراء . ثم جاء ابو منصور الثعالبي (٣٥٠-٤٢٩هـ) وهو عربي النسب نيسابوري المولد وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في

٤ مجلدات سماه « يتيمة الدهر في محاسن اهل العصر » وجمع فيه اخبار شعراء زمانه ونواديرهم واشعارهم . ثم جاء ابو الحسن على البخارزي بسيرة البخارز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولا سنة ٤٦٧ هـ فحرر ذيلاً لـ « يتيمة الثعالب » سماه دمية القصر وعصرة اهل العصر ومنه نسخة في الاستانة . وزاد عليه ابو الحسن ابن زين البيهقي — ويتهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً — ذيلاً سماه وشاح الدمية ثم جاء عماد الدين الكاتب الاصفهاني (٥١٩ — ٥٩٧ هـ) وزير السلطان صلاح الدين الايوبي والف كتاب خريدة القصر وجريدة العصر ومنه نسخة في الاستانة وأخرى في باريس وفيه تراجم الشعراء واشعارهم من سنة ٥٠٠ الى سنة ٥٧٢ هـ والف ايضاً كتاب السيل على الذيل وجعله ذيلاً لخريدة القصر . ثم جاء الوراق وهو ابو المعالي سعد بن علي الانصاري المتوفى سنة ٥٦٨ هـ وذيل ما تقدم بكتابه زينة الدهر وعصرة اهل العصر

فهذه المدونات من اهم الاجزاء في تاريخ الادب العربي ويمكن اتمامها باختبار ما يروق من مؤلفات ابي شامة (٥٩٦ — ٦٦٥ هـ) وابوه المقدسي . نسأ هو في مصر وكتابه « كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية » يدرس في الصوروبون وطبع في مصر . ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (٧٠٠ — ٧٥٩ هـ) وكتابه مسالك الابصار في الممالك والابصار لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم ايضاً ومجلداته نحو ثلاثين وقبل اربعين وهو مرقم في كتيخانة ايا صوفيا في الاستانة من عدد ٣٤١٥ الى ٣٤٣٩ ومنه نسخة في مكتبة باريس الاهلية والمهم جارية في طبعه . ولما كنت في الصيف الماضي بالاستانة شاهدت في كتيخانة الكوبرلي أحد المستشرقين من الانكليز يستنسخ بالة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم الاحرف العين فسألت فاذا هو « ارشاد الالبا » في معرفة الادباء ، تأليف ياقوت الحموي الرومي (٥٧٤ — ٦٢٦ هـ) صاحب معجم البلدان الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليزيك سنة ١٨٦٩ في اربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس . والحموي

من المؤلفات النافعة معجم الادباء^(١) ومعجم الشعراء وكتاب اخبار المتنبي وعنوان كتاب الاغاني ومجموع كلام ابي علي الفارسي ... فاذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم فما نالاه في بقية اجزاء هذا الكتاب . ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع نزعة الالباء في طبقات الادباء لمحمد بن شاكر الانباري ونسخته في الاثنتان وقد طبع على الحجر . وكتاب ربحانة الالباء المطبوع في بولاق . ونزعة الربحانة في طبقات الشعراء للمحيي زوفيات الاعيان لابن خلكان وفوات الوفيات للكتبي والوافي بالوفيات لإصلاح الدين بن ابيك الصفهدي واعيان العصر واعوان النصر له أيضاً . ثم تاريخ المحبي في أعيان اقرن الحادي عشر والمراتب في أعيان القرن الثاني عشر . وهكذا ينتهي الباحث الى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الاول من عكاظ الادب المطبوع في الاسنانه عقب الحرب مع اليونان . وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلاوي باشا اكل واحد من شعراء العصر لقباً من القاب المتقدمين وسمى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة . فامرو القيس الثاني لنقيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري . وابو العلاء الثاني للاستاذ عبد الجليل افندي براده المدني . وناطقة العراق لجليل افندي الزهاوي وناطقة مصر لاحمد بك شوقي وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن . وصاحب المعجز لاحمد محرم افندي . وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي افندي العمري . وشيخ الادبا لاحمد عزت باشا الفاروقي الموصل . ولبيد العصر للفياسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي . ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني . وأبو الشتاء للشيخ محمود قبادو التونسي

وأما اللغويون والنحاة فاحسن جامع لاخبارهم ما ألفه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١ هـ وسماه « بنية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع وهي عند الجسر في الاسنانه العلية . وطبع في مصر وسوريا واوروبا كثير من مؤلفات الامامي وابي زيد الانصاري البصري وابي عبيدة النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الافاضل

(١) هو ارشاد الالباء او ارشاد اللبيب الى معرفة الاديب وقد غني بطبعه

الاستاذ مرجليوث وصدر منه بضعة اجزاء

٧

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الاسلام الى من الامويين الى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة الى لسان العرب قرأ ادياء المسلمين كتاب المنطق لارسطو ورأوا فيه ذكر اومبروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الاعاجم ولا التفخوا الى اساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات الشخصية ولا قدروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره . لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وانواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلقات ولا سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن . فترجوا كتب المنطق والنجوم والضيعيات والطب والهندسة ولكنهم لم يترجوا لاديب من ادياء اليونان ولا ادياء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات اساطيرهم . واعلمهم خافوا على الناس من الرجوع الى عبادة الاوثان ان يحشوا لهم في آلهة اليونان . ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة الى لسان العرب ظهرت لها تأثير في توسيع افكار الشعراء الاسلاميين وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هاني في اشبيلية وهو المسمى بمتنبي الغرب . فحيث كان لاهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم ابلغ معنى واكثر فوائد لاشتماله على اراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية . غير انهم خرجوا عن اساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم اساليب مخصوصة . فقام عليهم المتعصبون لاساليب العرب الاقدمين وسلقوم بالسنة حداد وشددوا عليهم النكير كما فعل اصحاب طريقة تالاسيك مع فيكتور هوغو حينما شهر طريقة (رومانتيك)

فالتمسكون بالاساليب القديمة من ادياء العرب يقولون ان نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لانها لم يجرى على اساليب العرب المتخصصة اذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً . بل الشعر هو « الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة والافصاف ، المفصل باجزاء في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المتخصصة » فلا بد

ان تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمى شعراً . فما خلا عن الاستعارة والافصاف مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والارجوزات الاخلاقية وقول العامي : « أغلق الباب واثنني بالطعام » أو ما خلا عن تساوي الاوزان واتحاد الروي كقولهم « رب اخ كنت به مغتبطاً اشد كفي بغري صحبته تمسكا مني بالود ولا احسبه بغير العهد ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه املي . . . » لان الوزن لم تتساو اجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات . او لم يجر على اساليب العرب المعروفة فهو حينئذ لا يكون شعراً وانما هو كلام منظوم ^(١) . اما الاسلوب في عرفهم فهو القلب الذي يفرغ فيه الشعر او المنوال الذي ينسج عليه . وذلك انهم يقولون اذا اراد الطالب قرض الشعر ينبغي له ان يكثر من مطالعة أشعار العرب الاقدمين وان يحفظها ويرتاض فيها حتى يصير له ملكة في كلامهم حينئذ يحصل في ذهنه قلب كلي من التراكيب التي رآها في كل شعر من اشعارهم . وهذا القلب الكلي ينطبق على تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله : « يا دارمية بالعلماء فالهتند » ويكون استدعاء الصاحب للوقوف والسؤال كقوله : « قفنا نسأل الدار التي خفت اهلها » أو باستبكاء الصاحب على الظال كقوله : « قفانك من ذكرى حبيب ومنزل » أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله : « ألم تسأل فتخبرك الرسوم » . وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالامر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله : « جي الديار بجانب الغزل » او بالدعاء لها بالسقيا كقوله :

اسقى طلولهم اجس ههذيم وغدت عليهم نضرة ونعيم
او بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله :

يا برق طالع منزلاً بالابرق واحد السحاب لها حذاء الانيق
وكذا التفجع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله :
كذا فليجل الخطب وليقدح الامر . وليس لعين لم يفيض ماؤها عذراً
أو باستعظام الحادث كقوله « ارايت من جملوا على الاعواد »
أو بالتسجيع على الاكوان بالمصيبة لفقده كقوله :

منابت العشب لا حام ولا راع مضي الـدى بطويل الرمح والباع
أو بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية :
ايا شجر الخابور مالك مورقاً كأنك لم تجزع على ابن طريف
أو بنهضة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

القي الرياح ربيعة بن نزار اودى الردى بهريقك الغوار
وامثال ذلك فمن اراد قرض الشعر كان هو كالبناء أو النساج والصورة
الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه . فان
خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً . ولذا رأى اهل
الذوق في قول الشاعر :

لم ادر حين وقفت بالاطلال ما الفرق بين قديمها والبالى
كلام فقيه لقوله ما الفرق بين قديمها لان هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم
لا من تعبيرات الادباء مع ما فيه من الوقوف بالاطلال . فلم يستحسن اهل الذوق
هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماء ولذا لم يستحسنوا في الادب كلام
الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة ظلوله من هذا النور
الذي يتلأل في كلام الادباء ويخرج من نفس الاديب ومن قلبه وروحه . وأما
كلام الفقيه او الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقايسته . فهو وان كان برهانه
قاطعاً الا ان تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الـايب . ومن كثرة حفظهم
لاشعار المتقدمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمجج الاسماء التي
لم ترد في اشعار الجاهلية . روي ان جرير انشد بعض خلفاء بني أمية قصيدته :

بان الخليط برامتين فودعوا او كلما جدوا لين تجزع

كيف العزاء ولم اجد مذ بتم قلباً يقر ولا شراباً ينفع

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله

وتقول بوزع قد ديت على العصا هلا هزيت بغيرنا يا بوزع

فقال الخليفة افسدت شعرك بهذا الاسم . لان سماع الاديب لم يأف اسماً

بوزع كما الف هندومي او فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى اجاز ساحة الحبي

وهي تجرد اذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشبة فيكتور هو كوكو بمشوقته جوليت في
مراقص باريس ، مراسعها . ولم نزل الادبا يذنون كلامهم في ذاك القالب
وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا . كما فعل اصحاب المعلقات السبع التي
نشرها صاحب عكاظ . وكلماتهم السبع التي خست بكرامة التعليق هي :

كلمة قتيب الاشراف السيد توفيق افندي البكري ومطلعها :

اما وبين الله حلقة متهنم لقد قت بالاسلام عن كل مسلم
وكلمة عبد الجليل افندي براده المدني :

كذا فليكن ما يجرز المجد والفخر كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر
وكلمة جميل افندي الزهاوي البغدادي :

هو الفتح التي في قلوب العدى هولا واثبت ان الحق يعلو ولا يعنى
وكلمة احمد شوقي بك المصري :

بسيفك يعلو الحق والحق اغلب وينصر دين الله ايان تضرب
وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري :

ابن ضميمها في الناس كيف اضيمها حياة تساوي بؤسها ونعيمها
وكلمة احمد محرم افندي المصري :

منازل سلمى لاعدائك الغائم ولا درست بالجزع منك المعالم
وكلمة ابي النصر السلاوي باشا المصري :

على مثاهما فليحمد الهمم الفر فما هي الا الحرب اعقبها النصر

فالمثنى والمصري خرجا عن هذا القالب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء
الجاهلية وجعل كل منها له مذهبا مخصوصا في الادب واساليب معروفة في الشعر
ولذا قال ابن خلدون « وكان الكثير ممن لقبناه من شيوخنا في هذه الصناعة
الادبية يرون ان نظم المثنى والمصري ليس هو من الشعر في شيء لانهما لم يجريا
على اساليب العرب »

وبعد ان كان حسان يقول :

وان احسن بيت انت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول كان زهير لا يمدح الرجل الا بما فيه —
 صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم يمدحون
 بأشعارهم أمراء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط
 لا سوى ذلك من الاغراض كما فعله حبيب والبحري والمنيني وابن هاني ومن
 بعدهم . فان حبيباً الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف
 الشام والعراق وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة . والبحري
 ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لخدمة الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام
 ومدح الأمراء واجتمع في حمص على أبي تمام . والمنيني ولد في الكوفة وأبوه سقاء
 من قبيلة جعفر فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان ثم ذهب لمصر
 ومدح كافور الاخشيد الخبي الاسود . ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد
 الدولة من آل بويه وغيرهم وهو ممن حاول ان يأتي بمثل القرآن كابن المقفع ولكنها
 عجزا وباطلا ما كتباه ولذا هجا بعضهم المنيني فقال

أي فضل لشاعر يطلب الفضل من الناس بكرة وعشياً
 عاش حيناً يبيع في الكوفة المأوى وحيناً يبيع ماء المحيا

وكذا ابن هاني متنبى الغرب ولد في اشبيلية وطاف بلاد افريقية ومدح أمراء
 البربر وهو القائل في المعز لدين الله

ما شئت لا ما شأت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي
 كانت فيه للاولين وصار يقال احسن الشعر اكذبه . وقلد شعراء العرب العجم في
 مبالغتهم وتملقهم للأمراء دفعا للشكر واستجلاباً للاحسان والخير . واستبد الرؤساء
 بالامر وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم حاجة لاستعمال فن الخطابة وطلاقة
 اللسان لاجتذاب قلوب الامة اليهم بل رأوا من المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وارهابهم
 بحد السيف فاستخفوا بالامة وبالرأي العام وتمثلوا بقول أبي تمام :

السيف أصدق ابنا من الكتب

وبقول عمارة اليمني السياسي

فيكتور هوغو وعلم الادب

وشفرة السيف تستغني عن القلم (١)
 وفعلوا بالامة ما قاله لها الحجاج سابقاً : لا عصبنكم عصب السلة وألحونكم لحو
 العصا ولا ضربنكم ضرب غرائب الابل يا اهل العراق . يا اهل الشقاق والنفاق .
 ومساويء الاخلاق . ابي والله سمعت لكم تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في
 الترغيب . ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب . يا عبيد العصا واشباه الآماء انما
 مثلي ومثلكم يا قله بن براقه المهداني :

• وكنت اذا قيم غزوني غزوتهم فقل انا في ذا يا اهل همدان ظالم
 حتى تجمع القلب الذكي وصارماً وانقأ حبيباً تجنبك المظالم ،
 وقال المعتضد عند وفاته في سنة ٢٨٩ هـ وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين
 ولعله ندم على هذا الاستبداد :

ولا تأمن الدهر اني امتته فلم يبق لي خلا ولم يرع لي حقاً
 قتلت صناديد الرجال ولم ادع عدواً ولم امهل على طفليه خلاً
 واخليت دار الملك من كل نازع فشرذتهم غرباً ومزقتهم شرقاً
 فلما بلغت النجم عزاً ورفعةً وصارت رقاب الخلق اجمع لي رقا
 رماني الردى سهماً فاخذ جمرتي فها انا ذا في حفرتي عاجلاً القى

ولكن الرؤساء من الاعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم واصبح تعاطي
 الشر هجنة في الرئاسة ومذمة لإهل المناصب الكبيرة وقدموا الجهلاء على الشعراء
 ودعواهم بالظرفاء واهملت فنون الادب وبلغ التفریط في جانب الفصاحة للسانية

(١) والشطرة الاولى « العلم مذ كان محتاج الى العلم » او « العلم اول محتاج
 الى العلم » وهو مطلع قصيدة حرض فيها شمس الدولة على تلك الخيول ومن ابياتها
 المنهية تلهب الجمر قوله :

ان المعالي عروس غير وامقة ان لم تخلق ردائها برشح دم
 ومنها : وكان اول هذا الدين من رجل سعى الى ان يدعو سيد الامم
 وقد طبع ديوانه الاستاذ هارنويغ ديربورغ سنة ١٨٩٧ مع كتابه النكت
 العصرية في اخبار الولاة المصرية

الى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجلس ويعتبرون السكوت عين
الادب واذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور . وكثيراً ما يتلوه اجمل
المجتمعين ويكون قد حفظ الدعاء من الضمر بالجماع .

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور وظنه من العلماء لطول لحيته
وكبر عمره فاراد تعيينه في منصب قليل له امي فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه ان
يقرأ عليه ما كتبه جريدة الجوائب اذ ذاك فلما امسك الجريدة بالعمس فهم الوالي
وتلاهي عنه ولم يمينه . ولقد دقق في هذا المبحث عبد الرحيم افندي احمد مبعوث
مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة ١٨٩٧ ووجد نسبة
تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب فكلمها اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع
معه نطاق الادب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد
الاستبداد تقيدت عقول الابداء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرع
لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه

قال مبعوث مصر المشار اليه واقد لا حقت في المتكلمين بلسان العرب ان
الحرية اذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم و فاهم . هكذا
احلم يا سيدي . الخلاصة . النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلم .
هذا في المحادثات بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالافراح والعزاء واستقبال
الولاة والقضاة فاما ان ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس أو بتلاوة الدعاء المأثور .
وان جعل للادب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع تصبده مدح أو تبريك أو عزاء
وينفض الجمع بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام وبصور بكلامه حالة
تلك الهيئة المجتمعة

٨

أما اهل الاندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماء صافية وأرضاً طيبة وهواء
تقياً واشجاراً مزهرة وأنهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة أتست أفكارهم
واستبحر عمرانهم وراقت أشعارهم ورقت معانيهم وتهذبت فنون الشعر ومناحيه في
قطرهم وبلغ التنبق فيه الغاية وكثر فيهم الابداء والشعراء . فوسعوا دائرة الادب

ونظموا الشعر في جميع الاعاريض المعروفة عند العرب . وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر واغراضه من نسيب ومدح وثناء وهجاء . ثم لم يكتفوا بكل هذا بل وجدوا الزمان والمكان يقتضي لهما فنون جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا اسلوب الشعر وعروضه كما فعل فيكتور هوغو واهل طبقة في تغيير عروض الشعر الفرنسي واستحدث المتأخرون من الاندلسيين الموشح والزجل والمربع والخمس والمعصب على اربعة اجزاء والمزدوج والكاري والملمعة والغزل وعروض البلد والاصمعيات والخوراني والموالي والدوييت وهما لاهل الشرق . وغير ذلك من التقين الذي لا يدخل تحت حصر . فاول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله احمد بن عبد ربه (٢٤٦ - ٣٤٨ هـ) صاحب كتاب العقد الفريد . وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيباً ولم أدخل مكتبة من مكتبات الاسنانه (١) الا واجد فيها نسخة او اكثر من هذا المؤلف . ثم شاع استعمال الموشح في الاندلس واستظرفه الناس ونظم كثير من الادباء ونسج على منوالهم أدباء الشرق وطبع كثير من الموشحات واشتهر . فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب شاعر الاندلس والمغرب . وكان معاصراً لابن خلدون وكانه زدي حضارة الاندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال :

جاءك الغيث اذ الغيث هما يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكن وصالك الا حلما في الكرى او خلسة المختلس

ومن ابدع ما أتوا به من الموشحات قول بعضهم :

كحل الدجى يجري من مقلّة الفجر على الصباح

(١) في الاسنانه ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والاهمية ومجموع ما فيها من الكتب اقل من ثمانين ألفاً بقليل . وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ كثيراً وربما قيد في الفهرست المجموع المشغل على عدة رسائل باسم الرسالة الاولى . وفيها من تغلّس الكتب ما لا يقدر

ومعهم النهر في خلل خضر من البطاح
ثم نسج أهل الامصار على منوال الموشح ونظموا مثله بلغتهم الحضرية من
غير التزام اعراب وسموا هذا النوع من الموشح بالزجل وأول من ابدعه أبو بكر
ابن قزمان . ومع انه قرطبي الدار كان يتردد كثيراً الى اشبيلية مركز الادباء وجمع
الظرفاء وهي على نهر الوادي الكبير تشبه حصن القديسة من نهر العاصي . ولذا اطلقوا
عليها اسم حصن فكان أبو بكر ابن قزمان يركب مع اصحابه في النهر للترفة
والصيد وتدور بينهم المحاضرات الشعرية والمحاورات الاربية وهم في الزورق . وقد
استخرج صاحب جريدة الارز من مكتبة رومة شيئاً من زجل الاندلسيين
ونشره في مجلد . وأما الاصمعيات فهي الشعر البدوي وسميت اصمعيات نسبة
للاصمعي راوية العرب (١٢٢ - ٢١٦ هـ) وهي قصيدة طويلة بلا اعراب بل
هي بلغتهم الدارجة ويتبدأ فيها غالباً باسم الشاعر وفيها كثير من البلاغة والفوائد
التاريخية . والمعصب نجثون فيه على أربعة اجزاء يخالف آخرها الثلاثة في راوية
ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة . والحواراني بارض الشام .
ولا نطيل الكلام ببيان هذه الفنون وأقسامها وفيها من البلاغة والفوائد التاريخية
ما لا ينكر . بخلاف ما احدثوه من الصنائع اللفظية

وبيان ذلك ان ادباء العرب في الجاهلية والاسلام صرفوا عنايتهم في النظم
والنثر الى الالفاظ لا الى المعاني فالهدف الذي كان الاديبي منهم يروم اصابته هو
التفنن في طرق الافادة وبيان المعنى الواحد بأساليب مختلفة من الكلام وشبهوا
المعنى بالماء والالفاظ والتراكيب بالاناء فنه آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج
والخزف . ففرض الشاعر منهم اسقاء سامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا
يتغير باجمل اناء يصوغه له حسب قدرته . ولم يكن غرضه اسقاء سامعه انواع المياه
الخفيفة المهضمة من منابع مختلفة معدنية ولا اسقاءه انواع الخور او المرطبات
والبزورات باي اناء كان . ولذا اظهر الادباء كل مهارتهم في الالفاظ وبنوا اقتدارهم
في معرفة اللغة وحفظ الاسماء الكثيرة والمترادفات وافادة المعنى الواحد بطرق
مختلفة فكانت الالفاظ طوع قريحتهم ينصرفون بها كما يتصرف الصائغ في سبك

الفضة . فآلفوا في الالفاظ المهمل والمقترط والمشجر وما يقرأ طرداً وعكساً ولزموا في القوافي ما لا يلزم ونظموا الخلابية وامثالها - يروى عن اديب انه اجاب من شتمه بقوله الكلب بن لا يعرف للكلب مائة اسم . وحفظوا اسماء كثيرة للبعير والناقة والسيف والكل ما اشتهر بالخسة والشرف . وقالوا كثرة الاسماء تدل على شرف المسمى لو خسته . ونجد امرأ القيس اذا وصف الفرس لم يدع تحضواً من اعضائه الا شرحه تشريحاً . وآلفوا كتباً كبيرة من الاحرف المهمة او المعجمة مثل التفسير الذي ألفه مفتي الشام السابق المرحوم محمد افندي حمزة بالحروف المهمة . ولما طبع هذا للتفسير بدمشق بعثني والذي بنسخة منه الى المرحوم مفتي الخليل التميمي وكان علامة الديار المقدسية . فنظر في التفسير طويلاً ثم رده الي وقال لو لم يقيد قلعه بالاحرف المهمة لافادنا باكثر من هذا . وكتاب عنوان الشرق المشتمل على عدة علوم في متن واحد يقرأ بصور مختلفة وهو مطبوع في مصر . وعلى نسقه كتاب آخر مطبوع في الاستانة . ولما قال العماد الكاتب « سر فلاكبا بك الفرس » اجابه القاضي الفاضل « دام علاء العماد » . والجلتان مما يقرأ طرداً وعكساً . وكان القاضي الفاضل رئيساً المراسلات السياسية عند السلطان صلاح الدين الايوبي والعماد الكاتب بمعيته رئيساً لقلم المصالح الشامية وكتابه الفتح القدسي طبع في السنين الاخيرة . وقال ابو عبد الله ابن ييس من علماء الاندلس وهو شيخ اسان الدين بن الخطيب المشهور :

اساجعه بالواديين تبوأي ثماراً جنتها حاليات خواضب

دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب

غرام فؤادي قاذف كل ليلة متى ما نأى وهناً هواه يراقب

فجمع في اول الكلمات حروف الهجاء من الالف الى الياء على الترتيب فادباء الأفرنج يقولون . نعم أن الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعية وله رونق وبهجة وفيه تهيج المسامع وهو على اسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية ولكن الكلام الذي فيه تصنع في الالفاظ وتعمل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيل فكري . وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه احساس

ولا عظمة مطلقاً وإذا ارتفع نفس الشاعر أو الكاتب في الكلام الذي فيه تصنع وتعمل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع 'حالاً' وينتقل الى غير منا هو فيه . بخلاف الشعر اليوناني أو الافرنجي كرواية ايراني مثلاً فإن فيكتور هوغو نظمها على نفس واحد ونسق واحد وأبدع فيها بما قاله عن لسان شارل كين من الكلام العالي للملكي فإذا نطق به الشخص على مسرح التشخيص أخذ بهجامع القلوب واستمر الشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلاً . لاعماق افئدة السامعين ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً . ومن فاس بنظره بين مقامات الحريري وبين رواية مضحكة من روايات مولير الشخصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني واثالها . ويتقدون على المقامات ايضاً من جهة انتهك بالاخلاق وانتفل بالبنين كالنفل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام ادباء الافرنج المشهورين . الا من ندر منهم مثل الاديب الانكليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا ودافع عن نفسه بمشروعة هذا الحب في اصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان

والحق ان هؤلاء الافاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على اسلوب الكوميدي ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية . وانما قصدوا اظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتديججه بدياج الاستعارات والباسه حلل التشايه ونرصيه بلائى . البديع كقول الحريري في وصف الخطيب « يختل الاسماع بجواهر افظه ويجتذب القلوب بزواجر وعظه » من الكلام المبيج المصنع المرصع الذي لو نطق به على مسرح التشخيص لاي فهمه العوام ويحتاج الخواص الى النظر في صناعته واعمال الفكر في بدائه . والا لو صرف الواحد من اولئك الافاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الافرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمر واعلاها طبقة . ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر باناء صاغه لنا من الذهب الخالص وطلاده بالميناء الثمينة ورصمه فوق ذلك بهروق واوراق من الجواهر والآلي ليخفي لنا الماء بابهى اناء وبرينا أحسن المصوغ والمجوهر . وقد يفرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعية في لجج تلك

الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجها الى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحهم . لان الكاتب منهم لم يكتب للعوام واهل السوق وانما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولاصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه . ولذا فهو يتجنب الكلمات السوديّة المبتذلة وينتقي أعلى طبقات الكلام واعوصها في اللغة . فالمرءى على مآله من جلالة القدره في الادب لم يسبقنا الحكمة من كأسه الا وهو يفوس في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والامثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني . ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء ليس فيها تصنع في الالفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج الى تفسير الالفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض

فالاندلسيون اصاحوا كثيراً من الخلل الموجود في ادب العرب وجاؤا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر واوجدوا فنوناً مستحدثة واتبعوا في الكلام شعورهم واحساسهم القلي فطافوا على قرائهم بصحاف من ذهب واكواب فيها بعض ما تشتهي الانفس . ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الارض مشابهة باشعار الافرنج كوصف حمدونه وهي من بنات الاندلس الشواعر لوادني آش وهو في آيالة غرناطة قالت :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاء مضائف الغيث العميم (١)
حللنا (٢) دوحه فحنا علفنا حنو المرضعات على الفطيم
ورشفنا على ظلي زلالاً الذ من المدامة للتدويم
تروع حصاه حالية العذارى فليس جانب العقد النظيم

وقال أبو الفداء لا بل الايات لاحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة ٤٣٧ هـ وزير ابي نصر احمد بن مروان الكردي . صاحب ديار بكر وترسل الى القسطنطينية ومراً في بعض اسفاره بوادي بزاعا فاعجبه حسنه فقال فيه الايات . ووادي بزاعا في ولاية حلب وابيه ينسب أبو فراس الحمداني وغير من الشعراء

ولو طال على الاندلسيين الامد في الحضارة وتماقت الادوار على اللغة وتوالت عليها الانقلابات لاتوا باحسن مما جاء به فيكتور هوغو وأميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري . ولكن عاجلهم الاقتراض وفاجأهم الاستبداد فأنحلت عقولهم وسدت قرائنهم . وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتور يا مملكة الانكليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أميناً

ثم ان العارفين باللغات نصوا على ان لادب اللسان العبراني تأثيراً على ادب العرب قبل الاسلام وبعده وذكرنا مشابة وتوارداً في الخواطر بين ما جاء في شعر امرئ القيس الذي ضرب فيه المثل اذا ركب وبين ما ورد في سفر ايوب من التوراة في وصف الفرس . ونقل بعد الاسلام من العبرانية الى العربية ما سمي بالاسرائيليات مثل التواريخ وقصص الانبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة واللمود . وكان نقلها عن احبار اليهود الذين اسلموا مثل كعب الاحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي الله عنهم . وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب كيلة ودمنة وما شابهه وكيف نسج الاسباب على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الادبية والاختلاعات الفكرية . ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي ولم يغير شيئاً من اساليبه القديمة ودامت اساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه

فيتضح مما تقدم ان العرب لم يأخذوا من الامم الذين ترجموا كتبهم الا العلم والحكمة فقط ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم ولا ترجموا شيئاً من ذلك . مع انهم رأوا في كتاب المنطق لارسطو ثناء طيباً على اميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء . ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المثني والمصري وابن هاني الا من جهة افادتهم الاراء الفلسفية لا من جهة افادتهم اساليب النظم وطرف الكلام ومن فحول هذه الطبقة ابو المعاتبة وكان في ايام المهدي وهارون الرشيد

والمأمون واكثر في اشعاره من ذم الدنيا لغدرها بابنائها ومن تذكير الغافلين بالموت
وتشويقهم للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره :

الا انا كلنا بائد واي بني ادم خالد
وبدوهم كان من ربهم وكل الى ربه عائد
• فيا عجب كيف يعصى الا انه ام كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء : له آية تدل على انه واحد

ومن فلاسفة الشعراء ايضاً ابن الشبل ابو علي حسين بن عبد الله البغدادي
المتوفى سنة ٤٧٤ هـ وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان
وقصيدة فلسفية يقول فيها :

• بربك ايها الفلك المدار اقصد ذا المسير ام اضطرار
مسيرك قل لنا في اي شيء ففي افهامنا منك انهار
وفيك نرى الفضاء وهل فضاء سوى هذا الفضاء به تدار
وعندك ترفع الارواح ام هل مع الاجساد يدركها البوار

الخ

ولابن سينا والرازي اشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها :
• هبطت اليك من المحل الارفع ورقاء ذات تعزز وتمنع
محبوبة عن كل نقلة عارف وهي التي سمرت ولم تتبرقع
وصلت على كره اليك وربما كرهت فراقك وهي ذات تفجع
الخ ...

وله اشعار بالفارسية ايضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والاحاد
ومن كلام أبي بكر الرازي محمد بن زكريا قوله

لعمري ما ادري وقد آذن البلى بعاجل ترحال الى اين ترحالي
واين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المتحل والجسد البالي
الى غير ذلك مما اتى على هذا النسق من كلام اهل هذه الطبقة

فان لم يكن لفنون الادب الاعجمية تأثير كبير على شعر العرب ونثرهم فهل

لفنون الادب العربي تأثير على شعر الافرنج ؟

بيننا انا ابحث عن جواب هذا السؤال رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد ٤٦٢ مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب العذارى المائسات الذي استخرجه صاحب جريدة الارز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف العربي المشيج . عثر عليه في خزانة كتب بدير القديس انطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة قال فيه :

« فصفحته قد اذ فيه طائفة كبيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها ناظموها عن اوزان الشعر العربي المعينة واجزاء بحوره المفروضة واحكام أعاريضا وضروها المطردة . بيد انهم اجادوا في ذلك منتهى الاجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس خدمة لاهل الادب واثباتاً لسبق العرب اليها . . » وبعد ان ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكارى والملمبة والعزل وغير ذلك قال :

« وقد استحسّن شعراء الافرنج من الاسبان والالمان والاطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي ونسجوا وعلى منوالها كما يرى ذلك في دواوين شعرائهم . ولا مرأى بان ذلك اتقل اليهم من العرب حيث لم يأنسوا بانوار هذه المستجدات الا في اواخر القرن الثالث عشر . والمتصفح لكتب العرب والافرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى ولكن قل ان يراها مجتمعة في صفحات عديدة أو كتاب واحد مع انها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع » (انتهى)

فايضاحاً لمجمل هذا القول رأينا ان نبحت في منشأ الادب الافرنجي وفي دخول العرب بلاد الافرنج

٩

كانت فرنسا في قديم الزمان تسمى ارض الغول وكان يسكنها قبائل الغولوا والست (القات) من البربر المتوحشين . فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من ايطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على اسبانيا لجودة الهواء والارض فيها . وشكلوا في اطراف مرسيليا ومصب نهر

الرون ولاية سموها بروفانس ومعناها الايالة وجعلوا عاصمتها مدينة اكس وهي في شمالي مرسيليا . وبنوا على الحدود الاسانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم الى اسبانيا والى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينة . وقبل الميلاد بخمسين سنة تعين يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسع حدود الولاية وفتح ارض الغول واحتلها باملاك الدولة الرومانية فصارت الولاية ترسل اليها من رومة ومعهم الاسكر والمأمودون . فنظموا ادارتها وفتحوا طرقها وعمرها فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة . وادخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة واستمرت بلاد الغول في ايدي الرومانين نحو اربعةائة سنة .

وحينما انقسمت دولة الرومان الى شرقية مقرها القسطنطينية والى غربية مقرها رومه وذلك في سنة ٣٩٥ م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة . غير ان تشتت الولاية وضعف قوتهم العسكرية اباح لقبائل الجرمان التجاوز الى ارض الغول والاسنيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال ارض اسبانيا وسموا الاندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا أو اندالوسيا . ففي اوائل القرن الخامس للميلاد نزات قبائل الوبزي قوط في جنوب نهر لوار المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط . بالقرب من مدينة نانت . ونزات قبائل البورغوند في وادي الرون وجمال جورا ونزات قبائل الفرنك في شمالي ارض الغول أي في بلاد البلجيك ونزات الالمان على ضفاف الرين العليا . واستمرت حكومة الرومانين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين . غير ان القبائل النازلة سالوا الحاكم الروماني وقتلوا تحت قيادته قبائل الهون الاسيوية وكانت قد هجمت على غربي اوروبا وخربت البلاد واراقت الدماء فهزموا رئيسهم اتيلا سنة ٤٥٠ م امام مدينة شالون على نهر مارن . فالت قبائل الهون شعنها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في ايطاليا كالسيل الجارف واستولوا على رومة سنة ٤٧٦ م وابدوا ملكها .

فتفردت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في ارض الغول وكان أشجعهم واقدروهم قبائل الفرنك فاستبدوا بالامر وطرد رئيسهم قلوڤيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم واسس سنة ٤٨١ الدولة التي سميت باسم جده «ميروفة» فقبل لها (ميروفينجيان) أي آل ميروفة وهي أول دولة من الافرنج ودام حكمها ثلاثة قرون . وحيث كان ملوك الافرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولة الميروفينجيان الى اقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعضعت واصبحت ايام دخول العرب اليها منقسمة الى اربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفة وهي

(١) اوستراليا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الازراس والاورين وما حاورها من ضفاف نهر الرين . ولم يكن للملكها من آل ميروفة نفوذ فيها بل كانت الكلمة فيها لاعيائها وكبيرهم دوق اوستراليا ومقرهم مدينة مج

(٢) نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين الى اورليان جنوباً وعاصمتها باريس وكذا اورليان والمالك عليها من سلالة ميروفينجيان اصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا

(٣) بورغونيا وهي على ضفاف الرن والسون وعاصمتها ديجون

(٤) اكيثانيا وهي ما بين جبال البيرينة ونهر غارون المنصب في المحيط ابد مروره بطولوز وبوردو . وكانت اذ ذاك تحت حكم الدهق أود الملقب بدوق اكيثانيا وهو من نسل ميروفة ومقره طولوز . وتسمى الابلالة المحيطة بها لانفيدوق وما في جنوبها سبتيمانيا كما يسمى القسم الذي على ساحل الاوقيانوس المحيط غسكونيا وأطلق عليه في كتب العرب ارض غشكونية

ففي سنة ٦٨٧ م تدخل دوق اوستراليا المسمى بين دريسنال في شؤون مملكة نوستريا لفظة ملوكها من آل ميروفة واهلهم مصالح الملك حتى اطلق عليهم اسم الملوك البطالين لعودهم وتخلفهم . وجعل بين نفسه مشيراً للملك في باريس واميراً للامراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين ثم انضمت

اليهم بورغونيا فصار لدوق اوستريا نفوذ في اكثر المملكة وهيا الامر لابنه شارل مارتل صاحب الوقائع مع العرب ولحفيدة من بعده . فخذ على بين الامراء من آل ميروفره لا سيما اود دوق ايتانيا لتفوقهم عليه في الاصاله وشرف النسب

وقبل دخول الرومانيين ارض الغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت النازلين مريض بریطانية السز مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأمورهم ومن تبعهم من التجار والسوقة ساروا يتكلمون لغة غوام اللاتين وسوتهم أي اللاتينية الدارجة ويلوكون بها السهم كما يلوكون الزنجي اسلمه بالبرية أو السنغالي بالفرنساوية . فلما استولت قبائل الفرنك على ارض الغول وطردها منها والي الرومان اقتبسوا لسان اهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية وضموا الى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان) وهي لاتينية سوقية تحرفت بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرنك . وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقى والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة الى قسمين أحدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوك) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لإيالة بروفانس وهو اقرب لسان المليون والاسبانيول منه الى اللسان الفرنسي الجديد . والثاني كان يتكلم به اهل الشمال ويسمى (اويل) . ثم انقسمت لغة اهل الشمال الى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيرة فرانساهي الإيالة التي عاصمتها باريس وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنسية الحالية . ثم انتشرت في الايلات الجنوبية حينما استولى عليها سنة ٩٨٧ م هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة من دول الافرنج في فرنسا . ولم تزل الحكومة الفرنسية تسعى في نشرها وتعميمها واصلاحها الى يومنا هذا . ومع ما تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في اهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة . ونزلت ذات يوم قرية من قرى الفرنسيين في جبال البيرينة فلم استطع التفاهم مع اهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الامصار الفرنسية ومدنها العظيمة

فالفرنساويون اخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية وسموا انفسهم

باسم قبيلة اجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من المانيا وتغلبوا على فرنسا واسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتاسوا اسمها القديم وهو ارض الغول واسم سكانها الغولوا

ولما دخل العرب فرنسا كان اهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة اذ كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم اوربا الغربية بما فيه انكلترا . فمن تلك اللغات التي لم تدم حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواكون سكان البلاد في قديم الزمان ومنهم سميت اkitania بارض غسكونية ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو ١٢٠.٠٠٠ في فرنسا ونصف مليون في اسبانيا . ومنها لغة بروفانسال ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلم بها اهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا . ومنها لغة بريتون وهي بقية لغة القلت أو السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا . ومنها لغة فلانماندوهي نوع من الالمانية ولم يزل يتكلم بها نحو ١٦٥.٠٠٠ من سكان الحدود الشمالية . وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون ان يبقى لها اثر في اللغة الفرنسية كلفا اkitania أو بقي لها اثر فيما يسمونه باتوا من لغات اهل القرى . اذ لكل ناحية باتوا مخصوصة بها لا يفهمها اهل الناحية الاخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فان المرسيني والاسكندروني والبيروتي واليافني والاسكندري والطرابلسي واتونسي والجزائري والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بادنى تأمل واقل فكر مهما تحرفت كلماتهم . وكذا اهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع انه لم يحصل عناية ولاهمة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الاعجمية كالفرنساوية والانكليزية واليطانية والتركية . فبينما كانت فرنسا متفرقة الكلمة لغة وسياسة اذ دهمها العرب واستولوا على اكثرها .

١٠

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد ٤٨ - ٥٩٦ هـ) سادس الخلفاء الامويين والثالث من آل مروان كانت افريقية ولاية ملحقة بامارة مصر

والأمل عليهما عبد العزيز بن مروان فلما اتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فثكأه الحسن بن النعمان إلى الوليد فسلخ عن مصر افريقية وولاهاموسى بن نصير . وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالامر وامله على طليطلة عاصمة الملك وظله في قبائل القوط وتساطه على اعراض بناتهم : فاصحجار لاسبانيول بالعدالة لاسلامية واعتم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد اطيب هواء من الشام واخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند . وبعد استحصاله على اذن الخليفة سهر طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من اضيق هبل فيه ونزل بساحل اوربا عند صخرة هائلة كانها الجبل فسميت باسمه . وقيل لها جبل الطارق وقيل لجمع البحرين المكتشفين بها بوغاز جبل طروق (جبرالتار) وكان ذلك سنة ٩٢ للهجرة وسنة ٧١٠ م والى عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندرة رواية تشخيصية باللسان العناني سماها طارق وأبدع في نظمها ومنجزها وبين فيها هذا الفتح المبين . فانتصر طارق في محاربة وادي لينة بالقرب من جزيرة قادس . ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشرف قريش وفتحوا ماقه وامشيلية وهي على شاطئ الوادي الكبير وقوطية وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر التاج . وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال البيرينه الفاصلة بين اسبانيا وفرنسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال . وهذه اول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينه وهم تحت قيادة موسى بن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء — هذا من جهة الغرب

وأما من جهة الشرق فسير الحجاج والى العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهندوسير جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة ابن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خوامان وفتح ما وراء النهر وتقدم حتى بلغ كاشغر وأخذ الجزية من ملك الصين . واصبح ما بين المشرق والمغرب تابعا للوليد وهو منعم في قصره لم يخرج في غزوة . واستوتقت له الامور ولم تغفل عساكره المنصورة الا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج وفي بلاد الروم وهي في قيادة

أخيه مسلمة بن عبد الملك . وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة ارال) وما في شمالها من اراضي سبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس . وبلاد الروم هي بر الاناطول والروم ايلي وكانت تابعة لقيصر الروم اي لدولة الرومان الشرقية . كما هي اليوم من اجزاء الممالك العثمانية . ومن حسن حظ الموليد توفيقه لبناء المسجد الأقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذلك الزمان وترقي أهله في الصنائع وال عمران

ثم جاس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (ولد ٥٤ - ٩٩ هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الديد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير . وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الاسلامية ناشئ بما جوزي به سمار . فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جتته أيديهم من أموال الغنائم . وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن ادارته في ولاية أشبيلية . وكان موسى متأهباً للاغارة على الامم التي بين جبال البيرية وخليج القسطنطينية وأدخلها جميعاً في الاسلام كما دخلت امم آسيا وأفريقيا ولم يكن هذا الامر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين امراء الافرنج وعدم النجاة في ملوكهم الملقبين بالباطالين . ولكن سوء تدبير الامويين صده عن هذا العمل العظيم ومكن الافرنج في فرنسا نالاً يتمكن منه القوط في اسبانيا من الائتلاف والاتحاد وصد هجمات العرب . وبسوء تدبير الخلفاء ايضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافأتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنين التحق بالعلبي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسر كيفية عمل هذه النار فامر باصطناعها في معامل القسطنطينية برّاً وبحراً . لان مسلمة ابن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الاسلام بر الاناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوزاز جناق قلعه) وطلع لاوربا وأتبع ساحل بحر مرمره حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الازدي في خلافة معاوية سنة ٤٧ هـ واستشهد اذ ذاك ٣٠ الفاً من أهل الاسلام

وفيهم خالد أبو أيوب الأنصاري . ولم يزل ضربه يزار في الحي المنسوب اليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب . وبينما كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البر كان أسطول الاسلام المجهز في سواحل سوية ومصر من خشب احراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية . فالذي منهم العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لانها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم وكانت عدتها الف وثمانمائة مركب والكبار منها عشرون مركباً امام عاصمة الروم كانوا الغاب من الصواري والكماة فيها كالاسود . فاحترقت باجمعها ولم يعد منها للاسكندرية سوى خمسة مراكب — فالتحترق لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الانكليزي جيبون هو رجل من بعلبك يسمى كالبنيقوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة بمقدار معين فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمر ما تنصب عليه . لذا سميت أيضاً النار البحرية . وما زال العسكر في الحرب يعملون عليها ويتقنون ضررها الى ان اكتشف العرب هلى ما يظن بارود المدافع باضاقهم الى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود . ونقله عنهم في القرن الثالث عشر الميلاد روجر باكون الانكليزي (١٢١٤ - ١٢٩٤ م) وغيره من كيمائي الافرنج واشهر استعمال البارود في المدافع سنة ١٣٤٦ في الحاربة التي وقعت بين فرانسوا وانكلترا في قريب سي وهي في شمال باريس على نهر صوم . فكان ملك الانكليز ادوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه دوغال وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت . فغلب الانكليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري . فهذه اول محاربة في اوربا استعملت فيها المدافع ولكن المظنون ان العرب استعملوها قبل هذا التاريخ اي في اواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرهم جزيرة صقلية سنة ٦٧٢ هـ — وعلى كل فلا ندرى كيف ترك هذا الكيمائي البعلبي خدمة الخلفاء الامويين والتحق بقبصر الروم . وفي الدولة الاموية في ذلك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم

توفي سليمان بن عبد الملك، مرابطاً في مرج دابق من ارض قنسرين وأخوه

مسلمة منازل القسطنطينية . ثم جلس عمر (٦١ - ١٠١ هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية وتجاوزت عساكر الاندلس الى وراء جبال البيرينه من أرض فرانسا ليحققوا آمال موسى بن نصير في الذهاب برأ الى القسطنطينية . وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في البحر الشامي . ترعة طولها ثمانية كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء . فحاصرها علقمة بجيش المسلمين من البر والبحر وأمدت الحصار سنين لحصنها بالمستنقعات والقلاع الرومانية .

ثم جلس يزيد (٧٦ - ١٠٥) بن عبد الملك بن مروان تاسع الامويين وسادس المروانين وفي أيامه دخل علقمة بالسيف الى نربونه فزاد في تحصينها واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرانسا وصار العرب يسمونها أربونة وأفتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية وظلوا سائرين حتى دخلوا ايلة لانفيدوق والنوا الحصار على مدينة طولوز (طلوثة) وكانت اذ ذك مقر دوق ايكثانيا المسمى اود . فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزي قوط والواسكون والفرانك وأقتلوا قتلاً شديداً قتل فيه كثير من الجانيين . وكان علقمة يستشيط غيرة وحمية ويكر بنفسه ويشجع الابطال بكلامه فاصابه سهم قضى به نجه . وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة ٧٢١ م وسنة ١٠٣ هـ . فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن من ذوي الحجة والاقدار ومن اصحاب عبد الله بن عمر واتقلب راجعاً الى ضواحي نربون والى مصب نهر الرون

وفي سنة ١٠٥ هـ أو سنة ٧٢٤ م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حباية فجلس على كرسي الخلافة اخوه هشام (٧٠ - ١٢٥ هـ) بن عبد الملك بن مروان وعين والياً على الاندلس غنسة فاراد الاخذ بثار سلفه علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينه ونزل ايلة سبتمانية وهي اليوم ولاية البيرينه الشرقية وولاية اود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونة) وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا وطولوز وبوردو . وتقدم غنسة بالمسك فجاد أهل مدينة نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الامان فأمهم ودخل مدينتهم بالصلح

وسموها نيمية وأخذ أبناء اعيانها رهناً على طاعة آبائهم وحفظهم في برسلون (برشلونة) وهي على ساحل البحر الشامي في ايلالة قطلونيا المشرفة عليها جبال البرينه . وتقدمت جيوش غنيسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة اتون سنة ١٠٧٠ هـ وسنة ٧٢٥ م . وفي هذه السنة قتل غنيسة في احدى المعارك وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا

واستلم قيادة الجيش بعده جديدة ورجع بالعسكر الى الحدود الاسبانية فلاقى بها البلد الذي بعث به المرابطون في الاندلس فكراً بهم على بلاد الافرنج والقي العرب في قلوب اهلها . واوغل في الارض الشمالية وفي مملكة برغونية . ويزعم مؤرخو الافرنج ان العرب اكنثوا في هذه الحروب من اراقة الدماء وهدم البناء واحراق الكنائس والاديرة وتخريبها واتلاف الاموال وغصبها . ومنهم من يعترف بان العرب اخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الاسيوية الذين اتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلاء ودمروا بلادهم تدميراً . ولم يزل الفرنساويون ينسبون الى العرب تخريب كل خرابة يشاهدونها في الاراضي الجنوبية من فرنسا

ويظهر من تواريخ الافرنج ان العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها الى ايلات وجعلوا الارض التي على جابي البرينه في فرنسا واسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سبردانية وهي اليوم عبارة عن قطلونيا في اسبانيا وعن ولاية البيرينه الشرقية في فرنسا . وكان الوالي عليها قائداً من البربر مثل طارق بن زياد يسميه الافرنج مونيزا . فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فاصبح في جبال البيرينه حاجزاً امام غزاة المسلمين فاعتادوا من هذا الاتفاق واطهروا ميلهم ابد الرحمن الذي كان قد استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة . وكان عبد الرحمن من اصحاب عبدالله بن عمر متخلفاً باخلاق الخلفاء الراشدين واكابر الصحابة والتابعين مخرباً على اعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع اقطار الارض . فكان يجتهد في تحقيق امال موسى بن نصير والاسنيلاء على اوروبا والوصول منها الى القسطنطينية . فعينه الخليفة هشام والياً على الاندلس سنة ١١٢ هـ أو سنة ٧٣٠ م فدخل بالعسكر مدينة بوبسردا وهي عاصمة ولاية

سبردانية وقتل القائد المتفق مع أود وبعث بزوجه وهي بنت الدوق الى دمشق .
وقيل بل انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزيماً وحياً . وكانت مدينتا نيم ومون
يليه تابعتين للمسلمين فتقدم عبد الرحمن بالعسكر الى ضفاف الرون وعبر الى مشاطته
الايسر والقي الحصار على مدينة آرل فانجدها الفرنسيون بانهزة من العسكر وحملت
نار الحرب وكثر فيها القتلى حتى امتلأ النهر بجسادهم . ثم سار على ضفاف نهر
الرون صاعداً في الشمال والقي الحصر على مدينة افون وافتتحها . وهذه المدينة هي
التي صارت في القرن الرابع عشر الميلاد مركزاً للبابوية بدلاً من رومة واستمرت
تابعة للباباوات الى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة ١٧٩١ م .

وكانت فرنسا اذ ذاك في حكم الملوك الذين هم اواخر سلالة ميروفينجيان
ويلقبون لبطالهم وعطالهم (فبنيان) أي الذين لا يعملون شيئاً بل كانوا يملكون
بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عز ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون . وكانوا يقيمون
في قصر بجوار مدينة قوميينية في شمال باريس وفيها حصنات ملاقات قبصر الروس
في زيارته الاخيرة لفرنسا . فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك الا
مرتين في السنة مرة في شهر مارس واخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من
اعيان الافرنج أو لملاقة السفراء . فاذا انعقد المجلس اركب الملك في كاره يجرها
سنة رؤوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وانما للراية وعدم
الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتى به الى المجلس ليصدق على المقررات التي
يتخذها ناظر السراي أو امير الامراء وهو في ذلك التاريخ دوق اوستراليا المسمى
شارل مارتيل . وكانت بقية الامراء أشبه بالمستقلين في اماراتهم يعضون بعضهم بعضاً
وكلهم متفرقة . ولو دخل عليهم موسى بن نصير سنة ٩٢ هـ حينما افتتح اسبانيا
لامتلك اوروبا باجمعها ولا دخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الاسلامي
غير ان الافرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية وكانوا يترقبون
ورودهم من شرق اوروبا فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينه أخذهم الرعب
فانضموا باجمعهم الى امير الامراء شارل مارتيل وكان اشدهم بأساً واداهم سياسة
وأحسنهم رأياً وعقلاً . فلم يدر عبد الرحمن بان الوقت فات على فتح بلاد الافرنج

وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وأفريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ووربهم من رونسيفو وهو مرضيق في جبال البيرينه تمر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه . فنه مر سنيدال القائد القرطنجي رمنه مرت جيوش شارلمان حينما قاتل العرب . ومنه مرت جيوش نابليون حينما فتح اسبانيا ومنه مر فيكتور هوكو في ذهابه لاسبانيا واياه منها . فمر رونسيفو واقع بين مدينتي بابلونه في اسبانيا وبلبون في فرنسا وهي التي سماها العرب « بيون » ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلو متراً الى متهى الحدود الفرنسية ثم يسير على الخيل والمجل ١٥ كيلو متراً أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو . فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لارض غسكونيا التي سموها غسكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه والاحراج واقسم الساحلي منها أشبه بتهامة من جزيرة العرب ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الافرنج . غير ان الوديان التي تسيل في تهامة العرب بتلاعها الرمال المحرقة وأما المياه التي تسيل في رمال تهامة الافرنج التي تدعى لاند فتروي ارضها وتكثر عشبها وأشجارها

فظل عبد الرحمن سائراً في هذه الاراضي المخصبة آمناً على عسكره ودوابه من العطش معق بلغ نهر غارون المار بطولوز ووردو وعرضه ربما يقرب في بعض الاماكن من عرض النيل . وطول الجسر الذي عليه في مدينة بورردو ٤٨٧ متراً فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحو مائة متر . فلقى عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسكر من قبائل الواسكون وبقية أهالي اkitania وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنهم في قلعة بورردو . فلاحقهم عبد الرحمن وحصر المدينة وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره فكانوا يسمونها مدينة برغشت . واصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهرالرون في البحر الشامي داراً للاسلام تلقن فيه الشهادة ويعلم القرآن . وهذا القسم العظيم من اوروبا قد اصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنسيون . ويسمونها أيضاً قناة لانغيدوق باسم الالة القديمة

والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر بيوردو ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكز مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي . وهم يتحدثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قال السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول اسبانيا

فانتشر خبر فتح يوردو في بلاد الافرنج ودخل العرب في قلوب الناس وفرح اكثرهم بفشل الدوق اود لمظالمه - لان المظلومين من الاهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم انواع العذاب لمنافعهم وأغراضهم . ولذا كان الكثير منهم يهزون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم واجراء العدالة الاسلامية فيما بينهم . أما الدوق اود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه واستجار برقية شارل مارتل وطلب نصرته رغم بغضه اياه لان الدوق اود وان لم يرق الى رتبة ملك الا انه كان مستبدًا في اkitانيا كالملك يفعل ما يشاء ويختار وهو ذو اصاله ويتنسب الى قلوبيس مؤسس سلالة ميروفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الافرنج وعموم فرنسا . فاصاته كانت فائقة على اصاله شارل مارتل لان شارل لم يولد من زوجة شرعية وانما زنى بامه بين دوق اوستراسيا فولدته وكبر حتى خلف والده في مسنده وتقلب على ملوك اوستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلوبيس حفيد ميروفه وكان في الظاهر امير الامراء وناظر السراي الملوكية وفي الباطن صاحب الامر والنهي في عموم فرنسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة اkitانيا . فلما استجار الدوق اود بشارل اجابه : دعمهم الان فانهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء الا ابادوه وفيهم حمية تغنيهم عن التدرع بالبروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصن في داخل القلاع ولا يزلون على ذلك الى ان تمتلى ايديهم باموال الغنائم فاذا تنعموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائذ الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرقوا فحينئذ نهажهم ونخرجهم من ديارنا . وكان الامر كما قال . فان عبد الرحمن بعد فتحه يوردو رأى الاهالي مائلة اليه ووعدوه بالتسليم والاقيا دوشوقه بعض رؤسائهم

الى فتح تور وبوانيه لما فيهما من الاموال والخيرات . لان البلاد لم تكن في ذاك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم . وانما الاموال والخيرات كانت م ذخرة في الكنائس والاديرة وقصور الحكام اخبارة . فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطى به بخله ورجله تلك الاراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها أحسن خمر في الدنيا . وعبر نهر دوردونيا وهو يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيروند كما يجتمع الفرات ودجلة ويقال لاجتماعها شط العرب . ويصب لا جيروند في المحيط الغربي عند مدينة رايان الشهيرة بمحاطتها البحرية والتي ينسب اليها سمك رايان المشابه للسردين . وتسمى ضفة لا جيروند اليسرى من بوردو الى البحر ارض ميدوق وفيها شاتو لافيت وشاتو لاتور وشاتو مارغو وجميع كروم العنب والقصور التي يعصر فيها أطيب الخمر وتلى اسمائها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في اوتيلات الازبكية وتفتح على موائد اعظم الرجال . وعلى شاطئ نهر غارون قبل دخوله بوردو ارض سوتين وفيها شاتو ابكييم وبقية القصور التي تعصر فيها الخمر البيضاء التي تشرب في اوائل الطعام عند اكل لحوم السمك

ولما وصل عبد الرحمن مدينة انكوليم وجد جيشاً من الافرنج ففرق جمعهم ودخل المدينة منصوراً ظافراً . وفي غربيها مدينة كونياك المنسوب اليها خمر الكونياك المعروف . وظل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه . وكانت كجنات تجري من تحتها الانهار بالنسبة لصحاري افريقية والجزيرة العرب . والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم واولادهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحت لهم ابوابها . وبزعم مؤرخو الافرنج ان العرب سلبوا ما في كنيساتها من اواني الذهب والفضة والاقمشة المزركشة . والمنصفون من هؤلاء المؤرخين يعترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمفلولين . ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بايلة فينا وهي التي مركزها بواتيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الاتراك واقاموا عساكرهم المظفرة على ابوابها . وفي جنوب ايلة فينا ايلة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج . وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة تور وهي على نهر لوار المنصب في المحيط . والحق اكثر من نصف فرنسا بمالك

الدولة الاموية الحاكمة اذ ذاك على الهند وما وراء النهر الى كاشغر والصين وتركستان وكان الفاتح لها سنة ١١٩ هـ اسد بن عبد الله القسري فانه ادخل المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان وغنموا شيئاً كثيراً

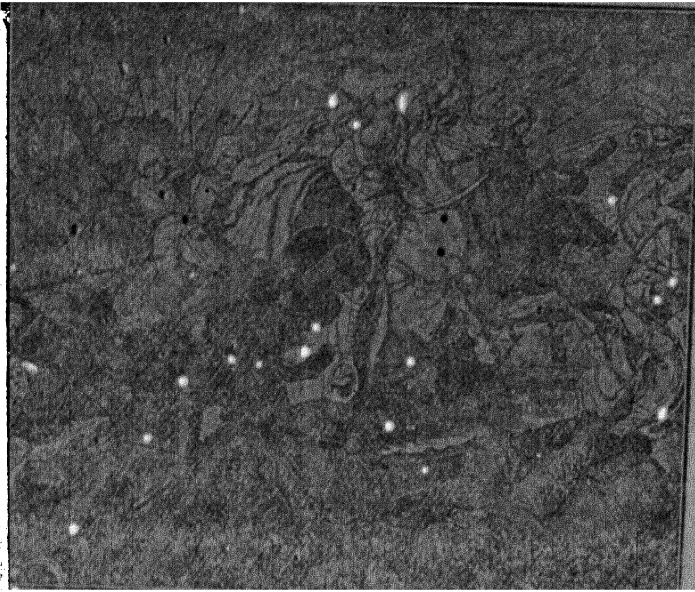
فتمت هي الحدود التي وصل اليها العرب في اوربا هي نهر لوار ومدينة توز . وفي شرقها مدينة ديجون ثم مدينة بزانسون . والخط الماز بهذه النقط يقسم فرانسا الى قسمين شمالي وجنوبي . فالجنوبي باجمعه دخل في ملك المسلمين . وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً واستسلموا كثيراً من اهلهم وتزوجوا ببناتهم وأتبعوا منهم ولم يزل لاهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سماء الوجوه

قال المؤرخ الانكليزي جيون في ذكر حوادث سنة ٧٤٢ م تقدم العرب في اوربا اكثر من ثلاثمائة مرحلة (ious) من صخرة جبل طارق الى مصب نهر لوار كلها مظفرات ولو تقدموا ثلاثمائة مرحلة اخرى لوصلوا حدرد بولونيا شرق اوربا او جبال ايقوس من انكاترا ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بالمانيا كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل وكان الاسطول العربي من جهة اخرى دخل نهر التيمس بلا محاربة بحرية — لعدم وجود اسطول انكليزي في ذاك الوقت يضاهي اسطول مصر وسوريا أو اسطول تونس — ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس او كسفورد ويفقهون افراد أمة الانكليز المحتئين ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كرامتي الوعظ معجزات النبي العربي . فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة ميروفينجيان . ه آه

وذلك ان شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس الا ٢٣٤ كيلومتراً حشد اليه العساكر الجواراة من القبائل الشمالية الالمانية وهم يمتازون عن سكان الايلات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الاعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطمن والضرب ولم يزالوا متصفين بهذه الاوصاف الى يومنا هذا . ولذا اختار مقام السر عسكرية العثمانية منهم المعلمين للمكاتب الحربية في الاستانة مثل غولج باشا وقبله مولثكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسية

وكان عند الرعي نزلًا بالمسكن امام مدينة تروفي الوادي الذي يجري فيه
نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة . فبغت شارل
مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال وانشب
القتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من الماهرة في حركات الجيش وسوق
الفرساق ما حير اخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع
الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيوشان في محل لم يزل يقال له الى
(موسه — لا — باتايل) ويراها المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي
على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لتهوكلين المنصب
في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب
والطمان وشلل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب
وأنزل للبيدات مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي
اليوم السابع هجمت عليها شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم
والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية
مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م
وسنة ١١٦٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيغو
بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون . لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم
شارل مارتيل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم مساكن
شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم
أحد شعراء الفرنسيين المسمى (كارل دوست غارد) في حدود سنة ١٦٨٤
ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانس وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب
شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بواله وجهه على يده بطلاً لم

يحق التاريخ وجرده بين أبطال تلك الحروب
التي شغلها في البلاد وسار الناس يتحدثون به في فرانس وإيطاليا و
لورين وبرون من شجاعة المسلمين بلققة . ويرعون ان يذكروا فأسه المسمى مارتو
أو مارتيل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على



شارل ماريتيل يحارب العرب في فرنسا

التحقيق لم يكن فيها تغفل كبير على عساكر الاسلام ولو بقي في شارل بعدها قوة
لاخرجهم من ناربون ورمى بهم الى ما وراء جبال البيرنيه وحصن منافذ الجبال
وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك . واستمر العرب في جنوب فرنسا حقة
من الزمان سيما في اطراف مرسيليه . ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيراً من
اثارهم وأوانيهم الخزفية . واليهم تنسب (جبال المور) وهي في شمال طولون
ومارسييا . كما نسبت اليهم قبطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل
هو الحصن أو القلعة . ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل . فقسطل
سارازين معناها حصن العرب وقيل غير ذلك والله أعلم

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الامويين قد عين على افريقية عبيدة
بن عبد الرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية وهي
جزيرة صقلية التابعة اليوم لاطاليا . غير ان ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب
مكانه عبيد الله بن الجعفي بن زعيم بالباني الفاخرة وأنشأ في ساحلها
دار صناعة لقسطن ابي (روضة) كما يسمى الآن أو (شانيه) كما يقول الافرنج
فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث والياً على جزيرة صقلية

وكان عبد الرحمن نزلًا بالمسكن امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه
نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كما قربتا من المدينة . فبغت شارل
مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال والشب
لقتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المارة في حركات الجيش وسوق
الفرساق ما حير إخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع
الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له الى
(موسه — لا — باتايل) ويراها المسافر من يوردو الى باريس في القطار الحديدي
على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب
في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب
والطمان وشلل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب
وأنزله للسيدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام والنصر فيها للمسلمين وفي
اليوم السابع هجمت عليها شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم
والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية
مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م
وسنة ١١٩٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو
بل عن طريق طولوز وقرقسون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم
شارل مارتيل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في
شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم
أحد شعراء الفرنسيين المسمى (كارل دوست غارد) في حدود سنة ١٦٨٤
ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانس وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب
شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكتب عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بيتاً لم
يقتض التاريخ وهو من أبطال تلك الحروب
عاشتم على البلاد وسلم الناس يتحدثون به في فرانس وإيطاليا وفرنسا
أوربا ويروون حتى شبابه المسلمين ملققة . ويزعمون ان بطلته أوقاسه المسمى مارتو
مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر امام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كما قربتا من المدينة . فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من اعالي التلال وانتشب القتال بين الفريقين . وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حير أخصامه واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيق والرجوع الى سهول بواتيه وفيها التقى الجمعان وأصطف الجيوشان في محل لم يزل يقال له الى (موسه — لا — باتايل) ويراه المسافر من بوردو الى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً اي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار . واستمر الفريقان بضعة ايام على أهبة الحرب والطمان وشلل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً . ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل الميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة ايام وانصر فيها المسلمين وفي اليوم السابع هجمت عليها كهر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت افكار المسلمين على أموالهم وعيالهم . وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الافرنج بعد مقاومة شديدة وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة ٧٣٢ م وسنة ١١٤ هـ ورجعت بقية السيوف من اهل الاسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقسون وزربون . لرسوخ قدمهم في تلك الجهات . ولحقهم شارل مارتيل وأسترجع مدينة أفينيون ولم يقدر على استرجاع زربون فهدم ما في شمال نهر اود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب . وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (كارل دوسنت غارد) في حدود سنة ١٦٨٤ ديواناً عنوانه اخراج العرب من فرانس وجعل فيه البطل المغوار في هذه الحروب شيلوبراند اخ شارل مارتيل فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين أبطال تلك الحروب

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدثون به في فرانس وإيطاليا وعموم أوروبا ويروون عن شجاعته احاديث ملفقة . ويزعمون ان بطلته أوفاسه المسمى مارتو أو مارتيل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة الف من العرب . غير ان واقعة بواتيه على

عبد الملك بن قطن فاصلح حبل الجيش وزوده وساقه على فرانس سنة ١١٧ هـ سنة ٧٣٥ م فاسترد الايلات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف أود وعبروا نهر الرين وضبطوا إيالة بروفانس باجمعها سنة ١٢٠ هـ أو سنة ٧٣٧ م من حاكمها موروث ومركزه اكس في شمال مرسيليا . وظلوا ساثر بن على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا ايطاليا وأغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان . فاتفق ملكها لوي برفان مع المتغلب على ملك الافرنج وهو شارل مارثيل دوق أوستراسيا وناظر السراي الملوكية وأوجعا العرب الى قرب جبال البيرينة سنة ١٢٢ هـ أو سنة ٧٣٩ م ولم يقدر على اخراجهم من نربون ولا من قرقسون ثم ان عبيد الله بن الحجاب والي افريقية عين عقبة بن الحجاج على الاندلس فحصر اليها وأستلم زمام الامر فيها فخصت فتنة وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري فذهب عقبة بن الحجاج الى قرقسون في فرانس وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك الى ان مات ودفن في تربة قرقسون . فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كلثوم بن عياض والياً على افريقية وبعث معه اثني عشر الف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر . فقتل كلثوم في المغرب الأقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بمسكره جزيرة الاندلس وقاتل عبد الملك بن قطن وتولى مكانه فبعث هشام لافريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيروان سنة ١٢٤ هـ أو سنة ٧٤١ م وأصلح ما فسد في قبائل افريقية والغرب الأقصى وبعث أباً الخطار الكلبي والياً على الاندلس فورد اليها ونزل قرطبة وفرق عساكر الاسلام في البلاد فانزل الدمشقيين في البيرة (الويرة) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة وتكثر فيها المياه والغوط والرياض . ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) المنصب في نهر شنيل وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفثر) المار بأشبيلية . ولذا دعاه العرب نهر أشبيلية . وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها . وأما خط الحديد بينها فمساقه ٦٩٦ كيلو متراً ولذا اطلق على البيرة وغرناطة دمشق . وانزل المحصبين في اشبيلية (سفيلة) ويمر منها الوادي الكبير

وفيها القصر المشهور عند الافرنج باسم (القازار) وكان داراً بملك بني عباد . ولذا أطلق على اشبيلية حمص . وانزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الأبيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فاطلق على تلك النواحي قنسرين . وانزل أهل الاردن في ماله (مالاغه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) واليها ينسب الحمر المعروف باسم (مالاغه) . وانزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة شريش (اكسبرس) وما جاورها وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة ٢٢ كيلو متراً عن البحر المحيط واليها نسب كثير من الادباء فقليل لهم الشريشي ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر . وينسب اليها اليوم الحمر المشهور باسم (شري) و (اكسبرس) . وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط وشدت عساكره واخذ ملكه

وانزل ابو الخطار البكبي المصريين في تدمير وهي الايالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد عن ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور ٣٥ كيلو متراً بجانبها سهول هو ثرتها المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الانبات ولذا أطلق عليها مصر . ولم يزل فيه بقايا الترع العربية والتقنوات . وبينما كان المسلمون في الافدلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الافرنج ونشر الدين الاسلامي فيها ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الاسلامية دار خلافتها واختات امور الدولة بعد وفاة هشام وجلس الوليد (٨٤ - ١٢٦ هـ) بن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني امية . وجلس بعده في تلك السنة يزيد (٨٠ - ١٢٦ هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم اخوه ابراهيم . ثم رابع عشر خلفاء بني امية وآخرهم وهو مروان الحمار (٧٠ - ١٣٢ هـ) بن محمد بن مروان بن الحكم

يسمى الافرنج عرب اسبانيامور (Majors) نسبة الى موزيتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش ويسمونهم ايضاً (Sarrasins) سارازين واختلفوا في اصل هذه الكلمة فقال بعضهم من سارقين العربية وآخرون بل نسبة الى سارا زوجة ابراهيم الخليل عليه السلام لانهم اولاد جارتها هاجر ام اسماعيل جد العرب وقال غيرهم انها تحريف شرقين

ولم ينتظم الامر ولا لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في ايامهم ولذا لم تقدم الفتوحات في بلاد الافرنج

١٢ - داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستبقت، بسبب هذه الحروب من غفلتها واجتمعت كلمتها على شارل مارتل ناظر سراي الملوك من آل قلوبيس حفيد ميروفه فاستبد بالامر وصار الامر الناهي في المملكة وزال نفوذ الملوك من سلالة ميروفينجيات واصبحوا كالحلفاء العباسيين في آخر امرهم . ولم يستطع شلول مارتل ان يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعمديه على املاك الاديرة والرايين ولكنه هيا الملك لولده ولخليفه من بعده . واما هو فلم يرض بعمله المسلمين ولا النصراري لانه ضل أوقاف الاديرة والكنائس ليجز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فاغضب بذلك الاساقفة والرايين المتمتعين بهذه الاموال فلم يغفروا له هذه السيئة واغضوا العين عن جميع حسناته عليهم . وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وأدخلوه في نار جهنم . وراه احد اوليائهم بعين الكشف وهو يعذب في النار والافاعي تنهش من جسده المنة . فشارل مارتل واضع اساس الدولة الثانية في ملك الافرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصراري

ولما مات قام بالامر بعده ابنه بين القيصر وحارب قبائل الجرمان في المانيا وقبائل اللومبارد في ايطاليا وكاتوا معاديتهم للباباوات في رومة فاكسب بذلك نفوذاً وقوة واتخبته قبائل الافرنج ملكاً عليها . وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتويجه

نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب بلاد العرب (Arabie) الفرنساوي تأليف نوييل ديفرجه (Noël desvergers) المطبوع في باريس سنة ١٨٤٧ ونقل هو عن المستشرق (Renaud) مؤلف كتاب هجوم العرب على فرنسا المطبوع سنة ١٨٣٦ في باريس واعتمد في ماكتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الاهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملكية ولا سيما على تاريخ المقرئ وعلى تاريخ التوري وغيرهما

فدنه وتوجه القديس بونيفاس أسقف ماينس سنة ٧٥٢ م واقترضت دولة ميروفنجيان بعد ان ملكت (٤٤٨ - ٧٥٢ م) ثلاثة قرون . وسميت الدولة الثانية قارلوفنجيان نسبة الى شارلمان بن بين القيصر وحفيد شارل مارتل وملك الدولة الثانية (٧٥٢ - ٨٨٧) قرنين ونصف قرن تقريباً . وفي سنة ٧٦٠ م أو سنة ١٤٣ هـ اغار بين القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع ايلة سبانيا . فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب سقوط الدولة الاموية وقيام الدولة العباسية مقامها . قتلوا بني اميه واستخفي من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم ودخل الاندلس سنة ١٣٩ هـ أو ٢٥ ايلول (سبتمبر) سنة ٧٥٩ م فاطاعه بعض المسلمين . واستولى على اشبيلية وجعل قرطبة دار المملكة واخضع لحكمه جميع جزيرة الاندلس ونكل بالمشيعين منهم للخلفاء العباسيين — فليفهم التسبب الذي مكن الافرنج من استرجاع نربون وقرقسون

ولما مات بين سنة ٧٦٨ م أو سنة ١٥١ هـ جلس مكانه على كرسي ملك الافرنج ابنه شارلمان (سنة ٧٤٢ - ٨١٤ م) ومعناه شارل الكبير فنسبت اليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج وقيل لها (قارلوفنجيان) أي آل قارلو لان اسم شارل يلفظ بصور مختلفة حسب اللغات واللهجات . فالالمان يلفظونه قارل وعند الاسبانيول قارلوس وعند الانكليز چارلس بالجييم الفارسية . ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من ايطاليا ركاز بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه ثم فتح بافاريه وساقسونيا وهما من ممالك المانيا . واخضع ايلة ايكيتانيا التي كانت ميداناً ترمح فيه غزاة المتسلمين . فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا ومانيا واطاليا ومزج الاقوام الجرمانية بالاقوام الرومانية الذين كانوا في حكم دولة الرومان

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع اخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذاك الزمان وهي تقسيم الملك بين الاولاد . ففي سنة ٧٧١ م استقل بالملك وجعل عاصمته اكس لاشابل وهي على نهر الرين في المانيا وزينها بالمباني والقصور ولذا يعتبره

الالمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنسيون . وفي سنة ٧٧٨ م وسنة ١٦٢ هـ تجاوز شارلمان بمساركة جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مر منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور ومر منه قلاً هنيئال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين وهو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط . ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزون على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و (نربون) فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا وتقدم على ضفاف ايبير حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية اربلغون والقي الحصار عليها وكانت بيد المسلمين . فبعث اليه عبد الرحمن الاول سنة ١١٣ - ١٧١ هـ (٧٣١ - ٧٨٧ م) الملقب بالعدل . بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من اسبانيا واجهها الى ما وراء البيرينه . وكان المسيحيون من النصارى والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين جبا في العدل الاسلامي وكرهاً في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع انهم على غير دينهم واتقوا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به

• والدين انصائك الاقوام كلهم وأني دين لا أبي الحق ان وجبا
• والمرء يمييه قود النفس مصحبة للخير وهو يقود العسكر الاجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتحم أهل نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصة وانقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفو وبادوهم عن آخرهم . وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة الى ايلالة بريطانيا في غرب فرنسا ورفيقه اوليفيه ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها . وهي عند الفرنسيين قصة عنتر لا بل كقصة بني هلال أو الزبير . واسترد عبد الرحمن العدل وهو المعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية واسترد ابنه هشام (١٤٠ - ١٨٠ هـ) مدينة جيرونة ونربون وجميع ايلالة سبتانيا سنة ٧٩٢ م (سنة ١٧٦ هـ) واستخدم الاسرى في بناء جامع قرطبة وكان أبوه قد باشر عمارته فنصب شارلمان ابنه لويس ملكاً على ايكثانيا وأمره بمحاربة العرب . فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة ١٨٠ هـ (٧٩٦ م) وهي السنة التي توفي

بها هشام وجلس فيها ابنه الحكم خلفاً له وخرج عليه عمه سليمان وعبدالله ابنا عبد الرحمن وتجاروا مدة وكان النصر للحكم على عمه . ودامت الحروب مع الافرنج الى سنة ١٩٧ هـ (٨١٢ م) واخذ الافرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءاً من قطلونيا رهو المشتل على مدينة برشلونه التي على ساحل البحر الشامي . فشارلمان لم يتمكن من اسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً في عموم اوروبا الغربية وكان البابا وعموم الكهنة يميلون اليه ويرغبون في اعانة نفوذ امبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الامبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العز الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس واللبسه تاج الامبراطورية في آخر القرن الثامن أي سنة ٨٠٠ م (سنة ١٨٤ هـ)

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد بلغت متنها العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد فاخذ شارلمان يتقرب منه وبعث اليه بسفارة مؤلفة من مغيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق وكان الخليفة يجارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل الى الافرنج اعداء الامويين فاحسن ضيافة الوفد الفرنجي واكرم مثواه وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس وبعث الى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض احجاره محفوظة في المكتبة الاهلية بباريس وهي من العاج دقيقة الصنعة والقطعة منها كبيرة الحجم . وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة أي في سنة ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) ونوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين اي سنة ٨١٤ م وجلس في مكانه ابنه لويس الى سنة ٨٤٠ م ثم انقسمت المملكة الى ثلاثة اقسام المانيا وفرنسا واطاليا وضمف حال ملوك فرنسا وجمع عليهم الاقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونروج والدانمارك وأسسوا في شمال فرنسا دوقية نورماندية وانقسمت المملكة الى دوقيات وكونتيات وكان حكامها أشد نفوذاً من الملك . وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الافرنج الى ما صارت اليه السلالة الاولى فاستبد بالامر دوق فرنسا كما استبد قبله دوق اوستراسيا . وفمل هوغو قابت ما فعله ابن شارل هارنل

وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الأفرنج وهي سلالة قابتيان . وملك هذه السلالة من سنة ٩٨٧ م الى سنة ١٤٢٨ م وفي زمنها ظهرت فرانساً للوجود وسميت مملكة فرانساً نسبة الى هوج قابت دوق فرنسا . انتقل الملك بعد ذلك الى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم الى فرع ثالث وهو آل بوربون

١٣ - فتوح المسلمين في جنوب اوربا والحروب الصليبية

ثم أن المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا ولعلمهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الاقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها اذ ذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينه وهي

التي تقطع جبال لبنان التي يقول المتنبي

وجبال لبنان وكيف بقطعها وهي الشتاء وصيفها شتاء

ومالوا الى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقة ومينورقة وأنفس وما يتبعها سنة ٨٢٩ م (سنة ٢٠٥ هـ) وكانوا يسمونها (مابرقة) و (منركة) ويابسة . واستمروا فيها الى سنة ١٢٣٢ م واستولوا سنة ٢٢٦ هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم الى سنة ٢٣٦ هـ (٨٥٠ م) واغاروا على سواحل مرسيليا مراراً وأنسوا سنة ٢٧٦ هـ (٨٨٩ م) مستعمرة فراقسينه فيما بين وينيس وطولون . وكان الفينيقيون اصسوا قباهم مستعمرة في جوار موناكو . ومكث المسلمون في فراقسينه طول القرن العاشر وتزوج بعضهم بنساء تلك الايالة الفرنسية واشتولوا بفلاحة ارضها حتى أصبحت زاوية بمحضارتهم . ثم جالوا سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) في اقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبا المجر قبل ذلك ومدوا نفوذهم سنة ٣٣٩ هـ (٩٤٢ م) على فريجيوى وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في نرانساً . ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور) ومدوا نفوذهم على ايطاليا أيضاً . فان بني الاغلب استولوا على جزر سيسليا (صقلية) ومالطة وسردانية وجميع القسم الجنوبي من ايطاليا في حدود سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) الى سنة ٢٦٥ هـ (٨٧٨ م) ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد واستبحر فيها عمراتهم وحسنت بهم الزراعة والصناعة . وكانت

مدينة امالني ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي (وكتبوها نابلي)
 زاهيتين بمحضارتهم وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يشاهد فيهما اثار العرب وبقايا
 الطواحين التي عمروها ولسان الحال نول : ان اثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا
 الى الآثار . واستولوا على اوسنجه وكانت مينارومة العظمى وهي بقرب مصب نهر
 التير وعنى بيزا ذات البرج المائل وكانوا يسمونها (ييش) وعلى جنوه التي في
 شالها وبقي المسلمون في جزيرة (سردانيه) سردينيه الى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م)
 وفي طارانت التي في جنوب ايطاليا الى سنة ٣٩٦ هـ (١٠٠٥ م) وفي جين
 (جنوه) الى سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) (انظر خريطة مملكة العرب في اطلس
 شرادر الفرنساوي المطبوع في باريس)

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي اغار فيه العرب على ليون وما في شالها
 من الالات الفرنسية — لا ليون التي في شمال اسبانيا الغربي وتكتب (Léon)
 ويكثر ذكرها في تواريخ العرب — هل كان في عهد شارل مارتل فقط أم في
 عهده وبعد ذلك ايضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدموا في الشمال حتى
 بلغوا بلاد السويس . ولكن المؤرخين متفقين على ان المسلمين اضطروا ايلة دوفينه
 وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شالها ايلة بورغونية
 وسموها (ارض بورغونية) وايلة فرانك كوتة وايا التي ننا — وفيها هذه ايلة في
 وسط فرنسا الغربي بخلاف سميها عاصمة اوستريا والمجر وكان حاصرها الارك
 — وضبطوا في فرانساً جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والدرن التي في تلك
 الالات . وأمها هذه المدن هي : ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في
 فرانساً بعد باريس ثم ماقون واليه ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونية ،
 وشالون التي على نهر السون ، وبون وسمها العرب (بونة) واوتون واحترقت
 فيها كنيسة عظيمة حينما هاجمها العرب كنيسة سان ناظير وكنيسة سان جان
 وكذا دير سان مارتن ، وديجون وهي متهى ما اخذوه في الشمال من المدن العظيمة
 وفي شرقي ديجون وبالقرب منها مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوغو
 وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدية من باريس — ليون — البحر

المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من المواني البحرية . ولم يجد العرب اموالاً كثيرة في غزواتهم لان اللاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم ولكن مقصدهم الاصلي كان اعلاء كلمة التوحيد ودعوة الامم بقولهم « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نُشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله . »

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الاسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية . الا ان المؤرخين اصطلمحوا على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الامم الاوربية وبين المسلمين من الامم الشرقية وامتدت من القرن الحادي عشر الى القرن الثالث عشر للميلاد وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخلص قبر السيد المسيح عليه السلام . واتخذ المحاربون من الامم للاوروية الصليب شعاراً لهم وتقسوه على انوابهم وجلودهم ولذا قيل لهم الصليبيون . وعدة الحروب الصليبية ثمانية وهي :

الاولى (١٠٩٦ - ١٠٩٩ م) - الحرب التي دعا اليها بطرس الناسك وقرر اجراها البابا اوربين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة ١٠٩٥ م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا . وكانت النتيجة ارسال جيشين للشرق احدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوته وكان مؤلفاً من ناس لاخبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر فمات اكثرهم في الطريق وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الاناطول . والثاني جيش متأهب للسفر ومتمسح للحرب تحت قيادة غودفروا . وبوليون دوق ايلالة اللورين . عبروا بوغاز الدردنيل واستولوا في بر الاناطول على ازنيق وطرسوس وهي مينا اطنة وعلى انطاكية وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية . ثم استولوا على القدس وكانت تابعة لخليفة مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً والبسوا غودفروا تاج

الملك . وذهب المستنفرون الى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء . وقال المظفر
الايوردي اياتاً منها :

✓ وكيف تنام العين ملّ جفونها ، على هفوات ايقظت كل نائم .
واخوانكم بالشام يضحى مقلهم ظهور المذاكي لوطون القشاعم .

الثانية (١٤٧-١١٤٩) الحرب التي دعا اليها القديس برنار وقادها لوزراد
الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها
ورجعوا عنها

الثالثة (١١٨٩-١١٩٣) الحرب التي دعا اليها غليوم أسقف صور بسبب
استرداد صلاح الدين الايوبي للقدس . وقادها فريدريك باربايوس امبراطور
المانيا من جهة وفيليب اوغست ملك فرنسا ورينشارق الاسد ملك انكلترة من
جهة اخرى . فالاول غرق في النهر بعد اخذه قونية . والاخران اخذا قلعة عكا
وعقدا الصلح مع صلاح الدين

الرابعة (١٢٠٢-١٢٠٤ م) الحرب التي دعا اليها فولك وقادها بودوين
وهو بودوين التاسع كونت ايلالة فلاندر وكانت ايلالة مستقنة بين فرنسا وبلجيكا .
فلما وصلت هذه البعثة الى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية
لنصرته على اخيه وكان قد اراد التغلب عليه فاجابته . دعوته وأيدهته على كرسي
مملكته . وبعثه وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد ان اخرجوا المدينة
وألقوا ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظرفية واستمرت دولة الاتنين في
القسطنطينية ٥٧ سنة (١٢٠٤-١٢٦١)

الخامسة (١٢١٧-١٢٢١) الحرب التي اشهرها جان دوبرين ملك
القدس واندرو الثاني ملك هونفارية وذهبوا فيها الى مصر وعادوا منها خائبين

السادسة (١٢٢٨-١٢٢٩ م) . الحرب التي قادها فريدريك الثاني
امبراطور المانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبرين . فمقد مع الملك
الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس

السابعة (١٢٤٨-١٢٥٤ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا

ايماء بنذر نذره . فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الايوبية في محاربة المنصورة واسره فاخذ دُمياط وسلمها للمسلمين فكافأ لاسره

الثامنة (١٢٧٠ م) الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقدس لويس ومات فيها امام اسوار تونس الخضراء . فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطين وسوريا من الافرنج واحدة بعد الاخرى . وكان آخرهن فتح عكا سنة ١٢٩١ م وانتهت بذلك الحروب الصليبية

وكان لهذه الحروب نتيجةان احدهما مادة عسكرية والاخرى معنوية أدبية فالنتيجة المادية رجوع الافرنج عن الغنينة بعد الكد بالقتل ونخلتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق . والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كانوا فيها بمخالطتهم للمسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي « الانتظام » و« الترقى » ويسميهما الافرنج (اوردر وبروغره) . قال رينان « حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على ابواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين الاولى انحطاط العالم الاسلامي والاخرى نهوض العالم المسيحي لان العلوم الاسلامية لما تمكنت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوروبية انطلقت جراثيم حياتها . واخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علوا وهبوطاً ، سارت مشرقة ، سار مغرباً . شتان بين مشرق ومغرب

١٤ . ما اقتبسه الافرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعارضة في هذه الرسالة ان الاختلاط بين العرب والافرنج لم يتقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب ارض فرنسا وتوطنوا في جنوبها وبعروا ارضها وتزوجوا بناتها وتاجروا مع اهلها وعمرؤا مدن نربون (نربونه) وقرقسون (قرقسونه) وفراقسينه واخذوا الاسرى من الافرنج وشغلهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على الف وثلاثة وتسعين عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهاء والحراء والقنطرة . فكانت الافكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي قبض . وحيث كان

المسلمون في ذلك العصر ارقى حضارة وادباً من جيرانهم المسيحيين كانت الافرنج تقبس من معارف المسلمين وتحصل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيافستر الثاني . واسمه الذي سماه : ابو جبر (٩٣٠ - ١٠٠٤ م) قاله بعد ان حصل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أوريان التي ولد فيها وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي ارتحل في طاب العلم الى الاندلس فقطع عقاب البرينه والوادي الكبير المار بجوار تطبة ومن اشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة اشبيلية ثلاث سنين وعاد لاوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحراً واتخذوه الملوك مؤدباً لاولادهم وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة الباباوية . وقيل انه اول من ادخل لبلاد الافرنج ما يسمونه الارقام العربية ونسبته الارقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد ويميزاتها على عدد آخر . وكانوا لذلك المهدي يستعملون الاحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الابجدية

واقننى طلاب العلم اثر هذا البابا الحكيم وكذا المتعلمون منهم للشعر والادب كانوا يقلدون شعراء العرب وادباءهم . وكان المجاورون تتعرب من اهالي فرنسا وشمال اسبانيا يحبدون عن تعلم اشعار اللاتين ويكون على تعلم اشعار العرب وأزجالهم . وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر لليلة ينشدون الاناشيد والمدائح العربية وهم يستمعون على الابواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وإنما شوقاً منهم وحناناً للالخان والانعام والقوافي الرنانة كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انتراض الحكومة الاسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة

وذكرنا فيما تقدم ان لغة « رومان » وهي لاتينية سوقية محرفة بكلام الغولوا والفرنك اقسمت الى شميتين (١) لسان اوقى تكلم به أهل الجنوب لاسيما سكان بروفانس (٢) لسان اويل تكلم به أهل الشمال لاسيما سكان جزيرة فرنسا وهي الالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير) وفي الجنوب

شعراء يقال لهم (تروبادور) . فالتروبادور الذين كانوا في ايلة بروفانس هم صنف من المداحين بطوفون من قصر لقصر ومن قلعة لاخرى يغنون قصائدهم ويمدحون الامراء وذوي الوجاهة ويسمون ادهم بالدم المطرب . ولم تكن اشعارهم ذات قواف كاشعار العرب وانما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالاشعار التي يغنى بها رعاة الغنم . وكان لهم فن من الشعر يسمونه تـنـسـونـت (Tenson) على شكل المحاطبات يشابه ما اوجده الابداسيون من الفنون الشعرية . واجمع العارفون على ان القوافي اول ما ظهرت في الشعر البروفانسيال وانها مأخوذة من العرب . فالقافية عند الفرنسيين هي اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة وما يتبعها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sage, Page) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي . وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (اسونانس) وهو اتحاد الاحرف الصوتية الاخيرة بقطع النظر عما بعدها من الاحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sage) وآرم (arme) وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر واخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والفرز والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك . كما اخذوا عنهم في المشور القصص والملح وضروب الامثال ومنها ما نقلوه نثرًا ثم نظموه في لغتهم : وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فآلفوا حكايات وتظريفات على اقة القرى وخدمة الكهناس لبضحكوا منهم الامراء والفرسان الذين يسمونهم « شيفاليه » . وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما اصله الاول من حكايات الفرس والهنود وترجمت الى العربية ثم نقلت للافرنجية . فلو كان الحكم والغلبة لاهل الجنوب المجاورين للعرب وللفنهم المسماة « أوق » لوجدنا في اللغة الافرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الادب العربية . ولكن الحكم والغلبة كانتا لاهل الشمال وللفنهم المسماة « اويل » ولكن شعراؤهم التروفيير لا يعرفون غير اشعار الحاسة وقصائدهم قصيرة والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وانما له (اسونانس) كما في اغاني رولان الاكبي ذكرها واستمروا على هذا النظم الى آخر القرن الثاني عشر . وفي القرن الثالث عشر أخذ

شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التوبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقة الغزل واللعن الموسيقي وصار فرسان الافرنج يقلدون فرسان العرب في اتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لمب الشطرنج . فتحسن الشعر الافرنجي . دتال القوافي العربية فيه واقتباس أدب الانداسين، ورقة غزلهم

١٥ - اقتباس الافرنج اقاميصهم عن العرب

والحاصل ان الرومانيين لما فتحوا ارض الفول ادخلوا اليها مدينتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة فلما استولى قبائل الافرنج على ارض الفول اخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قبل لها « رومان » . واقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبوع وهو صورة القسم الذي اقسم به المسكر لاحفاد شارلان حينما عقدوا معاهدة فيردون وقسموا مملكته شارلمان الى ثلاثة اقسام فرانسا وجرمانيا وايطاليا وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة ٨٤٣ م او سنة ٨٢٩ م أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة . فهذه اول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية . ثم اتقسمت لغة رومان الى لسان اويل والى لسان اوق . واتقسم لسان اويل وهو لسان الشمال الى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرانس - وهي الجزيرة المحاطة بالانهار المشتملة على باريس وما في جوارها - فصارت اللغة الفرنسية . ثم عم استعمال هذه اللغة في الأيالات الجنوبية وغلبت على لسان اوق سنة ٩٨٧ م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الافرنج وهي الدولة التي دامت الى حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية . وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرانس فاطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الادب سابقاً لاتساع دائرة النثر كان الكلام المنظوم أساساً للادب الفرنسي واقدم نظم فيه هو « اغاني رولان »

وتاريخ نظمها في النصف الأخير من القرن الحادي عشر ونظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على أنه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها . ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الاندلسيين . وذلك ان شارلمان لما فتح الفتوحات الغزبية وتوج بتاج الإمبراطورية واستحصل من الخليفة العباسي على الاذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الافاق وتحدث اناس به ونظموا فيه القصائد وقصوا عنه القصص والحكايات وانشدوا الاناشيد وفل الافرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد . غير ان فنون الادب الافرنجية لم تكن زاهرة كفنون الادب العربي بل كانت حديثة النشأة لم تهذب بعد وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون الى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والامراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى وانما كان يفهمها بعض الاساقفة والراهبين فنظمت (اغاني رولان) و (حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذلك العصر أي بعد شارلمان باكثر من قرن . وفي اغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنزة وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الافرنج وعرب الاندلس وجعلت رولان عنتر زمانه والحقته بنسب شارلمان وادعت بانه ابن اخيه وذراعه اليمنى . وذكر في هذه الاغاني ان سبب هزيمة رولان هو خيانه غانيون . وذلك ان رولان بعث بتابعه غانيون الى والي سرقسطة مركز ولاية اراغون بمهمة حرية وكان في ذهابه اليها خطر على حياته فاغتاظ هذا المأمور من أمره وانضم الى المسلمين ودبر في قتل رولان وانهرامه فلما رجع رولان ببقية الجنود الى قرنسا ووصل مضيق رونسيغو في جبال البيرينه هجم عليهم اهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عدتها اربماية الف فارس . وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه اوليفيه فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لتجديده فلم يصغ في بادىء الامر لمقاله . ولما اراد ان يعمل برأي اوليفيه الماقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الاوان وغلبهم العدو بكثرة عدده وامسوا مختبطين في ظلام النقم وقتل بعضهم بعضاً وضرب اوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطأ لا عمد فجرحته وسببت موته فصورت تلك الاغاني موت رولان ثم موت اوليفيه وطلب كل منهما السماح من الآخر ومباركة الاسقف

توربين عليها وغفران ذنوبها . واراد رولان قبل موته ان يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لتلايقع في ايدي اعدائه أو يصل الى مارسيل (Marcile) والي المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف لانه من السيوف التي لا تكسر ولا تفل ولعله من المعدن المسبوك منه مصصامة عنزة وذو الفقار علي رضي الله عنه وهو الذي قيل فيه لاسيف الا ذو الفقار . وقد تهور الافرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعرا القوة والشجاعة باجمعها في السيف حتى لم يبق منها شيء لصاحب السيف ولم يزل اثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً الى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية اريحا من فلسطين وهو التل الذي احده على زعمهم جيش ابي زيد الهلالي حينما مروا بقرية اريحا وارادوا الصعود الى جبل القدس فنفضوا غيالي الشعير في اسفل العقبة فتكروم من الغبار الذي نهبها هذا التل العظيم لانهم كانوا لا يحصون عدداً لكثرتهم . هذا ما تناقله الالسنه وبرويه الالباء عن الاجداد ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه اثراً من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الارض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيفو . ولرولان حصان كانه هو وابجر عنزة بن شداد فرسي رهاق . ولم يفت ناظم اغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفاؤهم حوله لقبض روحه . فصور في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لاولى الامر وهم (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبفض من لم يعتقدوا بما امر به وينتهوا عما نهى عنه بفضاً لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة . وهذه الاغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية المصرية . ومنها يظهر اعتقاد الافرنج اذ ذاك في الاسلام والمسلمين فانهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة الى عبادة الاصنام ويعدون من اصنامهم ابولون ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنسية يعتقدون هذا الاعتقاد الى يومنا هذا كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم . وكان لاغاني رولان شأن في عموم اوربا وفي انكلترة وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد لغة الالمانية ولغة السويد والنرويج

ومما نظم على نسق اغاني رولان حج شارلمان الى بيت المقدس وقصائد
وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية ربما يعتني في المستقبل بترجمتها ومطالعها
المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعتني الافرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية
وطبعها وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم
وفي اواخر القرن الثاني عشر واول القرن الثالث عشر اقبل شعراء الشمال ينسجون
على منوال شعراء الجنوب يقبسون منهم الحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي
العربية ووضعوا الاصلن الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة
لا حاجة لذكرها . ثم ظهرت الاشعار الهجوية والمزلية والملح والفكاهات مما هو على
نسق كلبلة ودمته وضروب امثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على السنة الحيوانات
فمن ذلك (رومان الثعلب) و (امثال ايزوب) و (رومان روز) وغير ذلك وقيل
للمنظوم من زمان (الاغاني) او (اغاني القصص)

١٦٠ — اقتباس الافرنج العلوم عن العرب

• لما اختلط ملوك اوربا وأمرأؤهم بملوك الشرق وامراء المسلمين في اثناء
الحروب الصليبية رأوا باعينهم اداء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم واطباءهم وحكاهم
سبما من كان منهم بمعية صلاح الدين الايوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب
وعماره النبي الشاعر والطبيب الحاذق الذي طهب ريشار قلب الاسد فقدروا
الادب حق قدرة واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم . فالف بعض الرهبان
السالكين طريقة القديس ديني (St. Denis) تاريخاً لدولة الافرنج . وكان ذلك
على عهد لويس التاسع الملقب بالقديس وهو المتوفى سنة ١٢٧٠ م في تونس اثناء
الحرب الصليبية الثامنة . فكان هذا التاريخ اول سجل لضبط وقائع ملوك الافرنج
وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من اخبارهم وحروبهم . وداموا على هذا
السجل الى ان ملك لويس الحادي عشر المتوفى سنة ١٤٨٣ . وأنشأوا في مدينة
مون بيليه مدرسة للطب وذلك في القرن الثالث عشر وهي اقدم مدرسة طبية في
اوربا بمد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي . وكانت الاندلس في متعى عزها

وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعربين . وفي سنة ١٣٢٣ م أنشأوا في مدينة طولوز جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المذبح (Collège du gai savoir) وجعلوا جوائز الشعر ازهاراً مصنوعة من الذهب والفضة تفرق على نواحي الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها . وفي اواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فأنست ثروتها وزادت رغبة الشعراء فيها وأقبلوا على انتحال فنون الادب وحسنوا المنطق وانكلام بالالمان الفرنسي . ولم تزل هذه الجمعية الادبية زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية أو (اكاديمية لعب الازهار) وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين . وسمي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين إشارة الى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه . ويحتفلون في اليوم الثالث من شهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والتقود على مستحقيها ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الاقحوان والياسمين والسوسن ومنها ما هو للشعر ومنها ما هو للنثر والخطب - ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوغو جائزة هذه الجمعية

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الافرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دون فيها فترجوا كتب ارسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية . ثم ظهر فن التشخيص وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلاب . فهذا اساس فن التشخيص ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة وأقبلوا على درس ادب اللغة اللاتينية وادب اللغة اليونانية وتبحروا فيها وانتقشت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان واتخذوا أشعارهم ورواياتهم منوالاً نسجوا عليه امثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع (١٦٣٨ - ١٧١٥ م) الملقب بالكبير وأسلحوا فنون الادب وهذبوها

وفتحت الماركيزة رامبويه دايها للادباء من سنة ١٦٣٥ الى سنة ١٦٦٥ م وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتهاممتدى اديباً يحضره الشعراء والادباء والظرفاء ويشامرون فيه وينشدون الاشعار ويقصون القصص والنوادر الادبية والعلمية . فكان اول ناد في باريس خدم انتشار الادب والمعارف وساعد على ترقى اللغة وعلى اجتماع الرجال بالنساء في جلسة ادبية محترمة ونفرب الادباء من الامراء وأرباب الوجاهة بعد ان كانوا مختصرين لا يحترفون بالادب الا لاستجداء المعروف وطالب الأُحسان . وصارت السيدات الفرنسيات يقلدن الماركيزة في الاقبال على تحصيل الادب والمعارف وفتح ابوابهن للشعراء والكتبة . وأرادت بعض سيدات الاسناتة قبل اعلان الدستور تقليد الماركيزة في حماية الادب فنجح عملهن مدة ثم أقبلت دورهن . وفي سنة ١٦٣٥ أسس الكاردينال ريشيليو الاكاديمية الفرنسية من اربعين عضواً وفوض اليهم جمع قاموس اللغة الفرنسية ثم أسست اكاديمية الفنون والادب واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم اكاديمية العلوم الاخلاقية والسياسية واشتغلت في للفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم اكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية والاكاديمية الصنائع النفسية وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الادباء بالزاق وفواتير وديكارت (١٥٩٦ — ١٦٥٠ م) وهو الذي أحيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة الفرنسية . وكان اماماً في الادب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب اليه وتسمى باسمه . ثم أنشأ الكساندر هاردي مسرحاً في باريس شخص فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من اسبانيا لتقدم فنون الادب فيها لسبب مجاورتهم للعرب . وظهر من فحول الأدباء بيرقورنيل (١٦٠٦ — ١٦٨٤ م) صاحب رواية هوراس التي صور فيها فضائل الرومان ومحبتهم لوطانهم وبذلهم دونها المال والبنين . وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت أبنيه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب فتجلد الشيخ على موت ابنه وغضب من فرار ولده الثالث ، فقالت له المرأة « ماذا تريد ان يفعل وهو وحده مع ثلاثة من اعدائه » فاجابها للشيخ « أريد

ان يموت . ومن أئمة الادب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (١٦٤٩ — ١٦٩٩) وكان معاصرا لقورنيل ورفيأله . نظم رواية اندروماخه ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لاحد شعراء اليونان الاقدمين ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم راية (استير) ورواية (أنالي) التي قال فيها فونتين بانها أحسن ما ألفه العقل البشري وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية (تراجيدني) ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بواولو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الادب . رمولير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بالفاظ لغوية وعبارة عويصة وترجمه احمد وفيق باشا بالفاظ سهلة . ولا فونتين مؤلف الحكايات المنظومة على السنة الحيوانات وكانت المدارس الابتدائية تعول عليها في تدريس اللغة الفرنسية وتحفظها للاطفال وأما اليوم ففقدت الرغبة فيها . ثم مونتسكيو مؤلف (اسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم) و (روح القوانين) و (الرسائل المعجمية) . وبوفون مؤلف التاريخ الطبيعي وفولير الشهير الذي لم يدع باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والانشاء الا طرقه . وديدروا صاحب الانسكلوبيديا وجان جاك روسو الذي هيج الافكار بمؤلفاته وهياً حدوث الانقلاب الكبير وبرناردن دوسن بير مؤلف بول وفرجينى وغيرها من التصص والسياحات

١٧ — الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في ادب الفرنج

وما اخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان — كما لا يخفى — هو مجموع ما حصلت الاجادة في تأليفه بذلك اللسان من فني المنظوم والمتنوع . فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى ورأى فريقاً من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الالفاظ وتصنيفها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها . وعلم ان لكل واحد من أئمة البلاغة وأمرء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة

مألوفة . فلوراجنا البصر في رسائلهم المشوذة وتأملنا طرز انشائها تبين لنا ان منهم من سلك طريقة الاصل أو طريقة السجع أو طريقة الجاحظ امام الادب . ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة . ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم اشعارهم لظهر لنا ان منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الأساليب التي راعوها ومنهم من لم يخرج على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمري بل اتخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فاصبح في الادب اماماً يقتدى به . ثم اذا بحثنا في مؤلفات اولئك الائمة باعتبار آخر رأينا منهم من اطلق العنان للمخيلة الشعرية فاتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغرق ابن الفارض وتجليه . واذا وصفوا الامكنة والاشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه ومنهم من يجعل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه . ثم اذا استقصينا البحث نجد طائفة من امراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الاعراب ونظموا اشعارهم بلسان الحضرة وهي اللغة الدارجة في امصارهم لان البلاغة لا تختص بلسان مضر بل توجد فيه وفي لسان الحضرة وفي غيرها من اللسان الاعجمية . ونجد منهم ايضاً طائفة اخرى في الاندلس وغيرها خرجوا عن اوزان العروض المعروفة عند العرب الى اعاريض مختلفة ومقاطع متفاوتة . الى غير ذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند اربابه سيما بعد طبع كتب الباقلائي والجرجاني وغيرهما من الائمة الواضعين امن الانتقاد الادبي

فالامم الاوروبية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لاواخر القرن الحادي عشر لليلاد محرومين من الادب وفنونه ولم يكن فيهم الا افراد من القسوس والاساقفة يحفظون في الاديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الاعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات . ففي اوائل القرن الثاني للهجرة والثامن لليلاد اخذت الافكار تتبادل بين المسلمين وبين امم اوروبا من الاسبانيين والطلبان والافرنج ودامت الصلات لاتقطع بين الفريقين المتحاربين لاني الحرب بواسطة الاسرى والسفراء — ولا في السلم بسبب الاخذ والعطاء . وكان الارسخ

قدماً في الحضارة يكسب جاره ادباً وعرفاناً . وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة اورلياق مسقط رأسه وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير وجاور في اشبيلية ثلاث سنوات . وفتح قومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً وأرنحل الافرنج في طلب العلم الى مدارس الاندلس وحضروا على مشايخها وعادوا لاوطانهم متورين بعلوم العلوم في ساحات المدن الكبيرة وتجتبع حولهم الطلبة والعوام على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجامع الاسلامية . فادرك الناس فوائد العلم وقرب الملوك والامراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم . فكان الشريف الادريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية و نابولي وهو من سلالة الملوك النورمانديين . وكان احفاد ابن رشد المنغولون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة صقلية و نابولي المعبر عنهما بالصقليتين . فكان مثل هؤلاء كمثل الاوربيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية . وظل الافرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالمرية على المباني العمومية والمارات الملوكية واستعمل علماءهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا . وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤا لها بالمعلمين من عرب الاندلس ويهودها المستعربين . فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوروبا بعد مدرسة ساليرن القريبة لنابولي . ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الاساتذة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق . ثم في سنة ١٣٢٣ أنشأ أدباء الافرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية ادبية لم تزل زاهرة الى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الازهار وتفرق في كل سنة على نواحي الشعراء عشر جوائز مصوغة من الذهب والفضة على هيئة الازهار . وكان ليفكتور هوغو منها أوفر نصيب كما تقدم . ومعلوم ان العرب اقلعوا مدة بتلك الاصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة اربوة (ناربون) وقرقشونة (قرقسون) ووفراقسنة وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسليليا . وقسطل سارازين معانها قلعة العرب وهي في الشمال الغربي من طولوز

فعلم الافرنج من العرب القوافي ورفه الغزل وأدب النظم والنثر وتلحين الاغاني والشعر ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في توارينج الادب الفرنسي . والى ذلك اسار الموسيوريته دوميك في كتابه المتداول ، بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنسية . وبعد ان اطلع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب ادبها كما اهلهم العرب من قبلهم . بل تماقتوا على درس ادب اليونان واللاتين وعلى حفظ اشعارهم والتمثل بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفاته ليو ربيدولاسيا رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المسرحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان أسبق ام اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والطلبان المجاورون للعرب . فظهر في الاولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية رواية تمثيلية . وظهر فيهم ايضاً الشاعر قالدبيرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) وطار له ذكر في العالم وهو يمد في مصاف اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميدية الالهية — ديفين كوميدي — الفه في مخضون سنة ١٣٠٠ م وجمله على ثلاثة أبواب باب في جهنم و باب في الاعراف و باب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم وصور نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشمر الجلود من وصفها . وهم بدخولها لو لم يمرضه ثلاثة سباع كاسرة . وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في الاعراف والسعير فقط لانه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوثان . قبل دانتي بقيادة فرجيل له وساراً معاً في عالم أهل النار . وأطنب الشاعر في وصف اصحاب السعير وصور

عذاب الذين صر بهم من الظلمة والجبارين . واني على قصة ايكولين وكان جباراً
عنيدياً في مدينة ييزا فوق بايدي أعدائه فوضعه مع اولاده في برج وسدوا عليهم
جميعاً فاشتد به الجوع وأكل اولاده ثم هلك . فوصف دانتني جميع ذلك بصورة
هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد
يابهيا ياتريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانس وقبل كانت
معشوقته فتلقته واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقى فيها
كثيراً من الابرار والقدسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية
والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتني في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به
اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف
انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة المعجبة في التنقل من
مبحث الى آخر . فالكوميديا او المضحكة الالهية اشبه برسالة الغفران التي حررها
المعري قبل تأليف الكوميديا باكثر من قرنين وفدما جواباً لرسالة وردت عليه من
أحد اصحابه الافاضل في حلب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها من
الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون وفي كل واديه يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل
صغير كان له عند الله اجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم
الملائكة طيبتم فادخلوها خالدين

واقنفت الامم الاوروبية اثر الاسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية
الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة
الانكليزية واصاح الفرنسيون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنسية .
واقنفي الالمان اثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكانت فن الادب
منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظار للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات
مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعملوا له . لان الخواص من الناس يألفون
من استماع الكلام السوقي المبذل ويألفون الغرض على المعاني واعمال الذهن في
استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندر هاردي وهو اول من اصلح فن التمثيل واللعب
على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من

فتعلم الافرنج من العرب القوافي ورقة الغزل وأدب النظم والنثر وتلعين
الاغاني والشعر وتعلموا عندهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الامثال والحكم
المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في توارينخ الادب الفرنسي . والى ذلك
انسار الموسيقي منه دوميلىك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس
الفرنساوية . وبعد ان اطالع الافرنج من كتب الاسلام على ما عند اليونان من
الفلسفة والحكمة اقبلوا على درس اللغة اليونانية ولم يهملوا كتب ادبها كما اهلها العرب
من قبلهم . بل تهافتوا على درس ادب اليونان واللاتين وعلى حفظ اشعارهم والتمثيل
بها . وهاموا في قص قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لان فن التشخيص او
التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان . وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر
منها مؤلفات لوريبيدلاسيما رواية اندروماق التي نسج راسين على منوالها . ولا
يزال السباح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الاقروبول اثار المسرحين
العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم

وكان أسبق امم اوربا الى تحصيل فنون الادب الاسبانيول والاطليان المجاورون
للعرب . فظهر في الأولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو الف وثمانماية
رواية تمثيلية . وظهر فيهم ايضاً الشاعر قالدرون ولوقين وغيرهم . وفي الطليان ظهر
الشاعر دانتي (١٢٦٥ — ١٣٢١ م) وطار له ذكر في العالم وهو يمد في مصاف
اكبر شعراء الامم القديمة والحديثة . وسبب شهرته كتابه الموسوم بالكوميديا الالهية
— ديفين كوميدي — الفه في غضون سنة ١٣٠٠ م وجمله على ثلاثة أبواب باب
في جهنم . باب في الاعراف وباب في الجنة . وسمى الباب منها بالنشيد وقسمه الى
مائة غناء وكل غناء يشتمل على ١٣٠ أو ١٤٠ بيتاً . وافتتح كتابه بباب جهنم
وصور نفسه مشرفاً على بوابة مظلمة تقشمر الجلود من وصفها . وهم بدخولها لو لم
يمقرضه ثلاثة سباع . وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر
اللاتيني وعرض عليه ان يكون قائداً له في السمعير فقط لانه لا يستطيع
دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الاوان . قبل دانتي بقيادة فرجيل
له وساراً معاً في عالم أهل النار . وأطرب الشاعر في وصف اصحاب السعير وصور

عذاب الذين مر بهم من الظلمة والجبارين . واني على قصة ايكولين وكان جباراً
عنيدياً في مدينة ييزا فوق بايدي أعدائه فوضعه مع اولاده في برج وسدوا عليهم
جميعاً فاشتد به الجوع وأكل اولاده ثم هلك . فوصف دانتى جميع ذلك بصورة
هائلة على الاسلوب المعروف بالدراماتيقي . ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد
ياها يياريس وكانت من ربات الجمال المشهورات بمدينة فلورانس وقيل كانت
معشوقته فتلقتة واخترقت به طبقات الجنة المسيحية او طباق السموات فلقى فيها
كثيراً من الابرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية
والعلوم الالهية والكلامية وجمع دانتى في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به
اساس اللغة الطليانية فكان كتابه كدائرة المعارف والاداب . ولم يزل يستوقف
انظار الادباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من
مبحث الى آخر . فالكوميديا او المضحكة الالهية اشبه برسالة الفيران التي حررها
المعري قبل تأليف الكوميديا باكثر من قرنين وفدمها جواباً لرسالة وردت عليه من
أحد اصحابه الافاضل في حاب وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها من
الشعراء الذين يتبعهم الفاوون وفي كل واحد يهيمون . وما كانوا يدخلونها الا بعمل
صغير كان له عند الله اجر كبير فففر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر وقالت لهم
الملائكة طبتهم فادخلوها خالدين

واقفت الامم الاوروبية اثر الاسبانيين والطليان في الدول عن اللغة اللاتينية
الى وضع لغاتهم القومية وتدوينها . واقبل الادباء في انكلترة على التأليف باللغة
الانكليزية واصلاح الفرنسيون لسان رومان وهذبوه فاصبح اللغة الفرنسية .
واقفى الالمان اثر من ذكر من الامم ودونوا لغتهم الالمانية . وكانت فن الادب
منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظار للعوام فيه ولذا اختار الادباء اصطلاحات
مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتمحلوا له . لان الخواص من الناس يأفنون
من استماع الكلام السوقي المبذل ويأفنون الغرض على المعاني واعمال الذهن في
استخراجها . ثم ظهر في فرنسا الكسندر هاردي وهو اول من اصلح فن التمثيل واللعب
على المراسح . واتخذ الروايات الاسبانية نموذجاً له ونظم على منوالها كثيراً من

الروايات الفرنسية وشخصها على مسرح باريس في حدود سنة ١٦٠٠ م. وفن التمثيل كما لا يخفى هو من اكبر الدوامل على ترقى فنون الادب واصلاح طرق النظم والنثر. لان الاديب يخاطب بهذا الفن الجمهور واصناف الناس فيتحرى في كلامه السعير الذي يستطيعون فهمه والاساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فانه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقداره على ايراد النكت والدقائق التي لا يفهمها الا اصحاب الفوص على المعاني

والتمثيل كما لا يخفى مشتق من ضرب المثل. فان الرواية التمثيلية ما هي الا ضرب مثل جامع للاطراف والتفاصيل واحسن ضروب الامثال وابدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال اتوني بسورة من مثله فقلوا انت تعلم من اخبار الامم ما لا نعرف فلذلك يمكنك ما لا يمكننا. قال فها توها مفتريات. فالرواية هي اسلوب من اساليب المفتريات. واساس فن التمثيل عند الاوروبيين مستند من اعمال المعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح بن مريم عليها السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية. ولما درس الافرنج اليونانية واللاتينية وانتشقت اساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان واتخذوا رواياتهم منوالا نسجوا عليه امثالا من كلمات اخرى فرنساوية وربما ترجموا ابيات شعرهم وسرقوا معانيهم وصاغوها في الفاظ فرنساوية من الطبقة العليا وتألقوا فيها نهاية التائق. وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية والاساليب المتعارفة فجاءت اياتهم متينة وقوافيهم عامرة. وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلح ان يفرد دون ما سواه. ولم تحصل الملكية في ذلك الا لمن هو على جانب من العلم وله الحظ الاكبر من الذوق السليم لاحتياجه الى تल्प كثير في استحصال الملكية حتى يفرغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له وبلغ الادب الفرنسي في عصر لويس الرابع عشر أي من سنة ١٦٠٠ الى سنة ١٧١٥ اوج الكمال ومتهى البلاغة. واصبح لادباء فنون الادب ورتبوا على القواعد وهذبوا ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة وظنوا بانهم لم يتركوا

شيئاً للتأخرين . فكان عصر لويس الرابع في الادب عصرآ مدرسيآ (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطس عند الرومان وبعصر بيرقلس عند اليونان . ونبغ من شعراء فرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) لاديب بيير قورنيل والشاعر المعلق راسين . ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الاديب موليير ، ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الاديب المدقق بوالو . فهو لآ من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة . ومن احسن مؤلفات بيير قورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقب بها اجد ابطال الاسبانين في القرن الحادي عشر للميلاد . وبيان ذلك :

ان العرب بعد استيلائهم على جزيرة الاندلس ^(١) التجأت بقية السيوف من القوط الى جبال استوريا وتحصنوا فيها ولموا شعثم وشكلوا حكومات وامارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبهم من قطاع الطرق المتشردين في الجبال وتشاغلوا عنهم بتمعيم تلك السهول وتمتعوا برياضها الغناء . ثم ان الامارات التي اسسها القوط في شمال الاندلس استورية وليون وقشتالة وكان الملك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر الميلاد فرديناند الاول فاوضى بتقسيم الملك بعد وفاته بين اولاده فكان ابنه الفونس السادس على ليون الاسبانية وابنه الثاني سانش على قشتالة . فالسيد صاحب الرواية ولد سنة ١٠٣٠ وسمي رودريك وكان ابو الدون ديفوا من اشراف القوط فادخله في سراي فرديناند الاول . وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش ولما اقتل الاخوان وانهزم سانش في احدى المواقع قوى السيد عزمه واسار عليه بالمشورات الحسنة فاتبع رأيه وانتصر على اخيه وحبسه وتفرد بالملك على ليون وقشتالة . فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً . ثم حدثت فتنة وقتل سانش في محاصرة زاموره وخلفه اخوه الفونس السادس فأمن السيد واقسم له الايمان المغلظة بانه لا مدخل له في قتل اخيه سانش وقربه منه وزوجه بواحدة من قريباته

(١) قالت العرب جزيرة الاندلس وجزيرة العرب وذلك اخف من قولنا شبه جزيرة الاندلس وبحيث جزيرة العرب والاندلس تطلق على مملكة اسبانيا ومملكة البورتغال ما عدا جزر صغيرة في الشمال الغربي من مملكة اسبانيا

وكانت على رواية التاريخ عجزاً شنعاء ولم يتزوجها السيد الا طمعا في مالها . وبعد ان تم الامر لافونس السادس وأمن غوائل الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوكة وصادره واراد الفتك به ففر من ملكه الى الحدود الاسلامية وعمر قلعة على قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز . ولم يزل اثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو أي في مدخل جبال البيرينة الى رولان . واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يتعيش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الاسلامية والمسيحية . فاشتهر خبره وتحدث الركان بشجاعته ثم اتفق مع امير سرقسطة وامير البراسين وهما من امراء المسلمين وقاتل معها امير اراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر الفونس السادس والمتفقين معه من امراء المسلمين لانهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً . فجاهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من افريقية ووجد كلمة الاسلام في عموم جزيرة الاندلس مع انه كان امياً بربرياً . فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بالنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها الا بعد وفاته في سنة ١٠٩٩ م . فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه وطار له ذكر بين الفرسان ونظمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية باسان رومان . ثم جاء قوريل ونظم فيه روايته المشهورة بدون التفات للتاريخ ولا تعمق فيه بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية وجل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديمة الحسن والجمال . ولما عشقها وعشقتة اتفق ان ولدها اهان والده فاقض عليه السيد وقتله وتمكن من تسليط ارادته على عشته . أما اسم « السيد » فأطلق عليه حينما كان منفقاً مع امير سرقطة وأمير البراسين وحارب معها ولم تعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الاسلام أم لا . ومن ايات قورنيل في روايته المذكورة قوله : (كلاهما سيك سيدهما بحضوري لان السيد بلسانهم تعادل كلمة سنير)

اما ما ألفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فاحسنها رواية (اندروماق) ونسجها على منوال سميتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد بأربعة

قرون وتختلف رواية السيد في وحدة الزمان وفي اخلاق بطلها لتغلب العشق عليه واتصاره على ارادة العاشق . ومن روايات راسين استير الاسرائيلية ويشخصها احياناً طلبة المدارس في بيروت . وروايه اتلي وهي من الاسرائيليات ايضاً . — قال فولثير انها احسن محمولات العقل البشري . ومن احسن ما ألفه مولير في المضحكات رواية تارتوف وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بحبته أحد التمولين من البسط . واستولى على امواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث . وقد اتى المعري بآيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله :
وليس عندهم دين ولا نساك (فلا تفرك أيدٍ تحمل السبعا)

وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسمحون وباتوا في الخنا سبيحا
والف بوالو كتاب الهجويات (سانير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه
الفن او الصناعة الشعرية (آربويتيك) وانكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال
لم تأت فرنسا بشاعر قبل (ماليرب) اي ان الشعراء الذين جاءوا قبل دخول
القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم اتقانهم بالكلام
المدرسي المتظم المعقول وتهافتهم على التهنع البارد في الكلام وازهار الرونق
الكاذب فيه وبيان ومهارتهم وعامهم بكل ما هو من فضول الكلام ولذا فكلامهم
لا طعم له وفيه كثير من الفرور والاعجاب . فبوالو بالغ في كلامه وحط كثيراً من
كرامة المتقدمين ولكنه أصلح اساليب الشعر الفرنسي كما اصاح باسكال أساليب
النثر . وكان باسكال اماماً في العلوم الرياضية والطبيعية . واقتفى اثر بوالو في انتقاد
كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا والف مجموعة سماها الخرابات خرب فيها كثيراً من
اشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه وكانت وفاته في بروسة سنة ١٢٩٥ هـ
فجاء كمال بك امام الادب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه تخريب
الخرابات ونشره في مطبعة ابو الضياء . فالغاية التي يتطلبها أئمة الادب العثماني كالذين
ذكرنا وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة واكرم بك وسعيد بك من اعضاء
الشورى والمعلم ناجي افندي المتوفى منذ بضع سنين وبقية النشأة الجديدة — هي
تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الاعاجم والسلوك فيه منهج بوالو ورأسين وقورنبل

ومولير وبقيّة ادباء عصر لويس الرابع عشر . لأن هؤلاء الادباء يذهبون الى أن
التخيّل الشعري ينبغي أن يكون مقروناً بالتعلّل . فعندهم ان الشعر ليس أعذبه
أكذبه بل أحسنه اصدقه كما قال أحسان :

وان أحسن بيت أنت قائله بيت يقال اذا انشدته صدقا

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل

أي ان الحادثة الممثلة على المراسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي
في ظرف ٢٤ ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب الى الحقيقة واشبه بالواقع لان حوادث
الاربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين . فراسين راعي هذا
الشرط في رواية اندروماق . وقورنيل خالفه في رواية السيد وتقل بطل الرواية من
سنة الى اخرى . فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي
حدثت في ازمان متطاولة . وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في
مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لاخر فيتعبد بذلك عن الحقيقة .
ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب الى آخره .
بحيث اذا رفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من
فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان . والمراد من الشرط الثالث ان يكون
بطل الرواية واحد وعروسها واحدة ثم السمي وراء عمل واحد وهو الحب مثلاً
ويتهيأ ببناء المحبين او احدهما او اتصارهما أو تغلب ارادة العاشق على عشقه كما
فعل السيد وقتل ابا معشوقته أخذاً بثأر ابيه أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج
محبوبته في رواية اندروماق وخان بذلت وطنه ولم يرع عهد من اثمته كل ذلك
مرضاة لمعشوقته

فصدر هذه الشروط والقيود وامثالها هو التعلّل في الكلام الادبي وتحكيم
الذوق السليم في فنونه . ولم يكن الادباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعلّلون في

نظمهم ونثرهم ولا يحكمون الذوق السليم فيها . ولذا كانت فنون ادبهم مشحونة بالخرافات والاباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتغل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول . فلما تعقل الادباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلايك) . والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصنف والدرس والمدرسة . لان السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصيل لهم ملكة في النظم والنثر . وامام الطريقة المدرسية وشيخها الاكبر راسين

١٩ - الطريقة المدرسية عند الافرنج

فروايات الادباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يدرس في المدارس كتاب مدرسي . ويقصد به الكتاب الاقرب الى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه . فرتبة الكمال يمكننا تصورهما والاحاطة بهما في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب . ولكن في الادب وفي الروايات التمثيلية ليت شعري ما هي مرتبة الكمال ؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الادبية من مدرسة ورومانه رحيقية او طبيعية . وفي نهايتهم الطريقة الانسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره المسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوطة والاعراف وبحث فيه عن الاوديسة التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني . وكان المسيو بول ادم بحث عن هذه الطريقة الادبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها اسرار الجمهور (مستير دو فول) و بول ادم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية .

فأصحاب الطريقة المدرسية يذهبون الى ان مرتبة الكمال في الادب هي « أولاً » تمام النسبة التي بين اساس الفكر وبين شكل التعبير . اي بين المعاني التي يختلها الشاعر وبين قوالب الالفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها . فعلى مذهبهم لا يمكن ان يكون المعنى حسناً بل ينبغي ان يكون الحسن أيضاً في كيفية اداء هذا

المعنى . فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هو معنى بديع في لفظ حسن ^(١) .
فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات
المصوّر المدرسية كمصّر لويس الرابع عشر وعصر اغسطوس وعصر بيرقاس .
والمصّر المدرسي لا يوجد عند جميع الاقوام بل بعض الامم اس لهم عصر
مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول الى مرتبة الكمال في الادب
أبدآ . لانهم اذا تمكنوا من الاتقان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من اداء هذه
المعاني بالالفاظ الحسنة ولا يهذرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لاحد
السببين : اما ان اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشوته ولم يكتسب بعد
الشكل البديع . وأما ان تكون اساليب الفن ولوازم الصناعة الادبية لم تعرف
بعد عند المتكلمين به . ثم انهم يشترطون في التأليف المدرسي ان يكون ظهوره
في الزمن التي بلغت فيه اوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط . ويعترضون
على أصحاب الطريقة الرومانية لانهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين اساس الفكر
وشكل التعبير . ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الاداء . بل
أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة . بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً . فأرجعهم
نهاجتهم الى الوراء وساقهم الى الاساليب الاجنبية وأوصلهم الى طريقة لوب دوفيكه
الاسباني والى طريقة بايرون وشكسبير الانكليزيين

(١) قال ابن خلدون : انذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ . واما المعاني
فهي في الضائر . فالمعاني موجودة عند كل واحد . وفي طوع كل فكر منها ما
يشاء ويرضى فلا تحتاج الى صناعة ؟ وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج
لصناعة (Art) . وهو بمثابة القوالب للمعاني . فكما ان الاواني التي يغترف بها
الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف . والماء واحد
في نفسه . وتختلف الجودة في الاواني المملوءة باختلاف اجناسها لا باختلاف الماء
اه كلامه . وفي بعضه نظر ولا يخفى ان الشاعر المفلح اقدر من غيره على رؤية
الاشياء بصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه . فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا
توجد عند كل واحد

ويذهب اصحاب الطريقة المدرسية الى ان مرتبة الكمال في الادب هي «ثانياً» وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين العقل. بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس. فاذا كان التخيل الشعري في التأليف الادبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية. مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب. ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام الجاهلية وأهل الطبقة الاولى من الاسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالاعاجم ولا حصص لهم اللغة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم. ومن هذه المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق :

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني ... الى ان قال : لولا مخاطبتي اياك لم ترني

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة والمتنبي ولد في الكوفة وذهب الى فارس واختلط بادباء العجم. ومبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالالفاظ الفارسية والتركية والتركي يصف يوماً شديداً الحر :

(..... كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدي درياي سراب » ومعناه ان النملة بنفس حارت تجعل السبع البحور سراباً . ومن قرأ ديوان نفعي حسب ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقبه صورة له ومنها قول ضيا باشا — وهو في مقدمة ادباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية — باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الالفاظ العربية . (سرولر افلا كه سرچكش مثال قديار) . ومعناه مثل قد الحبيب كاشجار سرو تناطح بروؤسها الافلاك . ويذكرني هذا ما قاله احد الواقفين في جامع ايا صوفيا بان من صام كذا وصلى كذا وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من الف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين . فان كنا نستهجن طول الانسة ايلابوين أطول نساء العالم ولا تتوق النفس الى قربها

وهي لا تزيد عن الطول المعتاد باكثر من قدمين فما بالك ان زاد قد عروستا
عن ذلك ؟ . . .

يقسم علماء المعاني المبالغة الى ثلاثة اقسام : وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً
وعادة ويقال لها التبليغ : ومعقولة وهي ما امكن وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال
لها الاغراق . وغير معقولة وهي ما لا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو .
فاهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والاغراق في الكلام . ويقولون بان بعض
الامم او بعض العصور في الامة الواحدة لها تخيل فهمري وليس لها تعقل . وقد
جاءت هذه الامم او هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من
الفوائد ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل . كما
هو الحال في ماها بهاراته وراما ياته من اشعار الحاسة الهندية وفي الشعر الفارسي
والتركي القديم وبعض اشعار العرب المخالطين للعجم . فمن خصائص العصور
والآداب المدرسية تمكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً الا
للجمال والتناسب والقياس ولا وجود لما ذكر في زمن تشكل اللسان ولا في زمن
اقرض

ولاصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة ايضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة .
فهم يذهبون الى ان احسن الشعر اصدق لا ا كذبه . ولكنهم لا يقصدون باتباع
الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب اليه اصحاب الطريقة الحقيقية
وورد في مؤلفات امامهم اميل زولا . كلا بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير
الذهني وحده في الشعر لا يكفي

وعندهم ايضاً ان التأليف المدرسية يجب ان تكون منحصرة في تصوير الجميل
والبديع فالتأليف المغايرة للاداب الاخلاقية والموجبة لاشتمزاز النفس بندرها
الجمال فلا تكون مدرسية . فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بان لا
يحرك قلبه الا في المواقف الحسنة والاخلاق المستحسنة ولا بصور فيها شيئاً غير
الجمال . ولكنهم يندرونه بسقوط مؤلفاته ان ملأها بوصف الاشياء القبيحة والافعال
الشريرة . كما فعل زولا في كتاباته وصور فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة . ونظم

احد الادباء في العام الماضي رواية صُور فيها الامراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العهر وشرح ذلك على مسرح اللعب شرحاً يليق ان يكون في غرفة الطبيب المخصصة لمعاينة الامراض السرية . فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشرابة والشمعة من المسرح المصري في المعرض الاخير . ويقال بان الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً اخيراً وهو ان تكون المؤلفات فيها ملية قومية اي مصورة لافكار القوم الفلسفية ولاحوالهم الاجتماعية : فان كان التأليف الادبي وضع تقليداً للاجانب فلا يكون مدرسياً . فبناء عليه يكون هذا الشرط مرغياً في المؤلفات التي استخرج صاحب مجاني الادب زبدتها في كتابه لانها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الاسلام وبعده . بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الاسلوب الافرنجي - وربما كانت مترجمة عن لسان من اللسنة الاجنبية فانها ليست على وفق الطريقة المدرسية . مع ما فيها من الفوائد التي ستذكرها في بحث الطريقة الرومانية .

فهذه زبدة الاقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية . فكان من اتى من الادباء بعد عصر لويس الرابع وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان الفرنسي فيه درجة الكمال لا يخرجون في النظم والتأليف عن الاساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الاساليب التي راعوها . ويتكلفون لذلك الصواب ويأتون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخلون من التشابه والاستعارات ويأتزمون عدم الخروج عن اوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم ويعملون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المتبدل ولا يصودون رذيلة من الرذائل ولا سواة من سوات الانسان وعوراته ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة أو سفلة الحياة الدنيا . ويستخبون مواضع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الاولى أي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين . فكان كلامهم مشتملاً على التخیل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية ولكنه بارد

ممل بسبب ما فيه من التصنع والتعمل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول اصحابه ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والاساليب الانشائية . فوفائهم استيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا نهيجاً للعواطف كوفائهم الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الاحساس القايي فيها . ولذا قالوا بان راسين وقورنيل ومولير واهل طبقتهم لو اطلقوا العنان لافلامهم ولم يقيدها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لانوا باحسن مما جاؤا به من درر الالفاظ وغرر الماداني

فهذا ما كان عليه فن الادب الفرنساوي قبيل الانقلاب الكبير ولذا كان الكثير من الكتبة لا سيما النشأة الجديدة يذمرون من تقديم تلك القيود المدرسية ويرؤن انفسهم كالقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه . فكان مثلهم كمثل اعلام في مكاتبنا اراد التحرير لوالديه فلم ير امامه من نموذج الانشاء سوى ما طبع في الالستانة من رسائل الخوارزمي والبيديع والحمداني . وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال . لان اصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كادوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الاشياء باسمائها الحقيقية ويستعملون الحشو وتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها . فاذا اراد أحدهم أن يمين الوقت وهو يكتب قصة أو رواية ويقول مثلاً قبل مرور ساعة من الزمان دبح عباراته وكثر استعاراته وقال :

(قبل ان يتم العقب خطاه المنظومة وينقل الى مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة) الخ

كما فعل الشاعر الفرنساوي اندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين منهج الطريقة المدرسية وابلغهم كلاماً . وكانت ولادته في الالستانة واهـ رومية فارنجل الى باريس وصار فيها امام اهل طبقته فلما قتل سنة ١٧٩٤ م مع من قتل من افاضل الرجال واكابرهم بألة الكيلويتين اقرضت الطريقة المدرسية بعد ان كانت قواعدها واساليبها هي المرعية بين الادباء . ينبع فيها الخلف اثر السلف . ومع

اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لاولائل القرن التاسع عشر

قبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوالم الامة في تسبب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم ويدعون الامور تجري في مجراها حسناً كان أو قبيحاً نافعاً أو مضرّاً كما يجري الماء في الارض الطيبة بدون حفر النهر ولا كرية . وكانوا يستعملون هذا التعبير (laisser aller) كما نستعمل تعبير (طبيب معيش) . ولا يهتمون بالامور العمومية والاجتماعية كلها لا تعينهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم . فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة ١٧٧٩ م تغيرت البلاد ومن عليها في بضعة سنين واتقلت افكار الناس وعاداتهم واخلاقهم وزال عنهم التسبب والغفلة والكسل والرخاوة وشغفوا بحب الانتظام والدقة . فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالامور وكانوا صامتين ناصتين مفكرين متعقلين لا يضيعون اوقاتهم في ما لا فائدة فيه ولا يشتغلون بالعبث من اللهو واعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لان الامة باسرها حتى النساء والصبيان كانوا باجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب اوربا الى شرقها ومن قارة افريقيا الى تارة اسيا أي من مصر الى سوريا . فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده امراً ولا يغفل في ملابسه عن زرّ ولا يترك فيها فتناً بغير رتب . واذا وقف استقامت قامته لان الانسان مستقيم القامة واذا مشى او ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل اكابر بعض الامم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه . وانزع من عقولهم اكثر الخرافات والاباطيل التي تولد في الانسان عادة ويكبرها الوهم في مخيلته مادام في مكانه لا يخرج منه ولا يسبح في الارض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين

فانقلاب الاخلاق والعادات والاطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لاسلوب جديد في النظام والنثر وكان رجال العصر يتربون حصول انقلاب في الادب كما حصل في السياسة والعادات . فولد فيكتور هوغو والعصر الجديد ستان وصار رجل هذا الانقلاب الادبي

٢٠ — الطريقة الرومانية

اسلوب الطريقة الرومانية ابتداءً لظهوره في مؤلفات شكسبير امام الادب وامير البلاغة . ثم نسج على منوال هذه الطريقة ادباء الالمان وراجت بضاعتهم فيها . ثم جاء فيكتور هوغو وكشف اساس الطريقة واوضح مزاياها وصار امامها المشار اليه بالبنان

﴿ الادب عند الانكليز ﴾ فالانكليز كانوا في مقدمة الامم الاوربية التي انتبعت من غفلة القرون الوسطى وبادرت الى اصلاح لسانها ووضع فنون الادب والعلم فيه . وقبل ظهور الادب الانكليزي كان الانكليز انفسهم يعتنون باشعار المداحين وشعراء الرابة من الفرنسيين . وكانت اللغة الفرنسية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كلوي الفاتح (١٠٢٧ — ١٠٨٧) ومن خلفه عليهم من السلالة النورماندية . ولذا بقيت الكلمات الفرنسية مستكثرة في اللغة الانكليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية : ثم اشتغل الانكليز بهذيب لغتهم واصلاحها فاصبحت اليوم من اغنى اللغات الجديدة اديباً بعد اللسان الفرنسي . ونبع فيها ولهم شكسبير (١٥٦٤ — ١٦١٦ م) وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اختص به مولير وبومارش (١) من فن المضحكات وصار اماماً في كثير من الفنون الادبية كفن التراجيديات التاريخية والدرام والكوميديات والاغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ايريك) . فكان في اثنين الادب كما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر ان يجمع العالم في واحد

والف شكسبير نحواً من ٣٥ رواية ترجمت لجميع اللغات الاوربية وترجمها للفرنساوية فرانسوا بن فيكتور هوغو وطبعت في ١٨ مجلداً ولم تزل رواياته تمثل على مراسع الفرنسيين والاطليان وغيرهما من الامم . وتمثل احياناً في الاستانة وازمير

(١) بومارش (١٧٤٢ — ١٧٩٩) هو الاديب الفرنسي صاحب رواية (حلاق اشيلية) و (زواج فيغارو) وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على اخلاق المعاصرين وفساد ادايبهم وصور فيها ما يشبه محون ابي نواس

ومصر والاسكندرية ايضاً . واشهر ما يمثل منها (روميو وجوليت) وهما في وفاة تحاباً حباً شديداً وقاسياً تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين اهل الفقى المحب وبين اهل محبته . على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين الماشق والمعشوق . بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا . ففي اواخر القرن التاسع عشر الميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه لاسميا في اقتران المحبين سرّاً بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو بجوليت على يد الراهب لورانس وافضى الامر الى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع اقصى خبره وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله . فالتهويل بالموت بالحادثة الممثلة ما يجعلها من فن المبكيات . وتزيين المجلس بظرف الراهب او لطف الفقيه ما يقرب الحادثة الممثلة لفن المضحكات الذي مثله فيما سبق برواية تارتوف لانها احسن نموذج لهذا الفن . ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس . لان تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين باظهار النسل وكثرة العبادة . وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والادب المتصف بهما ابو زيد السروجي بطل مقامات الحريري . بخلاف الراهب لورانس او الشيخ . . . فانهما من ذوي التاموس والوجدان . ولم يدخل كل منهما في الحادثة التي تخصه الا لاصلاح ذات البين . فيظهر الواحد منهما على المسرح بهيئة الكمال والوقار وعيون المتفرجين ترمقه بالاستحسان والاعتبار . ومع ذلك فوجوده في الرواية يقربها لفن المضحكات

ومن روايات شكسبير المشهورة ايضاً هاملت وهو اسم ولد الملك من ملوك الدانمارك في قديم الزمان . وخلاصة الرواية ان ام هاملت اتفقت مع عمه وهو اخ الملك وكان شاباً حسن المنظر فسقى الملك سماً وتولى مكانه وتزوج ام هاملت فاتقم هاملت من عمه وقتله . وكان هاملت معشوقاً بديعة الحسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فانت كدّاً . وابلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حفار القبور وم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون . فالكات الفلسفية التي

يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات
وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد
لمرمان بن الحكم في الدولة الاموية . ومن نزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على
المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو
ابن تلبوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر
العصر ادمون رويستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش
دوتقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتقلب على ملكه وحكم من
سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور للشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة
الكلام فيها : ان ماقت اجتاز يوماً مع رفيق له بمغارة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات
كاهن جنيات

. فقالت احدهن : — السلام عليك يا ماقت يا امير غلاميس

وقالت الثانية : -- السلام عليك يا ماقت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : — السلام عليك يا ماقت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه باقور : اعوز بالله ، منكن أي النسوة اتن ؟ امن الانس ام من

الجان ؟ فقاءتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئني بشيء

فقالت كبراهن : — اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان ماقتبه

مشنومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما انسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد

الملك فيهم . قلن ذلك واختفين كلح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دوتقان مع بعض خواصه عند ماقت فبالغ لم في

الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع وقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة

ماقت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فخرضت زوجها على قتل

ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الحالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون

في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف

والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فتداركت زوجته الامر ودخلت المخدع

وغرقت يدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائها وايديهم لاثامهم بايقاع الجرم

قمت الحيلة وجلس ماقت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدي ماقت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في أفضل الاخير من روايته بابدع اسلوب وأبلغ تعبير . واخرجها على المرحح احاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك يديها كأنها لم تنو من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطليت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور . ونحسب زوجها معها فقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقلل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضاً اوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدة على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دو فينية وله غير ذلك من الروايات

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان ونبذوا ظاهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا نهافت على التشايع والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوقة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والوجد والكرم الى طور القضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتعجب والتفاخر والتكاثر الى غير ذلك مما هو مفروس في طينة الانسان من الاخلاق والعبائغ ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسلة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات واقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاهل على زوجته وبنته كتاب « الجنة الضاربة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابداع ما ألفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الغفران

يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع انها من ابكى المبكيات .
وقتل الملك على الوجه المتقدم له امثال في التاريخ . منها قتل ام خالد بن يزيد
لمردان بن الحكم في الدولة الالهوية . ومن نزل الممثلة الشهيرة ساره برنار تمثل على
المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية وتلبس لباس الرجال كما تمثل دور النسير وهو
ابن نلبوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا في رواية (ايكلون) التي نظمها شاعر
العصر ادمون رويستان . ومن روايات شكسبير ايضاً ما قبت وهو قائد لجيوش
دونتقان ملك ايقوسيا من بلاد الانكليز . قتل سيده وتغلب على ملكه وحكم من
سنة ١٠٤٩ الى سنة ١٠٥٧ م . فصور للشاعر قصته في تلك الرواية وخلاصة
الكلام فيها : ان ماقت اجتاز يوماً مع رفيق له بمغارة مقفرة فمر بثلاث عجائز ساحرات
كاهن جنيات .

. فقالت احدهن : — السلام عليك يا ماقت يا امير غلاميس

وقالت الثانية : -- السلام عليك يا ماقت يا امير قاودور

وقالت الثالثة : — السلام عليك يا ماقت يا من سيكون ملكاً على ايقوسيا

فقال رفيقه باقو : اعور بالله منكن أي النسوة اتن ؟ امن الانس ام من

الجان ؟ ففألتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء

فقالت كبراهن : — اما انت فنخبرك باحسن مما اخبرنا به رفيقك لان ساقته

مشثومة ويموت بلا ولد يخلفه في الملك . واما انسلك فسيملك على ايقوسيا ويمتد

الملك فيهم . فان ذلك واختفين كلح البصر . وكان الامر كما تنبأن به

ففي يوم من الايام نزل الملك دوتقان مع بعض خواصه عند ماقت فبالغ لهم في

الضيافة والاكرام وفرش للملك في المخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة وكانت زوجة

ماقت حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرضت زوجها على قتل

ضيفه وسيده . فدخل في ظلام الليل الخالك واخذ خنجراً لاحد القرناء وهم غارقون

في النوم وغطسه في صدر الملك . فلما قتله اخذته الرهبة واستولى عليه الخوف

والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده . فداركت زوجته الامر ودخلت المخدع

وغرفت يدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائها وايدبيهم لاثامهم بايقاع الجرم

قمت الحيلة وجلس ناقبت وزوجته على سرير الملك ولكن لم يهدأ روع ليدي ناقبت ولا استراح ضميرها . فصور الشاعر ندامتها في أفصل الأخير من روايته بابدع أسلوب وأبلغ تعبير . وأخرجها على المسرح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها الا الظلام وتفرك يديها كأنها لم تنق من لطخ الدماء ولا مذهب الرائحة منها مع ما تطليت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور . ونحسب زوجها معها فتقول له : اغسل يديك والبس ثوب النوم وقل من اصفرار لونك الخ . . . ومن روايات شكسبير ايضاً أوتيلو بين فيها غيرة الزواج وشدته على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية الفرد دو فينية وله غير ذلك من الروايات

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من افرادهم . فسلك في الادب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على اساليب اليونان والرومان وبذم وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية ولم يلتفت في الرواية الى وحدة الزمان والمكان ولا تصنع في الانشاء ولا تقصد فيه ايراد البديع من الكلام ولا تنهات على التناهي والاستعارات . بل اخذ ما يلهمه اياه الوجدان وبمليه عليه الضمير ويصور الاحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والوجد والكرم الى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبر والتعجب والتفاخر والتكاثُر الى غير ذلك مما هو مفروس في طينة الإنسان من الاخلاق والعلائق ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسلة جلية ليس فيها تصنع ولا تعمل

ثم نبغ في الانكليز الشاعر ميلتون ١٦٠٨ - ١٦٧٤ م وكان كاتباً لقرومويل الشهير فلما مات واقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعمي بصره وذهب ماله فاملى على زوجته وبنتيه كتاب « الجنة الضائعة » وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة ١٦٥٨ بشعر لا قافية له ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن ابنية الشعر الانكليزي ومن ابداع ما ألفه شعراء الامم الاوربية بعد كتاب (المضحكة الالهية) المشابه لرسالة الفران

فتمسكت اللغة الانكليزية واتسعت دائرة الادب والتخيلات الشعرية فيها ومال ادباؤها لقراءة الاشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور والزويفر وهم من شعراء الوبابة المعاصرين لعرب الاندلس وأوجدوا للشعر شكلاً جديداً وأسلوباً مبتكراً . ونع فيهم مثل شلي (١٧٩٢ - ١٨٢٢ م) وزوجته واللورد بايرون وكان ذا نفس عال ونخيل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات وتشيع فيها لليونان تشيع المعجم للسادات وتقانى في حبهم ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه اثناء حرب المورة الى ان حطه الحبس والهيام من اعلى قصور لوندرا الى اسفل الكواخ ميسلونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان . وبسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواها فاسداً فاصابت الحمى الشاعر الانكليزي وعجلت بروحه الى الاخرة ونقلت جثته الى انكلترا واقام له في ميسلونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع . فاللورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الانكليزية وله في الشعر الدراماتيقي رواية ماتفرد نظمها في ايطاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والارواح وخوارق الطبيعة وله ايضاً رواية دون جيان نظمها على اسلوب مبتكر . وكلتا الروايتين تمثلان الان على المراسح الباريزية

ومن مشاهير ادباء الانكليز والترسقوت (١٧٧١ - ١٨٣٢ م) كتب بالانكليزية اكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنة ١٨١٤ و ١٨٣٢ كلها في غاية التدقيق عول عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير . لان صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وشروح وافية قلما يتيسر للمؤرخ الاحاطة بها . ونسج على منوال والترسقوت في القصص التاريخية ولهم غودوين . ثم ظهر في عالم التحرير المؤلف النحرير والديبلومات الشهير بنيامين الاسرائيلي صاحب القصص السياسية وهو اشتهر في التاريخ باسم اللورد يقونسفيلد ونع في فنون الادب والسياسة وساح سنة ١٨٢٩ في ايطاليا واليونان وبلاد الارناؤوط وبر الاناضول وسوريا ومصر والحبشة ونشر كتب سياحته على طرز قصصي وبين فيها آراءه السياسية وعرب المتكلم بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين وله قصة

اخرى عنوانها « اسكندر بك ارثاؤوط » . وصار هذا الاسرائيلي رئيساً لوزارة المحافظين وكان مخالفاً في السياسة لفلادستون رئيس حزب الاحرار . قُبت يقونسفيلد امام مطامع روسيا وعارض في اجراء ماهدة ايلستافاتوس سنة ١٨٧٧ ولكنه طمع في الاجرة على هذه الخدمة ورجح اكثر من اللازم في تجاونه وتوفي سنة ١٨٨١ .
 فيهم مما تقدم ان اول وأضع لاساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير .
 ولكن اول ناسج على منوال هذه الطريقة ومظهر لمزاياها هم شعراء الالمان . وجميعهم من انكليز ولمان وفرنساويين اقتبسوا افانين المذهب من الاسبانيين والاطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى

٢١ - الطريقة الرومانية عند الالمان والفرنساويين

اما الالمان فأقدم تأليف ادبي لهم اغاني هيلدبراند نظمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الالمان كما نظمت اغاني رولان بلسان رومان . وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيلونجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيلوجن وبين اتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وابادهم . فهذا الديوان هو الحماسة الالمانية . ثم حدث الانقلاب الديني وظفر لوتر مؤسس احكام الديانة البروتستانتية وترجم للالمانية الكتب المقدسة فانتسعت بذلك اللغة وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء ومع ذلك استمر الالمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنون الادب المعتبرة عند الادباء . وكان الامراء والاعيان في المانيا مكين على تحصيل الادب الفرنسي وعلى حفظ الاشعار الفرنسية والتثيل بها والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرم ومجتمعاتهم وضيقاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما في القصر الملوكي بيرلين اذ الناس على دين ملوكهم . وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا اعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتر الفرنسي فحبه اليه وأحله في قصره محلاً رفيعاً . والحاصل كانت بضاعة الادب الفرنسي راجعة عند الالمانين كرواجها عند الروس . وكرواجها أيضاً بعد حرب القرم في الاستانة العلية ومصر القاهرة . حضرت يوماً في مدرسة العلوم السياسية بباريس

امتحان طالب تركي استامبولي اجاب جواباً مقبولاً عن اكثر الاسئلة التي القيت عليه بما يتعلق باحوال فرنسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لابنائها . فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجدده لا يعرف شيئاً عنهما ولا يدري ان كان فيهما مسلمون أم لا . ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها وله والدة تركية فحور له المكاتيب باللغة العثمانية ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابةً سوى بعض عبارات متعارفة ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فينسر لها التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية واما المخاطبة التحريرية فلم يتمكن منها الا بواسطة الترجمان والكاتب مع ان كليهما ليسا باميين بل هما على جانب من العلم والادب فالانهمك باللغة الاجنبية ادى الى ان الولد اصبح لا يعرف لغة امه كما تجب معرفتها ادياً وطبيعياً : لان لغة الام هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنسيون (لانغ ماترنيل) ويسميها الاتراك (لسان مادرزاده) وادري ان الام بالفارسية

وهكذا كانت الحال في المانيا بسبب نهاتهم على ادب اللغة الفرنسية في الثلث الاخير من القرن الثامن عشر أي ما بين سني ١٧٧٠ - ١٧٨٠ م جاء ادباء الالمان بطرز جديد من الادب كان له رواج على مسرح اللعب واقبل الناس عليه اقبالاً عظيماً . مع ان الطرز الجديد الذي جاؤا به كان عارياً عن تلك الصور والاساليب البديعة التي في مؤلفات اهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع أو العمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كانوا يوفقونها تألفاً . وانما كان كلام الادباء الالمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهيج وانفعال في النفس . وعن احساس في القلب . فنفع هذا الانفعال والاحساس الروح في كلامهم وصيره كلاماً حياً تألفه ارواح المستمعين ونحن اليه . ولم يقصد ادباء الالمان في ما افوهه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص وانما كانت غايتهم افهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الاصناف من اولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا) . فمن اجل هذا عدلوا عن الاخذ بعالي الطبقة من الانشاء المصنع واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وابناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفع روح الحياة في كلامهم

وادخلوا فيه كل ما يحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الالفاظ ولا على رعاية الاعد وصوروا في كلامهم الفرائب والمجائب التي تشوق الاسماع لاستطلاع حقائقها ولا تطفئ القلوب الا بعد الوصول لنهايتها فان الأذن تمشق بطبعها الاخبار ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصص (الحكواتي) من قهوة الى اخرى ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من اخبار عنتر بن شداد والوزير ابي ليلى المهمل والزناي خليفة وعلي الزبقي عايق زمانه وقصة الملك سيف والملك زاد بخت بن شهرمان وجميع ما ورد في الف ليلة ليلة من الحكايات . واذا بات بطل الرواية في ضيق وكره لا يهدأ بالهم ولا تنام اعينهم الا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له

وكان ادباء الالمان اذا القوا رواية فاجعة اخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم واذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لا سيما من القصص والحكايات الدارجة على السنة الامم الالمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الاولى وعلى قصص اليونان والرومان . كما فعل كوته (١٧٤٩ - ١٨٣٣ م) شيخ ادباء الالمان فانه اختار فوست بطلاً لروايته الشهيرة بهذا الاسم . وتداول اسم فوست على السنة العامة في المانيا وفي انكلترا قبل تأليف هذه الرواية الالمانية واشتهرت سيرته بين الناس بانه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين وأختاروا بطلاً لرواية اخرى (اكون) وهو امير في البحر هولاندي الاصل اشتهر في تاريخ الالمان بخدمته لشارلكن واتصاره على الفرنسيين وعلى ملكهم فرانسوا الاول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني . ومن بديع ما ألفه ايضاً الشاعر كوته قصة وارنر ثم ديوان الشرقيات (ديفان اورينتال) وهو مجموع أشعار نظمها على اسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي أحد مشاهير شعراء المعجم المتوفى سنة ٧٩٤ هـ أو ٧٩١ هجرية وكان الحافظ من اجتمع بئيمورلك حينما ضبط شيراز وجرى بينهما لطائف مشهورة . وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الاوربية كما ترجمت مؤلفات الاكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب

الشهامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح لدين سعدي صاحب الكلستان والبستان وترجمه الى الفرنسية الموسيو بارييه دومينار مدير مدرسة اللسان الشرقية بباريس . والكلستان مترجم الى العربية والتركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية . وكان الصليبيون قد امروا مؤلفه وحسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الابراج المحيطة بها من جهة البحر . فرق له احد الاغنياء من اعيان حلب وأقتاده بمال وخلصه من الاسر وكانت وفاته سنة ٦٩١ هـ . فافرنج زماننا يحترمون سعدي قدرنا احتقره اسلافهم وذكره فيكتور هوغو في مؤلفاته وقتل عنه . ومن مشاهير ادباء الالمان شيلر (١٧٥٩ - ١٨٠٥ م) وكان معاصراً لموته ورفيقاً له فاتخذ ولیم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم . وكان ولیم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها النمساويين وحررت البلاد من قيد اسارتهم سنة ١٣٠٧ م . والمذكر من خبره في التاريخ ان الدوق أي والي بلاد السويس المعين من قبل امبراطور الالمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة ورسم في رأسه تاج الدوقية وأمر الناس بالخضوع امامه . فرفض ولیم تل الانقياد لهذا الامر الذي فيه التحقير والاذلال لنوع الانسان مع ما اختصه الله به من الكرامة وورد في القرآن الشريف « ولقد كرّمنا بني آدم » ^(١) . وكان ولیم تل من أشده الابطال بأساً وامهرم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي وأحضر ديت يديه وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب . ففعل ذلك وقلبه يتميز من الغيظ واصاب الهدف بعد ان كان اخطاء اقرب اليه من الصواب . فصور الشاعر هذه القصة التاريخية وبين فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الالية على الظلم والجور والاستعباد . وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير اقواله فيهم اكثر من تأثيرها في المتأديين من الرجال المائلين الى العمل والتصنع في الكلام رالى الانشاء العالي الطبقة . لان كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من اصول الصك والسبك ومن انواع البديع

« ١ » ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً . ايه : (٧٠) سورة (١٧)

والاستعارات وفيه كثير من الالفاظ العامة والتراكيب المتداولة ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً وأخذاً بمجامع القلوب.

فيعد ان كان الالمان في الادب عبالاً على الفرنسيين وليس عندهم من المؤلفات الادبية الا ما هو ترجمة أو تقليد لما حرر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا ائمة في الادب يقتدى بهم وينسج على منوالهم . واشتهرت الطريقة التي سلكها كوته وشيلر وليستغ ومن اقتفى اثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الرومانيين وموظفونهم الى بلاد الغولوا والسلت اي افرنسا فتحرفت فيها وامتزجت بلسان الفرانك وانقلبت الى اللغة الفرنسية الحالية . فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دون بلسان رومان من فني المنظوم والمشور . وذلك مثل ميم ستراسبورغ وهو اقدم الابنية في لسان درومان ومثل رومان رولان ويقال لها ايضاً لغاني رولان ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك . فكانت المحررات الرومانية اي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين وانصلاوات الدينية . فاللسان اللاتيني كان اذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمعول عليه في انعم والدين . وكان في سبكه تصنع وتعمل ومراعاة لقواعد الغراماطيق والعروض وبقية علوم الالات المدرسية . ويلغون علوم الالات في العرية الى اثني عشر علماً كما لا يخفى . فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك بل كانت على فطرتها الطبيعية وليس في سبك عباراتها ادنى تصنع ولا تهذيب . فلما اختار أدباء الالمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريقة ادبهم بالطريقة الرومانية . واطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنسية على الادب المستحدث تسمية له باسم اجنبي كما اطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت وقبل لهم فرنساويون

طريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوغو تولدت في المانيا واشتهرت برقابها للطريقة المدرسية وبميلها لاطهار ترجمة القرون الوسطى وتصوير اخلاق اهلها وعوائدهم

وحماسة فرسانها وصلاتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الاخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات . واراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على اهل الطريقة المدرسية — لا بانتفاء الالفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد — بل بالاتيان بكل ما يحدث انفعلاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال . ولذا عمدوا الى القصص الدارجة على اللسان والمنقولة عن الاسلاف والحدود ووضعوها في قالب شعري والفوا بها رواياتهم واهملوا أساطير القرون الاولى من الاسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية . وجاء الفيلسوف الالماني هكل وفسر تفسيراً فلسفياً حقيقة الطريقة الرومانية وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الادب منذ نشأته الاولى الى زمانه وهي :

(١) الطريقة الرمزية (سيبوليك)

(٢) الطريقة المدرسية

(٣) الطريقة الرومانية كما سنذكره

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (اندرومات) اليونانية و (استير) و (اتالي) الاسرائيليتين ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الاخوة الثلاثة الرومانيين ثم حضر في مراسع الاساتذة وازمير او مراسع مصر واور با تمثيل رواية فوست مثلاً . فاول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهية والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وامامه مائدة تراكت فوقها الكتب والدفاتر والاقلام والمحابر وهو يفكر في ما يكون اليه المرجع والمآب ويقلب على نور السراج اوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلف على ايام الشباب وزمن التصابي ويقول :

اذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالحسرة للعلماء

وبعد ان يستولي اليأس على هذا الشيخ القاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس لذي يوسوس في صدور الناس ويحرضه على دعوة الشيطان اليه وتلاوة العزائم

عليه فبامرار التلاوات وخواص الطهينات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة ويعلمه ما أنزل على الملكين يابلي هاروت وماروت وما يعلمان من احدثى يقولان انما نحن فتنة فلا تكفر. وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشتري الضلالة بالهدى ويعلم منه ما يعيه الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الأكسير الذي من خواصه إعادة الشباب وقلب المعادن الى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات ويفرق في الهناء والمسرات ويمشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها ويفرق بسحره بينها وبين أمها ويستهوئها بالجواهر واللالي ويطفئها الشيطان .. فتستعق لعنة الله والملائكة والناس اجمعين . فيفتاظ اخو مارغريت من عمر اخته ويقف لعاشقها بالرصاد ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست . فتستحي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرشد منها فتقتل الولد الذي حملت به من فوست ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويقيمها في السجن فيأتي عاشقها لتهريبها وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الدامة من أخرى فلا نجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب الى الله توبة خالصة . واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فأنه غفور رحيم^(١) . فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها اليه فتخرم مئة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة الى عالم الارواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله

هبطت اليه من المحل الارفع ورقاء ذات تمرز وتمنع وتنشق في آخر الليل سماه المرسح وتظهر مارغريت بابهي الحلي والحلل في اعلى عليين بجانب اخواتها تحف بهن الملائكة المربون . وفوست يترانها والمبرات تسيل من عينيه . واختلفوا في فوست فقالت طائفة انه من المالكين ومقره في الدرك الاسفل من النار. وقالت طائفة أخرى لا بل اسشهد في الحب

وتاب الى الله قاب الله عليه والله خير التوابين . والذان يأتيانها منكم فآذوهما فان تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما ان الله كان توباً رحيماً . انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم وكان الله علماً حكماً (١)

وبرى المتفرج على هذه الرواية افعال السحر والسحارات المكارات اللواني يطبخن المواد السحرية في القدر و يصينها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق وبرى ايضاً اعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الانس وقدرته على خرق العوائد واظهار العجائب وعكسه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعادة النصرارى منه بالصليب . ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوزوا بها من شر الشيطان الرجيم . وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحجات وبجده في الماديات

ولما ذهب نابوليون الاول بعساكره الى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر كوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مولفاته افكار الادباء من الفرنسيين كما اتجهت قبلاً افكار ادباء الالماني نحو مولفات فولثير حينما كان في سراي بريان من المقربين وكانت اساليب الطريقة الرومانية دخلت فرانساً على عهد نابوليون الاول بواسطة شاتوبريان ومدام دوستايل

أما الاول فهو الامام الذي اقتدى به في الادب فيكتور هوغو وقال : « أما ان اكون شاتوبريان اولاً شي » . واسمه فرانسوارينه فيقونت دوشاتوبريان نسبة لشاتوبريان أي قصر بريان المشيد على نهر لوار بالقرب من نانت . وحيث كان من اشرف العائلات ذهب ايام الاقلاب الكبير الى اميركا وساح بين اهلها انسر مين وعاد منها لانكلترا ثم لفرانساً ونشر قصة (اتلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الامم المتوحشة . ثم نشر قصة (دينه) وقص فيها اخبار نفسه وبين افكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة . وامتاز بين

الكتاب بروفق الانشاء وكثرة التصورات والاحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الادب ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية) وأقبل على تدقيق هذا الدين وخرج لمشاهدة الاماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين اهلها فساح في اقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الاناضول ونشر سنة ١٨٠٩ كتاب الشهداء وبين فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة ١٨١١ (دليل السياحة من باريس الى القدس) وعرف الفرنسيون بشؤون القرون الوسطى بعد ان كان ادباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الاولى وبتقليد ادباء اليونان والرومان . وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الانشاء وجودة التحرير حديثة الظهور فاقبل على التحرير فيها وبرع في قوة التصوير والوصف التلوين وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور اساليب الطريقة الرومانية . ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية وتعين سنيماً ثم ناظراً للخارجية

اما المادام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير . اشتغلت بالعلوم والمعارف كما هي عادة سيدات النساء في ذاك العصر ونبتت في فنون الادب واصبحت عالمة فاضلة يشار اليها بالبنان . فخرت سنة ١٨١٠ م كتاباً مفيداً عن المازيا وكتبت عن الادب باعتبار ما له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية . فدرست درساً فلسفياً ادب اليونان واللاتين . وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول اهل الشمال من عقول اهل الجنوب . وذكرت الخواص المميزة لكل من الادب الطلياني والاسباني والانكليزي والالامي . وما لكل منهما من العلائق بالفكر السياسي والادبي . وشرحت تأثير الدين والاخلاق والشرائع على فنون الادب . واستنتجت من تدقيقاتها العميقة ان الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الاخلاقية والفلسفية والعلمية والسياسية . . . الخ ولكنه لم ينبع ناموس هذا ارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في التصورات الخيالية . فعندها ان الشاعر هومير وس خلاً لا يذهب بروفق كلامه وطلالوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة أخرى

ثم ظهر لامارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية فكان اول بناء من ابنية الشعر الجديد الموسيقي (ايريك) وخالف فيه اساليب من قدمه كما خالف المتنبي اساليب الشعراء الجاهليين . واشتمل ديوان لامارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب ونمجيّات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً . ومن أحسن ما نظمته قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقاً . وفهمت بان احمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعرية . وساح لامارتين في الشرق وأحسق عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير فكث فيها وفي ربي لبنان وحرر سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات ونظم ديوان الالحان الشعرية والدينية وغيرها

٢٢ - ظهور فيكتور هوغو

بجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنسيين وغير الفرنسيين تقدموا على فيكتور هوغو أو عاصروه ومهدوا له طريق الادب الجديد . وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تاتقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر والحصول انقلاب في الادب كما حصل انقلاب في السياسة . لان النشأة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية . وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد اصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية . فان رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا اساس الدين وسيبوا حدوث الفوضى في الامة . اي انهم افراطوا في جانب الدين والسياسة كما افراط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين . فكان الجمهور يترقب ظهور امام في الادب يعيد لهم الرجاء والامل بالله . والشعراء يترقبون ظهور هذا الامام ليخلص فن الادب من القيود الذي قيده بها بوالوفي كتابه المسمى (آر بوتييك) أي صناعة الشعر . فكاتبوا يتمنون كسر هذه القيود واعطاء الحرية التامة للفكر كما كسرت سلاسل الاستبداد وهدم بيت

المظالم الا وهو حبس الباسنيل الشهير وأطلق سراح المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً
 فظهر فيكتور هوغو وبرع في اللغة الفرنسية وفي طرق الافادة بها فضلاً
 عن معرفته بالفردات والتراكيب اللغوية . وصار له خبرة بما للكلمات من القيمة
 الموسيقية اى بالنغمة التي نحتها . بكل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات
 الكلمات والحنانها . لان الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن
 بحسب مخارج الحروف . وتختلف المخارج باختلاف اللسان ولذا ورد في الحديث
 الشريف « اقرؤا القرآن بلهون العرب »

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية « باجراش الكلام »
 ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لان الصمت يرن بالالفاظ رنة الجرس .
 وصار لفكتور هوغو ايضاً مهارة بعلم القوافي . فتوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو
 مكرر او مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع . والخلاصة كان يعرف أي
 كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي اتقاؤه لاني موضوع . وساعده
 الحظ في السفر الى رياض الاندلس التي تغذى القرائح بنفحات ازهارها وتقر
 العيون بحسن مناظرها . فصار ذهنة كانه آلة بديعة تفي بوظيفة السينما وغراف
 والفوتوغراف معاً . فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ، ويطلع ما يسمعه من
 حوادث الدهر ويعرضه على القراء والمستمعين بدون ان يضيع منه خبراً أو يفقد
 منظرآ . فصور في أشعاره الحائل وهي الشجر المجتمع الكثيف وكيفية تلاعب النسيم
 بأوراقها والاعصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الاخضر من الظل الظليل
 والجبال الراسية وما ينحدر عنها من الماء السلسيل والانهار الجارية وما ينعكس على
 مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس . ووصف صفيح البلالل وهديل الحمام
 وبنام الظباء وسجع البهام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والاشجار
 المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلك ايضاً تصويراً حقيقياً باوضح بيان
 وافصح تبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره انه ينظر الى لوح من اللوح المصورة
 بقلم الرسام وفرشاته . ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقض كلما اجتمع
 مع محبوبته في جوف الغابة . وجل الالفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على

الجسم فجاءت الفاظه طبقاً علم معانيه . وكان بمجرد نظره في المواد تنفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس ويصوغ لها على قدرها قوالب من الالفاظ والتراكيب كاحسن صانع للحل واهم سباك للمعادن . فكانت طريقته في بادئ الامر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة . ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الامة المستيقظة من غفلتها وكسر القيود التي قيد بها بالو عقول الشعراء وبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره واصلح عروض الشعر الفرساوي وغير تركيبه بمقاطع مختلفة وجوز تكيل معنى البيت بالبيت الذي بعده فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوزه المتقدمون وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات الفكر . وفتح لآخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الادب كانوا هائنين اقتحامها والولوج فيها

فوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها العتيقة . ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل اندره شينيه خاتمة اهل الطريقة المدرسية . بل اتخذ الذوق الطبيعي والاحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري واهل طريقتها الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين . فكلمنا شعر فيكتور هوكو بشيء صورته بقلبه كما يحس به في قلبه بدون نهافت منه على ترصيع الكلام بمجوهر البديع وتديججه بحلل المجاز والتشايه . فان اتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنع ولا تكلف فعم . والا فهو لا يهتم الا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر واذا اراد تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المصنعة ولم يذكر حركات المقرب على مينا الساعة ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس بل قال بذوقه الطبيعي :

« غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستمائة وسبع وخمسين ... » كما ورد في مطلع رواية قرومويل وهي من الروايات الشخصية المنظومة شعراً . فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان . وهذه الشطرة المطابقة الحال أبلغ من ضواها . ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام اندره شينيه . فكان المالك نهج هذه الطريقة اذا عطش قلبه حات اسقي كما قال ابو نواس :

الافاسقي خراً وقل لي هي الخمرُ ولا تسقي سرّاً اذا امكن الجهرُ
وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يجذب عن السوق الطبيعي ويصنع
كلامه ويقول : الا مالا بارد نطفي به حرارة جوفنا ، كما قال ذلك البارد المتنجي
فايضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بداً من تلخيص القواعد التي أوردتها
بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوغو في مقدمة رواية
كرومويل وعارض فيها بوالو وجميع المنسبين للطريقة المدرسية

٢٣ — طريقة بوالو .

نظم الشاعر الفرنسي بوالو كتابه الموسوم بصناعة الشعر سنة ١٦٧٤ م وهي
ارجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وانواعه . اعتنى الشاعر
في انشائها كثيراً وفكر فيها طويلاً لتكون قهدة ونموذجاً في الشعر واقتنى في نظمه
وتأليفها اثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم
بصناعة الشعر . ولارسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد
وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانس من ايطاليا سنة ١٨٧٣
ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لان
الافرنج لم يكن لهم الفة بأدب العرب في القرن السابع عشر . وانما كانت عنايتهم
باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علماء الى اللاتينية ولم يعودوا لدرسها الا في
اواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيفستر دوساسي في باريس
وشرح مقامات الحريري وألف الكتب المعتبرة . ولما ظهر ضيا باشا من متأخري
الأدباء العثمانيين وقرأ العربية ثم الفرنسية اقنئ اثر بوالو ونظم بالتركية كتابه
المعروف بالخرابات وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس والعرب . فجاء
كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها تخريب الخرابات وخطأه في كثير من
فالفصل الاول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد
التي اوجدها في الكلام على الطريقة المدرسية . واكثر المؤلف في هذا الفصل من
الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات .

وحذر كثيراً من الابتعاد عن سلامة الذوق ولو قدر شبر . وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على افانين الشعر المختلفة وعرف كل فن منها على حدته . وبلغت فنون الشعر عنده الى نحو اربعة عشر فناً . منها أنواع الغزل والتشبيب والمرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والادوار المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للانديلسيين . ومنها انواع المدح وانواع الهجاء والهزل والسخرية والدم المشابه للدح ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك . وتكلم ايضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيدا) أي الفاجعات و (الكوميديا) أي المضحكات وعرف كلاهما وبين الشروط المقضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل . وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يغنى عليه . وعرف ايضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (ايبوبه) ومعناها في الاصل الخطبة التي يقولها الخطيب .

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها . وذلك ان الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب ويأمل الوصال . ويظهر له رقيب فيشعر بيفضه و باقطاع رجائه من الوصال . وينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له . ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه . فيسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء ويشاهد ايضاً بدائع المخلوقات وينظر في خلق الارض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتفديس والترتيل . فكل واحد مما ذكر فن من افانين الشعر الموسيقي . ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف الشاعر التي يشعر بها واختلاف الالهام الذي يهبط عليه . ويمتريه من ذلك دهشة أو اندهال وحيرة وسرور وانشراح أو اقباض وحزن فيضرب ارمًا ذكر في نظمه وشعره

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان . فتقونا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لانه نشيد وغناء وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لان اسامه العمل . ولا يلتبس بالتاريخ الذي

هو خبر ورواية أيضاً لأن موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا اطراء ولا غلو .
وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر
الفروسية . واشهر كتب الحماسة الايلياذة والاونذيسة لهوميروس اليوناني . و (انبيد)
لفرجيل اللاتيني . والكوميذية الالهية لدانتي الطلياني . والجنة الضالمة للمتوف
الانكليزي . وتخليص اورشليم لطاسو الطلياني وهازياد لقواتر الفرنسي . والحماسة
البابوليونية لفيكتور هوكو . وعند اهل الشرق ماهاهاراته وراماياته للهنود والشهنامه
للفرس وكتب الحماسة للعرب واشهرها كتاب الحماسة لابي تمام حبيب بن اوس
الطائي وقد طبعه مع شرح ابي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق
الالمانى فريتنغ سنة ١٨٢٨ في مطبعة مدينة بونه . والجزء الاول من عكاظ الادب
هو في الحماسة الحميدية فهو (ايوبة) الحرب اليونانية الاخيرة كما حرر فيكتور
هوكو الايوبة البابوليونية . ومن امعن النظر في الشعر العربي وجد اكثره من قبيل
الشعر الموسيقي اي النشيد والاغاني وهو الممتاز بخاصته الشخصية وباظهار الحواس الباطنة
ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي وهو الذي روى فيه أخبار الحروب وأطنب
بشجاعة الشجعان . ووجد المقامات تشابه ما عند الافرنج من فن الكوميديا . غير
ان صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الالفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت
كصاحب الكوميديا لدرس اخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بافراد القوم أو
الهيئة الاجتماعية . وكان الباحثون في ادب العرب لا يجدون فيه مثلاً « للدرام »
الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم أفندي احمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر
الحادي عشر المنعقد سنة ١٨٩٧م في باريس رسالة الغفران للمعري وبين مشابهتها
بالكوميديا الالهية ووعد بنشرها . وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ رسالة
الغفران المذكورة سنة ١٣٠٧ هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي
وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الاسطانة . وهم اذ ذاك بطبعها
فحال دونه سفره لبلاد الاكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي
وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من ابناؤه امثال صلاح الدين الايوبي صاحب
الفتح القدسي . فاذا نشرت رسالة الغفران كما تطبع ترجمة الايلياذة الان في مطبعة

الهلل تمكن قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في ادب العرب غير الشعر
الموسقي والشعر الحماسي . والمأمول ممن ينشر رسالة الففران ان يقابل بين النسخة
المصرية والنسخة الاستامبولية لكيلا ينف ذهن المطالع كما حصل في المثال المتقول
سابقاً من كتاب اعجاز القرآن للباقلاني بسبب وجود بياض في الأصل^(١) . ومن دقق
النظر في لزوميات المعرى عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الافر وافر
القريحة ولم يشبهه في ان كتابه الموسم بالايك والفصون لم يفادر صغيرة ولا كبيرة
من فنون الشعر والادب ، الا أحصاها . وقد أطب المؤرخون في كلامهم على كتاب
الايك والفصون وزعموا انه في مائة مجلد . ولكن اذا نظرنا في قولهم ان اللزوميات
في خمسة مجلدات ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين
حاشا ذلك على الظن بان المائة مجلد من كتاب الايك والفصون هي بمثابة عشرين
مجلداً من اللزوميات طبعة الهند أو اربعين مجلداً من طبعة مصر . وعلى كل فهو من اعظم
دوائر المعارف الادبية في لسان العرب . ولا يميز عن الاثني بمثلا رهين المحبين
والايك هو الشجر الكثير المتلف . نكاته أشار بهذا الاسم الى ان الكتاب شامل
لاصول الادب وفروعه

ثم ان بولو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم
اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي
ان يتخلق به الشاعر من الاخلاق الحميدة وما يجب ان يحض عليه من الخير
والمعروف . فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بان هذا الفصل من مباحث علم الاخلاق
لا من مباحث العلم والادب . ولاموه ايضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب
الالفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف والزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في
كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها . وقالوا بان الشعر هو الهام من الله والطبيعة
رنو ، بفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله ولا يمكن تعليم ذلك ولا
تحديده بالحدود . والتعاريف والصحيح ان بولو يعترف بأن اساس الفكر المعاني
الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد ويقول بانها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي

(١) طبعت رسالة الففران بمصر سنة ١٩٠٨ ومصححها المرحوم الشيخ ابراهيم البازمي

في قريحة الشاعر . وانما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير اي في قوالب الالفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية .

٢٤ - هوغو والادب الفرنسي

ولما ألف فيكتور هوغو رواية كرومويل التمثيلية سنة ١٨٢٧ وضع لها مقدمة بين فيها ما هو الاساس الذي أنشأ عليه ابنة اوراقه وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فاكهة روايته . كما وضع المعري مقدمة للزوم ما يلزم وافتتحها بقوله : « كان من سوائف الاقضية اني انشأت ابنة اوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونزعتها عن الكذب والمبط » . ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب وبين اللوازم التي تلزم القافية بدون ان يفتر اليها حشو البيت واتى لها بالامثال والشواهد المعبرة من كلام الحكمة والموعظة الحسنة كما هو مفصل في بابها . فخلاصة مقدمة كرومويل :

ان الانسان منذ النشأة الاولى الى الزمان الحاضر تقلب باعتبار تمدن اي الحضارة والعمران في ثلاث ادوار : (١) القرون الابتدائية (٢) القرون القديمة (٣) القرون الاخيرة . وحيث كان الشعر سابقاً على اجتماع الانسان وملزماً له فقد قلب معه ايضاً في ثلاثة اشكال :

(١) الشعر الموسيقي اي الغناء ^(١) (ليريك)

(٢) الشعر الحماسي اي الحماسة (ايبيك)

(٣) الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك)

وذلك ان الانسان لما اتبه في القرون الابتدائية لعوالم الموجودات - وكانت

(١) قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي ايضاً . لان الغناء انما هو تلحين الشعر موسيقياً كان او حماسياً . ولكن الغالب في الغناء اظهار ما في نفس الانسان من الحب والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية . وكتاب الاغاني الفه ابوالفرج الاصفهاني مبنء على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشد . ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء فهو ديوان العرب

قريبة عهد بالحدوث — اتبه معه الشعر . فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات واسكرته الدهشة حتى لم يكن اول كلامه الا « هيلة » . وكان تفكره تجلياً وجذباً ونصوره وحياً لقربه من موجد الكائنات وودو الله . فكان يتأجج بقلبه وبهلهل بلسانه كما يتنفس برقبته . ولم يكن يعود الا ثلاثة اوتار الخالق والنفس والمخلوقات . (١) غير ان هذا السر المثلث يشل كل ما في الوجود . وكانت الارض مقفرة تقريباً وليس عليها من بني آدم الا بطون وفصائل ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب وكان لهم آباء لا ملوك . وكل عرق من عروق البشر متمتع بيفائه ولا معرفة لافرادة بالملكية ولا بالشرعية ولا بالخصومة ولا بالحرب . بل الكل لكل واحد وللكل فكان الاجتماع الانساني شركة لا شيء فيها يضايق افراد الانسان . وكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبدواة التي ابتدأ منها كل تمدن وعمران . وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسائنات الفكر وهو اجس القلب . فكانت نفس الانسان سائحة على جناح الاهواء سابحة في بحر الخيالات وفكره اشبه بسحابة تسيرها الرياح وتغير شكلها ووجهتها بحسب مهبطها . فهذا هو الانسان الاول . وهذا هو الشاعر الاول . فهو شاب وموسيقي . ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء وشعره الغناء . فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو « سفر التكوين »

ثم زال عن الانسانية هذا الشاب رويداً رويداً واتسعت فيها جميع الدوائر . وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وامة . واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الانساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك . وحلت طبيعة العمران محل طبيعة البدواة وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرحال بالمداين وتابوت العهد بالهيكل . واصبح رؤساء هذه الدول المستعذبة رعاة — للواشي — بل للشعوب والامم وتبدلت عصا الرعاة بصولجان الملك . ووقف كل شيء وتعين . واخذ الدين شكلاً خضرساً واقلبت الصلاة من المعنى اللغوي الى المعنى المصطلح عليه عند اهل كل مذهب . وتعينت اقوالها وافعالها بحسب ذلك المذهب . وضرب الاعتقاد لفظه

(١) لا يخفى ان فيكتور هوغو حينما ألف رواية كرومويل كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي ولذا فهو يرى الثلبث في كل امر ومسئلة .

على العبادة . وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك ابوة الشعب وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الابوية الجمعية الثوقراطية وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة . وازدحمت الشعوب والامم على سطح الكرة فتضايقت وتخاصمت وانتشبت بينهم الحروب واصطدمت الممالك بعضها ببعض وطفئ قوم على قوم .. فاجب هذا الطغيان مهاجمة الشعوب والامم وتفريدهم ورحلاتهم . وتصور الشعر هذه الوقائع العظيمة . وانتقل بذلك من الافكار الى الاشياء ونفى بالقرون والشعوب والممالك وصار حماسة وولد هوميروس فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن معرف للاجتماع الانساني في القرون القديمة . . وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وخماسي . والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون . فبعد بكاراة الدور الاول ظهرت طهارة الدور الثاني من ادوار الإنسانية . واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الاخلاق البيتية والاخلاق العمومية . ولم تحفظ الشعوب من عوائدهم بداوتها الا حرمة الغريب ورعاية ابن السبيل . وصار للعائلة وطن ير بطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور

فالتعبير عن مثل هذا التمدن لا يمكن ان يكون اشعار الحماسة . وتقلبت اشعار الحماسة في اشكال كثيرة بدون أن تضع خاصتها المميزة لها . فاذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقب بأمير الشعراء الغنائين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتياً اكثر مما هو ابوي وحساسياً اكثر مما هو موسيقي . وفي هذا الدور الثاني من ادوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأرخوا القرون . ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستترم نحو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسة وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هو هوميروس ثان . ومن نظر في روايات التراجيديات القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومثلوها على مراسهم تبينت جلياً أساليب شعر الحماسة ورأى علوم في كل شيء ونجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة . فالاشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وانصاف الآلهة والآلهة . ومواضيع الروايات احلام وهواتف ومقدرات والواحا تعداد نفوس وتشيع جنازات وحروب وغارات . وما كان ينشده الرواة من الاشعار كان يشدو به الممثلون . فمن التمثيل عند اليونان كان مقتصرأ على هذا

قط . وكانوا يبنون مراسيمهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وانما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفياتيتر) وموضع التمثيل على الارض في صحن المسرح وهو في غابة السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وابراجها ومدينة باسواقها ومعسكر بمهماته . وكذا محل المتفرجين يستوعب ثلاثين الف متفرج . مع ان مراسع الاوروبيين لا تستوعب اربعة آلاف . والمسرح الفرنسي في باريس لا يستوعب الا ١٤٠٠٠ ومرسح الاوربره فيها يستوعب ٢٢٠٠ ومرسح الشاتيلة وهو اكبر المراسع في باريس يستوعب ٣٦٠٠ وكان التمثيل عند اليونان يتبدى في الصباح ولا ينتهي الا في المساء . وربما مثل في المرة الواحدة روايتين أو اكثر . وكان المثلون يفخمون اصواتهم ويعظمون قياقاتهم ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد أو البطل الصندي الذي يمثل دوره . فيمثل برومته بن تيتان وهر مقيد بالسلاسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في احشائه . لانه صور من طين الارض على هيئة الانسان ثم اراد ان يأخذ من نار السماء أو نورها لينفخ فيه الروح فاغضب الآلهة وجازاه كبيرم بذلك الجزاء على ما اقترفت يده . ويمثل ايضا اتيفون وهي في اعلى الابراج تقتش عن اخيها الذي كان في معسكر الاعداء من الفينيقيين . وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد باربعائة سنة وسماها (اديب الملك) ونسج على منوالها الشاعر الفرنسي فولثير وسمى روايته الفرنسية بهذا الاسم أيضاً . راديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل اياه وملك على قومه ونزوح بأمه بدون علم منه . فلما وقف على حقيقة الامر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه يديه وخرج من ملكه هاجاً وابنته اتيفون تهوده . ويمثل المثلون أيضاً على مراسع اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميراً يتبعهم من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر ايشيل قبل الميلاد بخمسة قرون . فكان يجتمع على مراسيمهم فخامة البناء مع فخامة الكلام . ويمتزج التاريخ بالدين . وكان أول المضحكين عندهم من الكهان . وكانت العاهم احتفالات دينية ومواسم أهلية . فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من اشعار

الحماسة وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس وروايتهم مستنتجة من الياذة
والاوذية ومواضيع الجميع منها يعود الى محاصرة تروادة .

٢٤ - الديانة المسيحية والادب

ثم اخذ هذا الدور الثاني من ادوار الشعر يتعاقص ويتعق كما تعاق العشرات
القديم وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين ونسخ شاعرهم فيرجيل عن
هوميروس . وانتهى ذور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة
المسيحية . فالديانة الوثنية مادية ظاهرية والديانة المسيحية روحانية باطنية فلما حلت
احدهما محل الاخرى ودخل الايمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في
جنازته المتعنة جرثومة التمدن الحديث وثبت بتعاليمه دعائم الاخلاق . واول حقيقة
جاء بها هذا الدين هي القول بوحود حياتين للانسان . احدهما فانية والثانية خالدة
احدهما على الارض والثانية في السماء . واعلم الانسان بانه مركب من حيوانية
ونطق أي من جسد ونفس . وبانه نقطة الفضل المشترك وهو في علم الهندسة النقطة
المشتركة بين خطين والخط المشترك بين سطحين والسطح المشترك بين جسمين
أو بانه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات احدهما تتألف من الماديات
والثانية من الروحانيات . احدهما تبتدى من الجاد وترتقي للانسان . والثانية
تبتدى من الانسان وتصل الى الله

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق ولكن اول من اوضحها
وجلاها الانجيل الشريف . فاصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء وساروا في
غلام الليل على هدى ولم يفرقوا في طريقهم بين الحق والباطل . والبعض من
فلاسفتهم افاض من نبراس حكمته على الاشياء نوراً طفيفاً لم يضيء منها الا الجانب
الاصفر وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الاكبر . فنشأ من ذلك تلك الاشباح
والخيلات التي وردت في فلسفة المتقدمين واساطيرهم . لان اضاءة تلك الاشياء
بتامها لا تبسر الا بنور الحكمة الالهية . فلما جاء امر الله قام النور الالهي مقام
هانيك الانوار المرتجة التي انت بها الحكمة الانسانية . وكان فيثاغورس وبقرات

وسقراط وافلاطون سرج الليل فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءاً للنهار
فحيث كانت عبادة الاوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الاقدمين التفريق بين
الروح والجسد كما في الديانة المسيحية . بل اوجدوا شكلاً وهيئة لغير الماديات
وشخصوا المنويات . فكل شيء عندهم مرئي ، محسوس ، متجسد . واهتمهم
مفقرون لسعادة يختفون فيها عن الابصار . فهم يأكلون ويشربون وينامون .
وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء . ويلقي بهم من السماء الى الارض فيتحطمون
كما حدث لفولكين اله النار حينما حملت به ابيه من (جوبيتر) المشتري كبير الالهة
ووضعت في اشنع صورة فاستنكفت منه ان يكون ابنها ورمته به الى الارض فهبط
على جزيرة لبين من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله . وذهب لبركان اتنا ووضع
فيه كور الحديد . فهو يخرج من وقته ويشغل في صنعه ابد الابدين ودهر
الداهرين . ومن هؤلاء المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم انصاف آلهة فقط .
ودنيائهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الالهة . وشمسهم يجرها في مركبه
اربع رؤس من جياذ الخيل . وجهنهم هاوية عميقة يمين الجغرافيون فوهتها على
سطح الكرة . وجنتهم على جبل اوليموس في تساليا يسكنها لآلهة ويتلذذون
بنعيمها . فالديانة الوثنية عجت جميع المفتريات من أساطيرها في طينة واحدة
وصفرت آلهتها وكبرت اودمبا حتى تشابه الغاني بالحلي الذي لا يموت . فالابطال
الذين تكلم عنهم هوميروس في اشعاره كادوا يكونون اقرباً للمعبودين . فابو
الفوارس اجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة تروادة واعلن الحرب
عليه وعلى جماعته . واشيل غنرة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريح
(مارس) له الحرب وجلاد الفلك . بخلاف الدين المسيحي فانه فرق بين المادة
والروح . وحفر وادياً عميقاً بين الجسد والنفس ووادياً آخر بين الانسان والآلهة
فظهر النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً
للتقدمين واتسمت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً . فهذا الشعور
هو المألخوليا أي السوداء وهي اشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخف
من الحزن . فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها العزاج السوداء وجعلت

الصلاة للفقير كالغنى للغني وأسست بين الناس المماواة والشفقة والحرية . فندادخل الانجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة اصبح المتمسكون به يرون الاشياء بشكل جديد

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه ان لا يحصل انقلاب في العقول . لان الانقلابات التي حدثت قبل ذلك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام اخرى ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم . بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب الا لاما كن العاليه والمقامات المرتفعة فعبروا عنها باشعار الحماسة . ففي الاجتماع الانساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه الا اذا نزلت يته وأصابته أهله . ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج إلا لام البيتة . ولا كان يسمع في تلك الاجيال بان المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية . فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة ابان انتشار الديانة المسيحية واصبح الامم الاوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالامواج في البحر الهجاج وانقرض التمدن القديم باستيلاء الاقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من افرادهم . وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة وعرفوا بان هذه الدنيا الفانية ما هي الا هزر ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل ان يغتر بها . فهذا الشعور الذي ولد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الاديب قانن . ولد في قلوب المنتصرين المالبخولوا وهي السوداء

وفي ذاك التاريخ ايضاً تولد فكر التجسس والاختبار . لان تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مثلت على مسرح الدنيا وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة . فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبة الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني . فاصبح يقاسي نزاع الموت وبلغت روحه التراقي . فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين واليانين والسفسطائيين يتقاتلون على جنازته ويقبلون جسده الذي لاهراك به . ويشرحون ويفسرون ويعبرون ويحللون ويناقشون

ويجادلون كلهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم . فمن سعادة هؤلاء
المشرحين للعقول وحسن حفظهم انهم وجدوا جيفة يجرون عليها اول تجاربهم
ويسبرون قروحها بمسبارهم . فكان اول جسد شرحوه جسد امة مينة
وعلى هذا الوجه نرى الان ظهور جنية المايلخوليا والتفكر بجانب عفريت
التحليل والتضاد . ونجد في احد طرفي هذا الدور الاتقالي البياني الشهير لونيچين
(٢١٠ — ٢٧٣ م) ولد في حمص من سوريا والف باليونانية في علم البيان رسالة
الاعجاز التي ترجمها بوالوال لمرنساوية . ونجد في الطرف الاخر القديس اوغوستين
(٣٥٤ — ٤٣٠ م) صاحب المؤلفات اللاتينية . فجميع ادباء القرون الوسطى
استقوا افانين العلم والادب من حياض الروم في القسطنطينية . ولا يجوز لنا
احتقار هذا الدور الاتقالي من ادوار الادب لان فيه النطفة التي تخلفت وولدت
وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم ببديع جمالها . فكتبة ذلك الدور — ونرجو
هضم هذا التعبير الحرمع انه يسوق مبتذل — زبلوا رياض الادب ليجتني
المتأخرون ثمارها

نبحث كان هناك دين جديد وامة جديدة اقتضى ان ينشأ على هذين الاساسين
أبنية جديدة في الشعر . لان شعر المتقدمين كان حماسية صرفاً وبسبب تأثير الدين
الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها
الا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال . وينبذون وراء ظهورهم جميع ما لا علاقة له بشي
من نموذج الجمال بدون ان تأخذهم رافة على صناعة الادب المقتضي لها تقليد ما في
الطبيعة من خير أو شر . فهذه الطريقة كانت في بادىء امرها معتبرة . ولكن
باضطرادها على قياس واحد زال رونقها وذابت طلاوتها ونقصت قيمتها كما هو
شأن كل ما اضطرر على وتيرة واحدة . فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر الى
الحقيقة ووضعه في مكانه . وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بين
اوسع وأرق مما كانت تراه قريحة الشاعر الوثني . فشمرت هذه القريحة الجديدة
بان المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الانسان بل الشنيع منها بجانب الجميل
والمستظرف بقرب المستقيح والشر أكثر من الخير والظلام سابق النور والجد

مخلوط بالهزل وكلام السخرية وراء الاعجاز بالفصاحة . فقات القريحة في نفسها
أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية ؟
أبلغ من حد الشاعر ان يقوم ما اعوج على زعمه من خلق الله ؟
وهل الابتور والاجدع والاجذم أحمل من كامل الاعضاء ؟ .
وهل بحق لصناعة الادب ان تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الانسانية
والحياة والمخلوقات ؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم أولولب من الذولاب ان أريد انتظام دورانه
وهل من الواجب على المطرب ان لا يعرب ؟
ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكة مرهبة معاً
واعترافاً المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي واثراً عليها ايضاً الانتقاد
الفلسفي المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فحطت في الادب خطوة كبرى زلزلت بها
العالم العقلي وقلبت عاليه سافله وحذت في الشعر حذو الطبيعة وخاطت في اختلاق
المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الاعجاز بالفصاحة بدون ان تمزج
أحدهما بالثاني . وبتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد وبين الحيوانية
والنطق . لان الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها
الآخر . فوجدت في الشعر نموذجاً جديداً واسلوباً غريباً بالنظر للتمهدين .
وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه . فهذا النموذج وهذا الشرط هو
كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية . فهذا هو الفرق الذي يفرق في
نظرنا بين صناعة الادب الجديدة وصناعة الادب القديمة وبين الشكل الجديد
الحي والشكل القديم الميت . او بتعبير اشهر من هذا ولو كان مبهماً هذا هو الفرق
بين ادب الطريقة الرومانية وادب طريقة المدرسة

فيقول لنا حينئذ اهل الطريقة المدرسية :

— ها نحن امسكناكم واخذناكم بالسنتكم . انتم تتخذون من القبيح نموذجاً
لتقليد ومن كلام السخرية اسلوباً لصناعة الادب ؟ ولكن اين الطائفة في ذلك
اين حسن الذوق ؟ اما تدرون ان صناعة الادب ينبغي لها ان تقوم ما اعوج

من الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الواجب عليها اعلاء شأن الطبيعة ؟ اما تعلمون ان الاجدر بها انتخاب الاحسن مما في الطبيعة ؟ هل ادخل المتقدمون القبيح او السخرية في كلامهم ؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا ؟ فاتبعوا ياسادة اساليب المتقدمين واقفوا في فنون الادب اثر ارسطو وبوالو ولا هارب الخ

— وفي الواقع ان حجج اهل الطريقة المدرسية دافعة . ولكن لسنا مكافئين بالرد عليهم لاننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالمقال كما قيده . اذ حمانا الله من القواعد ! وانما نحن حققنا وجود امر فحن مؤرخون ولسنا متقدين ولا مشرعين . فهذا الامر موجود سواء اعجبهم أو لم يعجبهم . فكريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام الى نموذج الاعجاز بالفصاحة . وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الاشكال في تصويراتها . بخلاف الشعر القديمهزاه وحيد الشكل وحيد الاسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة . فهذا هو الفرق الحقيقي والاساسي بين ادب الطريقتين الرومانية والمدرسية

نعم ان المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددها اذ لا بد لكل شيء من اصل . وجرثومة الدور الثاني لا بد من ان تكون في الدور السابق عليه . ففي الايلياذة كل من (فولكين) و (نيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا . والاول مثال الآلهة وقد مر ذكر السبب في عرجه وائس على اعرج من حرج . والثاني مثال للبشر ووصف هوميروس في الفصل الثاني من الايلياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبين كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك . فكان في محاربة تروادة مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لان فيه جميع النقائص والعيوب . ومن امثلة السخرية أيضاً مكاملة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانة) التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الاشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد انسان ونصفه الاخر سمكة والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الانس كأنهن حور الجنات كل واحد من ذلك نموذج

للسخرية . غير أن ادباء اليونان الاقدمين لم يتمكنوا من ايفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعار حماسهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظة والجلالة . فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لانها مسورة بجلالة الشكل الحماسي واسلوب الحماسة يفوق فيها على اسلوب السخرية وينعما من الظهور والبيان . يختلف الادباء المتأخرين فان اسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم . وهو في كل موضع من كلامهم . ويصورون بهذا الاسلوب الشاعة والفضاعة من جهة والعب من جهة اخرى . ويلحقون به في الدين الف وسوسة واباطيل غريبة وفي الشعر الف معنى مبتكر وتصور بديع . فالسلوب السخرية هو الذي اوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الانسان والله من عوالم الجن والروح والملك وملوا بها الهواء والماء والارض والنفوس في الفضاء الا وهي ساكنة فيه . ومنها من هو على اكتافنا يكتب اعماله ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منا الا بالضرب الشديد والعذيب . وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وارجل الخنزير وأجنحة الخفاش وجرت الشاعر دانتي الطلياني وماتون الانكليزي الى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالاوصاف الهائلة والاشكال المخيفة حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكلا انجلو وقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها اليوم الآخر وهو يوم العرض والحساب . ولو قرأ القرآن الكريم لصور جهنم ترمي بشرر كالعصر كانه جمالة صفر . ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهن في رواية ماقبت وأنواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخيفة والعيون الجارية والاشجار الكبيرة . وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المشبة وانعاين التي تحاكي في الضخامة الغلبة وتحرق بنفسها كل مخضر ونحو ذلك . فالتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام افصح وأبلغ من كلام المتقدمين

فالسلوب السخرية ما هو في نظرنا الا ضد قام بجانب اسلوب الاعجاز بالفصاحة

لميزه ويظهره . لان الاشياء تتميز بضدها . فهو اغزر المنافع التي فتحها الطبيعة لصناعة الادب . فطريفة المتقدمين أورثت الملل والكلال باطرادها على نسق واحد ومراعاتها لاسلوب واحد وهو اسلوب الاعجاز . لان الاعجاز على الاعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلويحان متعب للفكر لمحمد للذهن . فاذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكه العقل وارتاح مما اجهده واضناه واستأنف السير نحو الاعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل . ثم لا ينبغي ان الجليل اذا قرن بالقييح زاد جماله رونقا وصفاء وتلاؤءا واعتلاء . ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألد واشهى من جنان الايليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل . لان ميلتون صور تحت جنة عدن جهنماً أشد دهشة ونكالا من (تارتار) المتقدمين . ولو لم يصف لنا دانتي حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة ييزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد ان اكل اولاده لا وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دوريمني ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم اذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الاليم لما كان فيه تلك الخلاوة الرائقة والمذوبة السائفة

ففي شعر المتأخرين الاعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية . والسخرية أي الهزر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الانسان . فالنموذج الاول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللاطفة والركة والخلاوة . واخرج من خدور الافكار عرائس مثل جوليت واوفيله اللتين صاغها شكسبير في رواية روميو وجوليت ورواية هاملت . ولعلها تشبهان ليلي التي افتتن بها قبس العامري على عهد الدولة الاموية ولقب لاجلها بمجنون ليلي . وفاطمة التي هام بحبها امرؤ القيس وقال لها « افاطم مهلاً بعض هذا الدلل » والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والردائل الدينية وفي جر المنافع ولو بايقاع المفاسد والجنايات . فهو فسيق ، ذني ، شره ، مهذار ، بخيل ، طماع ، مرائي ، مفسد ، مقتن ، قواد ، غدار ، كذاب ، محتل . ويتمثل في صورة باصيل وفيغارو وتارتوف وهارباغون . والاول اسم راهب يحب مسامرة

العاشقين على اهوائهم ولكنه كثير الطمع في اموالهم . والثاني اسم خادم نشيط ظريف قواد لسيدته اوصله الى معشوقته ومكنه من وصلها بمهارة حيله ودسائسه . وهما من الاشخاص التي اوجدها مارش في رواية 'حلاق اشبيليه' (و(زواج فيغارو) ونكت بها على اخلاق المعاصرين من الفرنسيين قبل الانقلاب الكبير أي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر ويصف اسرافهم واستهزأ بافعالهم . وفي سنة ١٨٥٤ أي في عهد الامبراطورية الثانية انشأ احمد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) اشارة الى انها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيك وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لامر . فاصبحت جريدة الفيجارو اليوم من اعظم الجرائد اليومية في باريس . و(تارتوف) نموذج الرياء وهارباغون نموذج البخل وهما من اشخاص روايات مولير . ويمكن ان يعد من هذا القبيل أيضاً ابو زيد السروجي في وعظه للاس باواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمير والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري . فالجيل ليس له الا نموذج واحد والقيح له الف نموذج لان جمال الجيل ما هو الانسبي بالنظر الى الانسان . وباعتبار تركيب اعضائه والقيح له نسبة وعلاقة مع غير الانسان فهو جيل بالنسبة الى عموم المخلوقات وقيح بالنظر للانسان وحده

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقفاً بجانب الاعجاز بالفصاحة وكثير استعمال السخرية في الادب في الرسم والتصوير والحفر وفي الاخلاق والعادات كالرسوم التي احسن في تصويرها المصور الشهير ميكل انجلو الفلبياني والمصور مولير الاسباني وابدع ما انت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود الى السماء ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس ومزج كلام السخرية بكلام الاعجاز وصاغ منهما الدرام . فشكسبير هو ابو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من ادوار الشعر والادب المصري وهو جامع للرهب والمضحك من الكلام اي للكوميديا وللتراجيديا

٣٦ — الاجال

فاجالاً لما تقدم لنا ذكره قعيل :

ان الشعر له ثلاثة ادوار وهي الغناء والحامسة والدرام . ولكل منها مناسبة بدور من ادوار الاجماع الانساني الذي هو عمران العالم . فاقرون الابتدائية غنائية . والقرون القديمة حماسية . والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الازل والحامسة تحتفل بالتاريخ والدرام بصور حياة الانسان . وخاصة الاول السذاجة . وخاصة الثاني البساطة . وخاصة الثالث الحقيقة : فرواة اليونان — ويسمونهم رابزود وهم اشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الراوية وكأوا يطوفون القرى ويروون اشعار بندار وهوميروس وأيشيل — يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين اى الباطمين لشعر الاغاني الى الشعراء الحماسيين . والرومانيون أي مؤلفو الرومانات وهي الاقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين الى الشعراء الدراميين . وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون . وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان اسباب الوقائع وعملها

وأشخاص شعر الاغاني عظام الاجسام طوال القامات والاعمار مثل آدم وقايل وهايل ونوح . ويدخل في زمريهم عوج بن عناق . وأشخاص شعر الحامسة من القوم الجبارين وهم اقوياء اشداء . مثل اشيل بطل الحروب اليونانية واستره آلهة العدل وأوريست بن اغاممنون الذي الف فيه شعراء اليونان واياتهم . ثم جاء فولتر ونسج على منوالها روايته المشهورة باسم اوريست . ويدخل في زمريهم عنتره بن شداد . وأشخاص الدرام هم بشرى على الصورة الحقيقية للانسان مثل هاملت وماقت واوتيلو الذين صورهم شكسبير في رواياته المشهورة بهذه الاسماء . وربما دخل في زمريهم أبو زيد السروجي في مقامات الحريري والشيخ علي بن منصور الحلبي في رسالة غفران المعري . ومنبع الاغاني الوهم والخيال ومنبع الحامسة العظمة والغفامة ومنبع الدرام الحقيقة . وتتفجر هذه البنايع الثلاثة من ثلاثة بحور كبيرة التوراة وهوميروس وشكسبير

فهذه هي اشكال الفكر المختلفة بحسب اختلاف القرون التي قلب فيها الانسان والعمران . وهي في ثلاثة ادوار الشباب والكهولة والشيوخوخة فسواء نظرنا في أدب امة على حداثتها او في أدب البشر على وجه الموم فالتبجة التي نستنتجها من جميع ذلك واحدة . وهي تقدم الشعراء المغمنين او الغنائين وهم الناظمون أشعار الاغاني على الشعراء الحماسيين أي الناظمين شعر الحماسة . وتقدم الشعراء الحماسيين على الشعراء الدراميين . ففي فرانس ما ليرب (١٥٥٥ - ١٦٢٨ م) سابق على شابلين (١٥٩٥ - ١٦٢٤ م) وشابلين سابق على قوزفيل (١٦٠٦ - ١٦٨٤ م) والاول هو الشاعر الغنائي (ليريك) الذي اصلح اللغة الفرنسية وقال فيه بوالو « وفي النهاية اتى ما ليرب » فذهبت مثلاً . وأما الثاني فانتقد عليه بوالو في الشعر وسخر به حتى جعله اعجوبة وهزأ . ويلقب الثالث بأبي التراجيديا وهي الروايات الفاجعات . وكذلك الحال عند قدماء اليونان فشاعريهم المسمى (اورفيوس) متقدم على هوميروس . وهوميروس متقدم على (أيسيل) . الملقب بابي الترجيديا اليونانية . وفي كتاب العهد القديم أي التوراة سفر التكوين متقدم على سفر الملوك وسفر الملوك متقدم على سفر ايوب عليه السلام . واذا نظرنا في ادب البشر على وجه العموم رى التوراة قبل الايلياذة والالياذة قبل شكسبير

ولا غرو في ذلك فان الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم يسدى في الترنم بما يتخيله . ثم يقص ما يعمل . ثم يصور ما يفكره . فالدرام مجتمعه بين الاوصاف المتضادة كان اوعب للافكار الفلسفية والتصورات العميقة . وكل ما في الطبيعة وما في الحياة يتقلب في هذه الاشكال الثلاثة وهي الغناء والحماسة والدرام . لان كل ما في الوجود يولد ويعمل ويموت . ولو ابيح التعبير عن الحقائق البرهانية بالتخيالات الشعرية لقال الشاعر بلسان الشعر ان الشمس عند طلوعها ترنم بالغناء وعند القائلة أي الظهيرة تفاخر بالحماسة وعنا الغروب تنجع بالمصيبة وهي الدرام . فهذا التعبير هو من باب الشعر وربما كان ضرباً من الجنون . انتهى كلامه ببعض تصرف وزيادة

ثم شرع صاحب مقدمة كرومويل في الرد على اصحاب الطريقة المدرسية في

تقسيمهم الشعر الى الاجناس التي سبق ذكرها في الكلام على بوالو وفي تحديد كل جنس منها بالحدود والتعاريف وفي تفريقهم بين التراجيديا والكوميديا . وابطل قولهم بلزوم وحدة الزمان والمكان في الروايات التمثيلية ولم يقبل من وحدتهم الثلاثة الا وحدة العمل . وقد ضربنا صفحاً عن ايراد كلامه في هذه المباحث مراراً من التطويل ولان الروايات التمثيلية على ما فيها من الفوائد الجلية في اساليب البلاغة لم تشتهر لهذا الزمان بين المتكلمين بالعربية ولا اعتنى فحول ادبائنا في تأليف الروايات لا بالنظم ولا بالسجع ولا بالنثر كما نعت النشأة الجديدة من ادباء اللسان العثماني

وقد حض فيكتور هوكو في تلك المقدمة على تأليف روايات (الدرام) بالشعر لا بالنثر وقال : بان بيت الشعر يحيط بالمعنى احاطة اثوب الافرنجي بالبدن ويضيق عليه ويوضحه معاً . ويمطيه شكلاً الف وادق وأنم من شكل النثر . ويدبره علينا كانه نوع من انواع الاكسير الذي استخرجه الكيميائيون من خير الذهب وزعموا ان فيه لذة للشاربين وشفاء للاجسام من جميع العلل والاسقام . فبيت الشعر على رأي فيكتور هوكو هو القالب الشفاف المعنى . واذا تطف الشاعر في نظمه وانشائه اكسب المعنى روتقاً لولا بيت الشعر لمرّ ذاك المعنى غير ملتفت اليه . فانشعر هو العقدة التي تربط سلك المعاني أو المنطقة التي تضم حواشي الهدم على الجسم وتطويه طيات متناسبة بالهندام . والشعر يزيل من الالفاظ ما هو سوقي مبتذل أو عامي سخيف ويكسب المعاني حلاوة وطلاوة ورشاقة . سيما اذا اقتصر الشاعر على استعمال الالفاظ المتعارفة بين الناس المتداولة على اللسان . وترك ما كان وحشياً غريباً في اللغة . وعرض فيكتور هوكو بالذاهبين الى ان « أعذب الشعر اكذبه » بقوله ليت شعري ما الذي يضع من الشعر ان دخلت فيه الطبيعة والحقيقة ؟ وهل تنقص الخرصفة من اوصافها ان وضعت في اباريق الزجاج وختم عليها ؟ كلا بل تصير رحيماً معتقة ختامها مسك يتنافس بها المتنافسون . وختم المؤلف مقدمة كرومويل ببيان المقضى للشاعر من النسيج على منوال الطبيعة (لان كل ما في الطبيعة هو في صناعة الشعر) . وان كان الشاعر جيد القريحة فلا حرج

عليه في شيء من القواعد وله الحرية المطلقة في التصرف بجميع افانين الشعر على حسب ما يرتئيه

فهذه خلاصة مقدمة كرومويل الشهيرة بين الادباء على اختلاف لغاتهم وتباين مذاهبهم . ومنها يفهم ان الطريقة الرومانية ارجعت الشعر الى الحقيقة والطبيعة والحياة وتركزت فيه التصنع وزخرفة الكلام واجراس الالفاظ ولم تلتفت الى زعم اهل الطريقة المدرسية بان زخرف القول من مقتضى الذوق السليم للشاعر . وازالت جميع الحواجز التي تعرض امام سجية الطبع وتصد الفكر عن تصور الحقيقة وتوصيف الموجودات بحسب ما هو مفروس في جيلة كل منها سواء كان من صفات القبح أو صفات الجمال بلا تفرق بينهما . ولذا نكتت بعض الجرائد بقولها على سبيل القريض والتبكي : « فليمش الانكليز والالمان . فلتعش الطبيعة الهمجية الوحشية التي نشاهد جمالها في اشعار فيكتور هوغو واخوانه من اهل الطريقة الرومانية . » إشارة الى ان أساليب هذه الطريقة أول ما ظهرت في أدب الانكليز والالمان كما تقدم بيانه . وعرف بعضهم الروماني أي السالك نهج الطريقة الرومانية « بانه رجل ابتدا عقله في الاختلال »

فن امن النظر في المبحث الاخير من تلك المقدمة وجده مطابقاً لما ذكره ائمة البلاغة والادب في لسان العرب كابي بكر الباقلاني وعبد القاهر الجرجاني وابن خلدون وامثالهم . ولا حاجة لابراد اقوالهم في هذا الباب فانها معلومة ومحصلها وجوب نصره المعنى على اللفظ لان الالفاظ خدّم المعاني . قال الباقلاني « والشعر ان ضيق نطاق القول فهو يجمع حواشيه . ويضم اطرافه ونواحيه . فهو اذا تهذب في بابه . ووفى له جميع اسبابه . لم يقاربه من كلام الآدميين كلام ولم يعارضه من خطابهم خطاب » وقول فيكتور هوغو بان الخاصة المميّزة لادب الطريقة الرومانية عن غيره هي الجمع بين نموذج السخرية ونموذج الاعجاز بالفصاحة . يقول المتنبي « وبضدها تميز الاشياء » ولعل السبب الذي حمل المتنبي والمعري على ترك اساليب الجاهلية والنسج على منوال جديد هو الذي ذكره فيكتور هوغو من ان اساليب المتقدمين كانت معتبرة في بادى امرها ثم باضطرادها على قياس واحد

مراعاة للقوانين ثقلت على السمع وملها الطبع وسترى حقيقة ذلك في التعريف الآتي للطريقة الرومانية

أما عدم تعرض فيكتور هيدكو لأدب العرب كما تعرض لأدب الأمم الأوروبية ولأدب الفارسية العذبة فهو لجهله — سيما في ذلك التاريخ الذي ألف فيه مقدمته — بفصاحة العرب واعجاز القرآن وحضارة الاسلام . فان التمدد العربي لم يدرس حق درسه ليومنا هذا . ولم يزل صاحبنا المستشرق البودابستي العلامة كولدير يحض المستشرقين من كل امة على التعاون والاشتراك في تأليف دائرة المعارف الاسلامية . فان تم هذا المشروع وأنجزت ترجمة المهم من الكتب العربية ربما تيسر بعد ذلك للباحث الاطلاع على كنه العلوم والآداب الاسلامية . ولم يزل المستشرقون يترجمون في الصوربون القرآن الكريم وتفسير البضاوي ترجمة صحيحة ولا يكملون في كل سنة اكثر من بضع صحائف . ولم يترجم كلام المعري سوى وريقة فيها نحو مائتي بيت نشرت بالالمانية في فيينا عاصمة النمسا سنة ١٨٨٨ م . فهم يتقربون من فهم حقيقة الادب العربي رويداً رويداً . وقد رأينا فيما تقدم ان صاحب اغاني رولان يعتقد بان الاسلام فرع من عبادة الاصنام وبحسب بوالون من جملة اوثنان المسلمين . ولو علم فولتير من احوال الشرق ما يعلمه علماء هذا العصر لاستحى من نفسه ومزق الرواية التي حررها باسم « محمد النبي » عليه السلام وقدمها للابا بنوا الرابع عشر بعد ان سجد لديه وقبل قدميه ^(١) ولما ذهب فيكتور هوكو لاسبانيا رأى آثار العرب في المباني والقصور والقناطر وقدرها حق قدرها ولكنه لم يفهم من الآيات والآيات المنقوشة على جدرانها اكثر مما نفهمه من احرف الصين المنقوشة على البضائع الصينية ولا سيما على علب الشاي . ولما ظهر رينان وصار شيخ العلماء في عصره درس ادب العرب الاندلسيين من حبث الفلسفة ونلخص ما حققه في كتاب سماه « ابن رشيد » . فقام اليوم

١ قدم فولتير روايته المذكورة مع تحرير منه للبابا ختمه بالسجود بين يديه ولثم قدميه وكان ذلك منه وياه فحمله البابا على ظاهره واجاب عليه بجواب لطيف مؤرخ ١٩ سبتمبر سنة ١٧٤٥

البارون قرا دوفو معلم العربية في الانستيتوا الكاثوليكية بباريس ونشر كتابين احدهما « ابن سينا » والثاني « الغزالي » ودرس في الاول ادب العرب وفلسفتهم الشرقية وفي الاخر علومهم الكلامية والالهية / فلكتب الثلاثة المذكورة من أحسن ما حرر في هذا الصدد . ولكن الموضوع محتاج الى تعمق وتدقيق . ولا يتيسر ذلك الا بعد استخراج الكتب العربية وفهمها . وقد خبط رينان في بعض ما حرره عن الاسلام خبط عشواء وفتح لشارل ميزمر وامثاله باباً للاعتراض عليه . كما ان البارون الكاثوليكي تمسب على ابن سينا والغزالي في ما حرره . ومع هذا قال رينان في الخطاب الذي نشره سنة ١٨٨٣ م « بان أوروبا ظلت منحطة في العلم والادب عن العالم الاسلامي وخاضعة فيهما اليه حتى أوائل القرن الثالث عشر . وفيه أخذ العالم المسيحي يرقى درجات العلم والعمران والمالم الاسلامي بهبط في الدرك الاسفل من الجهل وانحطاط الحضارة . واندثرت علوم العرب بعد ما لقحت جراثيم الحياة في جسم العالم اللاتيني الغربي واستمر المترجمون من سنة ١١٣٠ م الى سنة ١١٥٠ يترجمون في مدينة طليطلة كتب العلم من العربية الى اللاتينية وهم تحت حماية الاسقف ريموند . وفي السنين الاولى من القرن الثالث عشر سرعت مدرسة باريس الكلية في تدريس كتب ابن رشيد ارسطوطاليس العرب . اما ارتحال البابا سيلفتر الثاني لطالب العلم في أشبيلية وان كان مشكوكاً فيه وقسطنطين الافريقي علامة عصره لا شبهة في أخذه العلم عن المسلمين . » هـ . وقسطنطين الافريقي الذي بذكره رينان ولد سنة ١٠١٥ م في قرطاجنة وبعد ان حصل علوم الطب والحكمة صار كاتباً لاحد الامراء ثم دخل سلك الرهبنة في ايطاليا . ادخل فيها علوم العرب وله مجموعتان كبيرتان باللاتينية طبعتا في بال سنة ١٥٣٩ م

ودام قول فيكتور هوغو هو الممول عليه في الطريقة الرومانية الى ان اشتهرت الطريقة الطبيعية (ناتوراليزم) في سنة ١٨٦٠ على عهد الامبراطورية الثانية وقام اصحابها يناقشون فيكتور هوغو وشيعته وينتقدون عليهم . على ان الرجل وان ظهرت له معجزات في آيات البيان فهو ليس بنبي ولا تنجب لهم العصمة عن الخطأ والنسيان ومن هو الرجل الذي نحمد كل سجاياءه ؟ ومن هو المبرأ من كل عيب ؟

وكفاه نبلاً انه خطا في الادب خطوة للامام ومهد الطريق لمن اتى بعده ولولا ظهور الطريقة الرومانية لما ظهرت الطريقة الطبيعية ولا حصل ارتقاء ونهضة في الادب . ثم ان مقدمة كروويل وان بحث فيها المؤلف عن تاريخ الادب وبيان الخاصة المميزة لادب الطريقة الرومانية عما سواه فهي احق بأن تكون تعريفاً لنوع الدرام ونحده وهو فن من فنون الشعر والادب . وأما التعريف الشامل لجميع ما حرر من فنون الادب على نهج هذه الطريقة المستحدثة منظوماً كان او مثنوياً فهو ما يأتي . اذ من شرط التعريف ان يكون جامعاً للأفراد مانعاً من دخول الاغيار فيه . ولا يكفي ان يكون منطبقاً على فرد من الافراد فقط . وتعريف الطريقة الرومانية تعريفاً جامعاً مانعاً ليس بالامر السهل ولا يتيسر الا بالنظر في الخواص الظاهرة والمشاركة بين جميع فنون الادب المنسوجة على اساليب الطريقة الرومانية والمنشأة في قوالبها

٢٧- تعريف الطريقة الرومانية

الطريقة الرومانية هي ادب يبحث فيه عن مشاعر النفس وبدائع المخلوقات . وهذا الادب قسم من الشعر الموسيقي او الغنائي الممتاز بخاصته الشخصية كما سبق تعريفه . وبيان الفرق بينه وبين شعرا الحماسة والدرام . فاذا نظرنا في اعراض النفس نجدتها على نوعين احدهما اعراض قائمة بالنفس كالشعور بالحب والرجاء والشعور باليأس واليأس والشعور بالفرح والطرب والابتهاج او بالحزن والغم والانتقاض .. والثاني انفعالات تحصل للنفس بواسطة الحواس الخمس وهي البصر والسمع والذوق والشم واللمس . فهذه الحواس منها ما هو حائز على الصفة التمثيلية للعالم كالبصر والسمع وهما بهذه الصفة الات يبنى الانسان بها العالم الخارجي الذي يحمل صورته في نفسه . ومنها ما لم يحز على هذه الصفة التمثيلية بسهولة وبلا واسطة كعبض الانفعالات العضلية وحاسي الشم والذوق عند اكثر الناس . فاهل الطريقة الرومانية اكتبوا بالتعبير عن النوع الاول وعن القسم الاول فقط من النوع الثاني وصوروا بدائع المخلوقات بصور يخال منها للقارئ انه يسمع ويرى . كما يتضح لمن

طالع وصفاً من اوصاف فيكتور هوغو في مناظر الطبيعة وأصواتها في بيان حنين النفس وانفعالاتها . وتركوا التعبير عن القسم الثاني من النوع الثاني اي عن الحواس التي لم تحز الصفة التمثيلية خلفائهم من المتأخرين، وهم اهل الطريقة الطبيعية الذين قادم أميل زولا . فصور هذا الامام في الادب حقيقة كل ما بحث فيه وتكلم عنه ومثله تمثيلاً حقيقياً وعبر عن حاسة الشم بما كتبه عن الهالك وهو سوق الخضر في باريس وجعل القارئ يشم ما فيه من روائح السمك والقديد فضلاً عما يسمعه من جلبة البائعين والمشتريين ويراه من السلع والمركبات وانهاك الغادي والبادي في الاخذ والمطاء

ثم اذا نظرنا في ما حرره الشعراء والادباء من اية امة وفي أي لسان نجد منهم من يتكلم عن شعور وتصور . ومنهم الذين يقولون ما لا يفعلون وينظمون قصائد الغزل والرثاء وهم لا يشعرون بشيء من الغوام أو التفجع ويعدحون المدح قبل معرفته ويصفون الحبيب قبل مشاهدته ويهينون في ذكر الطول والرسوم وفي التشبيه بالشمس والقمر والترشيح بكثرة الرماد وطول النجاد حتى يلتبس الامر على السامع فلا يدري هل القائل من أهل القرن الرابع عشر للهجرة أم من الذين مضوا قبل البعثة . فمن شرط السالك نهج الطريقة الرومانية ان يتكلم عن مشاهدة وتصور وشعور واحساس وانفعال وتأثر واعتقاد واقتناع . واذا سمع العامي شيئاً من كلامه في الحب مثلاً قال هذا كلام عاشق محروق . والى ذلك اشار ابن رشيقي فيما نقل عنه من كتاب العمدة بان من بواعث الشعر العشق والانتشاء ومن شروطه الخلوة واستجادة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا المسموع من غناء البلابل وطين الاوتار . فاهتمامنا بانفعالات الشاعر التي ليست بانفعالاتنا وباحساسه الذي ليس باحساسنا انما هو لكوننا بشراً . والشاعر بشر مثلاً . فيننسا وبينه مشاركة في الطبيعة وفي منبع الحس والانفعال . ويزيد الشاعر عنا باقتداره على الابانة عن المعاني الكامنة في نفسه ونفوسنا . لان له سجية الشعر وملكة راسخة في التعبير عن شعوره واحساسه . ولعل هذا مقصد ابن خلدون في قوله د المعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة . وتأليف

واختاروا مواضعهم من القرون القديمة كما هو الحال في رواية (استيخ) و (اتالى) و (اندروماق) الخ . وأما اهل الطريقة الرومانية فأتخذوا مواضعهم من القرون الوسطى والبلاد الاجنبية وتاريخ الزمرانية كما هو الحال في رواية (فوست) و (كليوم تل) وجميع روايات فيكتور هوغو التمثيلية

فالطريقة الرومانية وسعت اولاً دائرة الادب . أو بالحري نقلت هذه الدائرة من مركزها لمركز آخر . ثم مزجت اساليب الفنون الادبية من تراجيديا وكوميديا بعضها ببعض . فنشأ عن ذلك تشويش في بادىء الامر ثم ظهر من هذا التشويش ترتيب جديد . وجاء الادباء بشعر موسيقي وأدب مبهج وتاريخ حي . فالطريقة الرومانية أزلت تلك الاساليب المعينة المحدودة التي من شأنها ان تمنع الشاعر من ان يتصرف فيها بفكره واختياره كما انها أزلت عن السبك والانشاء هاتيك العوائد الاستبدادية التي من خصائصها ان تصفي الهامات الشاعر وترفع منها الغرابة . فبتغييرها أساليب الفنون والقواعد والذوق واللغة والعروض وضمت الادب في قالب غير معين . وسأقت ادباء العصر الجديد للتحري بكل حرية على اساليب وقواعد وفنون جديدة . فعثروا اول الامر على قواعد الطريقة الطبيعية وهم الان شارعون في وضع قواعد للطريقة الانسانية . ويتقربون بذلك الى الكمال شيئاً فشيئاً ويرقون معارج البلاغة درجة فدرجة

فاذا تأملنا كلام المعري ومن سلك مسلكه من الشعراء نجد فيه اهتماماً زائداً بامر الاحرة وبما بعد الموت وتفكيراً عميقاً في خلق السموات والارض ودهشة مقلقه وحيرة زائدة وانفعالاً نفسانياً واحساساً غريباً . فكان كلامه يدخل تحت التعريف المتقدم ذكره للطريقة الرومانية . ولكن بسبب فقد حاسة البصر التي لها المكان في هذه الطريقة لم يتيسر له وصف الطبيعة وصفاً لا تقاً بها وبفصاحة لسانه . ولا حاجة لايراً . مثال من كلام المعري فان كل كلمة من الازوميات تشعر بهذه الدهشة والخشية والحيرة والانفعال والاحساس والتألم ألماً يهون معه الموت ولا يحسب بجانبه مصيبة . وهذا بخلاف الجاحظ الذي يقول في اول كتاب الحيوان :

« جنبك الله الشبهة . وعصمك من الحيرة . وجعل بينك وبين المعرفة سبياً

وبين الصدق نسباً . وجب اليك الثبث . وزين في عينك الانصاف . واذاقك حلاوة التقوى . وأشعر قلبك عز الحق . وأودع صدرك برؤ اليقين . وطرد عنك ذل اليأس . وعرفك ما في الباطل من الزلة . ومما في الجهل من القلة . فهو بعيد عن القلق والحيرة مثبت في الفكرة . وتأليف الكلام على هذا النمط يسمى طريقة الجاحظ وهي مخالفة لطريقة السجع

وقد تصدى ابن رشيقي (٣٩٠ - ٤٦٩ هـ) لما تصدى اليه بوالو ووضع كتابا في قواعد الشعر سماه العمدة . قال ابن خلدون « وهو الكتاب الذي انفرد بهذه الصناعة واعطاها حمها ولم يكتب فيها احد قبله ولا بعده مثله » . فليت شعري هل اطلع على شيء من مؤلفات اليونان في قواعد الادب والبيان كالذي افه ارسطاطاليس وترجم شيئاً منه ابن رشيد في القرن السادس للهجرة والذي افه البياني لونيحين الحمصي وترجمه بوالو للفرناساوية وسماه (رمالة الاعجاز) فان ادباء العرب كان لهم عناية بالقواعد الادبية باعتبار انها من جملة المخلوق والفلسفة وان لم يعتنوا باشعار اليونان ورواياتهم التمثيلية . وكان ابن رشيقي في القيروان فلما حدثت فيها الفتنة فر منها الى جزيرة صقلية ونزل مدينة (مازر) واقام بها الى ان توفي ودفن بقبرتها . وكان الافرنج مستولين على بعض الجزيرة والمسلمون في بعضها الآخر . ولعل ذلك كان على عهد رجار الاول (روجر) . ونظن البعض آذى ابن رشيقي ايام فراره ومحتته حتى قال :

يارب لا اقوى على دفع الاذى وبك استعنت على الضيف الموزي
مالي بعثت الي الف بعوضة وبعثت واحدة الى نمدوذ

وله غير كتاب العمدة ايضاً (النموذج) وكتاب الشذوذ وهو جامع لشواذ اللغة و (قراضة الذهب) . وقد تصدى لوضع قواعد الشعر وبيان اساليبه كما يفهم من القصيدة الاتية المفردة له وهي اشبه شيء بقصيدة بوالو التي جمعت فاوتت قال

لعن الله صنعة الشعر ماذا من صنوف الجبال منه لقينا
بوثرون الغريب منه على ما كان سهلاً للسامعين متينا
ويرون المحال معنى صحيحاً وخسيس الكلام شيئاً نمينا

يجهلون الصواب منه ولا يد — روث للجبل انهم يجهلون
 فهم عند من سوانا يلامو — ن وفي الحق عندنا يعذرونا
 انما الشعر ما يناسب في النظم وان كان في الصفات فنونا
 فاني بعضه يشاكل بعضاً وأقامت له الصدور المتونا
 كل معنى اتاك منه على ما تمنى ولم يكن أو يكونا
 فتاهى من البيان الى ان كان حسناً يبين لناظرينا
 فكان الالفاظ منه وجوه والمعاني ركب فيها عيونا
 فاذا ما مدحت بالشعر حرّاً رت فيه مذاهب المشتهينا
 فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعت المديح صدقاً مينا
 وتعليت ما يهجن في السمع وان كان لفظه موزونا
 واذا ما عرضته بهجاء عبت فيه مذاهب المرقينا
 فجعلت التصريح منه دواء وجعلت التعريض داء دفينا
 واذا ما بكيت فيه على العا — دين يوما للدين والظاعينا
 حلت دون الاسى وذلت ما كا — ن من الدمع في العيون مصونا
 ثم ان كنت عاتبا جئت بالوء د وعيداً وبالصعوبة لينا
 فنركت الذي عتبت عليه حذراً آمنا عزيزاً مهينا
 وأصح القريض ما قرب النظم وان كان واضحا مستينا
 فاذا قيل أطمع الناس طراً واذا ريم اعجز المعجزينا

فذكر ابن رشيق من صنوف الشعر أو فنونه المدح . والنسيب . والهجاء
 بالتصريح أو بالتعريض . والرثاء . وفرقة الاحباب . والعتاب بالوعد أو بالوعيد .
 وذكر غيره من هذه الصنوف بكاء الديار واهلها فقال :

واذا بكيت به الديار واهلها أجريت للمحزون ماء شوونه

فبالوذكر هذه الاجناس او الانواع في قصيدته (صناعة الشعر) وزاد عليها
 التراجيديا والكوميديا والايوبة وعرف كل نوع منها وجعل له احكاماً وقواعد كما
 مر . وتوسع في هذا المبحث حتى تألف من كلامه رسالة مطولة

٢٨ — مؤلفات فيكتور هوغو .

طبعت مؤلفات فيكتور هوغو مراراً عديدة في قطع متفاوتة في الصغر والكبر ومنها ما هو مزين بالتصاوير والرسوم البديعة ومنها ما هو على أجل ورق وتمكنت المعامل الاوربية من طبخه وصقله . وآخر طبعة طبعت للجمهور في اجزاء صغيرة الحجم (قطع ٣٢) يقرب عددها من ثلاثمائة جزء ثمن الجزء ٢٥ سنتيماً . واواسط هذه الطبعات ما كان بالقطع الثمن في ٤٨ مجلداً ثمن المجلد عشرة فرنكات يضاف اليها اثنا عشر مجلداً طبعت بعد وفاة المؤلف فيبلغ بذلك عدد المؤلفات ستين مجلداً . منها ١٦ مجلداً في الشعر وهي : (والارقام بين الاقواس عدد المجلدات)

- (١) المدائح والمطربات
- (١) الشرقيات . اوراق الخريف
- (١) اغاني الشفق . الاصوات الداخلية : الاشعة والفضلال
- (١) القصاص (٢) التأملات اي سأنحات الفكر
- (٤) سير الدهور
- (١) اغاني الشوارع والاحراج (١) السنة المهولة
- (١) صناعة كون الانسان جدياً
- (١) البابا . الرحمة العالية . الاديان والدين الحمار
- (١) رياح العقل الاربعة
- ومنها خمسة مجلدات في الروايات التمثيلية المنظومة وتسمى « درام » وهي :
- (١) كرومويل
- (١) ايرناني . ماريون دولورم . الملك تيسلي
- (١) لوكريس بورجيا . انجلو . ماري تيدور
- (١) روي بلاس . اسميرالده . بورغراف
- (١) نوركاده . امي روبرار
- ومنها اربعة عشر مجلداً في القصص وتسمى « رومان » وهي :

- (١) هان الاسلاندي
 (١) بوج جارغال . آخر يوم من ايام المحكوم عليه أو قلودكو
 (٢) نوتر دام دوباري أو كنيسة باريس الجامعة
 (٥) البؤساء
 (٢) المشتغلون في البحر وفي مقدمته ارخيل بحر المانش
 (٢) الانسان الضاحك
 (١) ثلاث وتسعون
 ومنها ثلاثة في التاريخ وهي :
 (١) نابويون الصغير
 (٢) تاريخ جرم
 ومنها مجلدان في السياحة عنوانهما (نهر الرين)
 ومنها مجلدان في الفلسفة احدهما أدب وفلسفة والاخر وليم شكسبير
 ومنها ستة مجلدات في الاقوال والاعمال وهي :
 (١) قبل النفي
 (١) مدة النفي
 (٢) بعد النفي
 (٢) فيكتور هوغو تاريخه
 هذا ما سلمه الشاعر بعد التنقيح والتهذيب للطبع فنشر في حياته . وله مؤلفات
 أخرى جمعت من التساويد التي سودها والاوراق التي تركها وطبعت بعد وفاته
 بغير نصحيح في اثني عشر مجلداً وهي :
 (١) الاشياء المرئية (١) الله (١) عاقبة الشيطان (٣) كل العود
 (١) المرسح الحر (١) اتوائم (١) مراسلات الخطية
 (١) السياحة في فرانسوا البلجيك (١) السياحة وفي جبل الالب في جبل البيرينة
 (١) السنون المشؤمة
 فما ينشر بعد موت المؤلف يسمى (Posthumes) ويجوز فيه التنقيح

والتهذيب عند اعادة طبعه . والذي ينشر في حياة المؤلف يسمى (ne Varietur) اي الذي لا يتغير ولا يجوز التبديل فيه بعد وفاة صاحبه ولا تحريف الكلم عن مواضعها . ولو وجد من يتحرى في اوراق فيكتور هوغو لربما تمكن من استخراج مجلد أو مجلدين أيضاً . كما جئت اخيراً المكاتب التي حررها العلامة رينان لاه وهو في المدرسة حديث السن وطبعت في مجلد . ولعل القارى يستكثر عدد هذه المؤلفات التي لا يجد الانسان وقتاً لمطالعتها فضلاً عن تحريرها وسبك انشائها ولا سيما ما يحتاج منها لدقة وتلفظ كقرض الشعر ونظم الروايات التمثيلية . ولكنه اذا تأمل في همة رجال العلم والادب واقدامهم زال استغرابه وعلم ان ملكتهم رسخت في النظم والانشاء حتى صار التحرير طبعاً ثانية لهم كالكلالام . وانا نشاهد المبعوثين في مجلس نواب الامة يتكلم الواحد منهم الساعات الطوال بدون أن يتلثم . ويضبط كلامه بالاصول المعروفة بالاستغرافيا وينشر في جرائد المساء فيملا الاعمدة الكثيرة والصحائف الكبيرة . وقد بلغنا عن مبعوث في بلاد الجرج انه تكلم في موضوع اثنتي عشرة ساعة بحيث انه بدأ في الصباح وبعد استراحة الظهر عاد لموضوعه واكمل بحثه في اليوم الثاني . فتألف من كلامه مجلد ضخيم . ولو قرأنا فهرست الكتب التي ألفها الكندي والرازي واصحاب المعاجم والتأليف الضخمة لوجدناها تقارب هذا المقدار أو تزيد عليه . ورأينا في ما تقدم ما ألفه العرب في افانين الادب من المؤلفات الكبيرة ككتاب الايك والنصون للعري ونحوه . على ان فيكتور هوغو معنيين في اعماله . فتاريخ فيكتور هوغو في مجلدين حررته زوجته الشرعية الشاهدة على حياته . وكانت الممثلة البارعة جوليت دروه تنسخ له وهو يملئ عليها . وربما كتب له ايضاً الشاعر اوغست فاكيري . وحرر ابنه فرانسوا من جزيرة كيرنزي لاحد اصحابه في فرنسا يقول

« نحن كلنا نشغل . والذي يتم نظم الحساسات الصغيرة . وشارل يصف روماناً وانا نحف فرنسا بشكبير واجتهد بان اكون ترجاناً صادقاً لهذه القريحة الواسعة . »

وفي الحقيقة ان فرانسوا هوغو ترجم مؤلفات شكبير احسن ترجمة قطعت

في ثمانية عشر مجلداً بعد ان عرضها على ابيه واستكتبه عليها المقدمات والخواشي .
 فجميع المؤلفات كانت تعرض على فيكتور هوكو وبعضها يطبع باسمه لانه كان رأس
 هذه العصبة ومديرها . الجمعية المؤلفة من زوجته وصاحبه واولاده واصحابه . ولم
 يزل صفار الكتبة والشعراء في اوربا ينسبون مؤلفاتهم واشعارهم الى مشاهير الرجال
 ترويحاً لها وانفاقاً لبضاعهم في سوق العلم والادب . فان المؤرخ الشهير الفرنسي
 ميشله المستند في مؤلفاته على القصص التاريخية التي فيها والترسكوت الانكليزي
 نسب لنفسه في التاريخ الطبيعي الكتب الاربعة التي عنوانها الطير ، الحشرة ،
 البحر ، الجبل ، مع ان المحرر الحقيقي والمصنف لهذه الكتب النفيسة على ما يقال هي
 زوجته المادام ميشله وكانت من الفاضلات . ووجد المحققون في تاريخ الكيمياء ان
 بعض كتبها القديمة حررها اصحابها في القرون الوسطى وعزوها الى جابر وهرمس
 تقوية لسندها وقائماً بصحتها . فتمثال الشعراء أو الكتاب المصنف شائع بين
 الكتاب والشعراء وتارة يكون برضى المؤلف الحقيقي وتارة يكون بغير رضاه وهو
 السرقة . وقد يكون السارق المتحلل أشعر وأقدر من صاحب الشعر والتصنيف
 ولكن وقته لم يسمح له بالاتيان بمثل ذلك المؤلف . ولذا اهتمت الاكاديمية فيكتور
 هوكو بسرقة التصديده التي عرضها على لجنة التحكيم والمسابقة وسماها (فوائد المطالعة)
 ولم يعطوه الجائزة التي استحقها

وكان يحدث امثال ذلك في ايام العرب وفي حضارة الاسلام كما اهتم الحريري
 في مقاماته . وكان قد عمل مقامة واحدة على مقامات البديع الهذلي وعرضها على
 انوشروان بن خالد بن محمد وزير السلطان محمود السلاجقي وكان الحريري
 خصيصاً به . فأمره الوزير بانشاء المقامات وانماها فصنف اربعين مقامة واتى بها من
 البصرة محل دار تحصيله العلم الى بغداد ونزل في الحريم وهي سرقة العاصمة والمحلة
 المشتهرة على دار الخلافة وقصور الامراء والاعيان وكان ذلك في خلافة المقتدي
 بالله سابع وعشرين الخلفاء العباسيين . فاستحسن الادباء طرز المقامات وحسدوه
 عليها واتهموه بسرقتها . ولما امتحن سد عليه ولم يجد قريحته بشيء ، وهو في الحريم
 وسط تلك العاصمة الكثيرة الزحام والجلبة فنفي الى المشان قرية بقرب البصرة

مشتعلة على نخل وزرع ولكن هواها فاسد بسبب المستنقعات وكان اذا غضب على شخص نفى اليها . فألف الحريري في المشان عشر مقامات اخرى وكلمات مصنفاته خمسين مقامة فقال فيه ابن جكينا بهجوه :

شيخ لنا من ربيعة الفرس يتنف عشونه من الهوس
اطقه الله بالمشان وقد الجمه في الحريم بالخرس

وكان الحريري ينتسب الى ربيعة الفرس وهي قبيلة من قبائل العرب على حدود فارس . وكان اولع بنف لحيته والعبث بها . ووعدده احد الامراء يوماً بولاية على شرط ان يترك نصف لحيته فامتثل برهة ولم يستطع الصبر فقال « أحب الى ان تعاد لي الولاية على لحيتي من كل ولاية » . ونشأ الحريري في مجمع العلماء والادباء واليهم نسبت الاقوال الكثيرة في النحوقيل مذهب البصريين ومذهب الكوفيين وكلفت ولادته في البصرة وقيل لابل ولد بالمشان المجاورة لها (٤٤٦ - ٥١٥ هـ) وكانت السلطة والنفوذ في ذلك العصر للدولة السلجوقية التي ظهرت في العراق العجمي واتخذت مدينة الري عاصمة لها ويقال للمنسوب لها الرازي وقد صار علماً على كثير من العلماء والفلاسفة ولم تنزل خرابات الري مشاهدة بظائر طهران خاصة الدولة الايرانية . ويقال لها عبد العظيم نسبة لاحد الاولياء المدفون فيها وهناك كان مقتل الشاه السابق . وسميت ملوك هذه الدولة السلجوقية بسلاجقة ايران تمييزاً لهم عن سلاجقة الروم الذين اتخذوا قونية عاصمة لهم وعن سلاجقة كرمان الذين حكموا في الجنوب الشرقي من بلاد العجم . وظهر في سلاجقة ايران ١٤ ملكاً في ظرف ١٦١ سنة واعظمهم ثلثهم ملوك شاه (٤٤٧ - ٥٤٨٥ هـ) ابن الب اوسلان ويسمى ابا الفتح جلال الدين واليه ينسب التاريخ الجلالى الذي وضعه عمر الخيام الاديب الفلكي الشهير وكان وزيره نظام الملك صاحب المدرسة النظامية في بغداد . فيفهم من ذلك ان ملوك هذه السلالة ووزراءها كلهم حريصون على تعزيز جانب العلم والادب ولا غرو ان اتى الادباء في زمانهم بمثل المقامات الحريية . والف كمال بك امام الادب في اللسان العثماني رواية بليغة سماها « جلال » لها مقدمة بعدها الادباء من ابلغ ما حرد في اللسان العثماني على الاسلوب الجديد

فيتضح مما سبق ان مؤلفات فيكتور هوكو على نوعين منظوم ومثور . وكل واحد منهما يشتمل على فنون ومذاهب في الكلام . فالمنظوم منه ما هو شعر ويشتمل على فنون كثيرة مثل الاود والبلاد والايلييجي الخ . ولكل منها عروض مخصوص ومنه ما هو روايات تمثيلية تتلى على المراسح كما يتلى النثر المرسل بغير الثفات الى أوزان النظم ولا قوافيه أي بالانتم ولا تطريب ولا تغريد ولا ترخيم في الصوت ولا وقوف على القافية . ونظمت هذه الروايات التمثيلية التي يقال لها درام على عروض البحر الاسكندري في الغالب وهو المبني على اثني عشر هجاء

فاذا جرى التوقيع بالروايات الدراماتيقية على آلات الطرب ولحن فيها على طريقة الصناعة الموسيقية سميت « أوبرة » ولاجلها بنيت المراسح الكبيرة التي يقال لها اوبرة كاولابرة الخاوية في القاهرة والمرسح الذي بني في الاسكندرية ثم احترق ولم يجدد بناؤه . ويقال لاوبرة باريس اكاديمية الموسيقى لانها شعبة من شعب اكاديمية الصناعات النفيسة التي هي في عداد الاكاديميات الخمس الشهيرة في باريس . ومثال ذلك اوبرة فوست التي صنف قصتها الدراماتيقية الاديب الالماني كوته ثم جاء الملحن الفرنسي كونو ووفق ترجمة كلامها على صناعة الالحان . وكذا رواية عائدة (آيدة) التي وضعها على صناعة الالحان الملحن الشهير الطلياني فردي ثم نظمها بالفرنساوية أديان من ادباء الفرنسيين . واول ما مثلت هذه الرواية الاخيرة في الاوبرة الخديوية بالقاهرة سنة ١٨٧١ ثم مثلت في باريس على المرسح الطلياني سنة ١٨٧٦ وتمثل اليوم على جميع المراسح الفرنسية في العاصمة والايالات وفي اكثر المدن الأوروبية ولعل هذه الرواية هي التي ترجمت للعربية باسم (عائدة) فالأوبرة هي تأليف دراماتيقي اجتمع فيه الشعر والموسيقى . ولذا فهي تشتمل على اوزان العروض وأنغام المزامير واقلويل الشعر أي ما فيه من التشبيه والتخييل فان دخل في الاوبرة مع الكلام المنظوم كلام مثور أيضاً سميت أوبرة — كوميك كرواية كرم . وان لم يكن موضوع الرواية دارما أي فاجعة بل كان كوميديا مضحكة سميت (بوف) و (بوفون) و (أوبريت) تصغير أوبرة . واجتهد بعض الادباء الترك في التأليف بين الشعر والموسيقى في اللسان العثماني فترجموا

رواية كرم نظماً للتركية وشخصوها مع الانعام الموسيقية على المراسح المتخذة من الاخشاب في محلة اقسراي وفي منزهات ضواحي الاسنانة . ومع ان مشروعاتهم ابتدائي فالتمثيل كان لا بأس به رغم أن حداثة نشأته . فلو حصلت عناية في تنشيط هذا المشروع بقوة المال وهمة الرجال لنجح ولا شك باللغة التركية وباللغة العربية أيضاً فان دوائر البلدية في مدن اوروبا الثانوية فضلاً عن العواصم تنفق النفقات الباهظة في كل سنة لاعانة المراسح . لان ما يجمع من اجرة الدخولة لا يكفي لتحسين المراسح الى الدرجة التي بلغتها مراسح ازربا . وكان اهل العرب وفلاستهم المتقدمين اهتموا بعلم الموسيقى والفارابي فيه اليد الطولى ومما ألفه كتاب الموسيقى الكبير . ونقل صاحب الارز في ما نشره من الازجال والموشحات عبارة عن ابن رشد وردت له في تلخيصه كتاب اوسطوطاليس في الشعر الذي طبعه المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانس سنة ١٨٧٣ قال ابن رشد :

« المحاكاة في الاقويل الشعرية تكون من قبل ثلاثة اشياء . من قبل النغم المتفقة ومن قبل الوزن ومن قبل التشبيه نفسه . وهذه قد يوجد كل واحد منها مفرداً عند صاحبه مثل وجود النغم في المزامير والوزن في الرقص والمحاكاة في اللفظ اعني الاقويل الخيلة الغير الموزونة . وقد تجتمع هذه الثلاثة باسرها مثل ما يوجد عندنا في النوع الذي يسمى الموشحات والازجال وهي الاشعار التي استنبطها في هذا اللسان اهل هذه الجزيرة أي الاندلس » . اهـ . ولا شبهة في أن اعاريض الموشحات والازجال من انسب العروض لنظم روايات الاوبرة لسهولة التوقيع بها على آلات الطرب بخلاف البحور الستة عشر في العربية أو البحور الثمانية عشر بالفارسية والتركية . ولا نظيل الكلام في هذا المبحث فان اهل اولى بالبحث فيه والتفتيش عن دقائقه وخوافيه ونعود للصدد الذي كنا فيه

وأما النثر الذي ألفه فيكتور هوغو فكله من قبيل المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع اجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها . وليس عند الافرنج سجع وهذا المنشور على اقسام وفنون شتى منها القصص التي يقال لها « رومان » وهي ما صور فيها مؤلفها غرائب الوقائع وعجائب

الاتفاقات واستلفت نظر القارىء أو السامع بمفترياته وتخيلاته البديعة . وسميت هذه القصص رومان أو رومانس باسم اللغة القديمة التي كتب فيها رومان رولان وأمثالها من القصص والحكايات المنظومة والمنشورة . والرومانات على اقسام كثيرة منها الرومان التاريخي وأغرامي أو الاحساسى والروحاني والفني والسياسي الخ ومن مشور فيكتور هوكو أيضاً التاريخ والسياحة والفلسفة ولاقوال والاعمال والرسائل والخطب والسياسات وغير ذلك .

٢٩ — نظم فيكتور هوكو

قرض فيكتور هوكو الشعر في اعريض مختلفة . منه ما هو على وزن البحر الاسكندري المنسوب لاحد الشعراء اليونانيين أو المدينة الاسكندرية التي زهت فيها العالم والمعارف والمعارف والاداب اليونانية على عهد البطالسة . ويتألف عروض البحر الاسكندري من اثني عشر هجاء اذا كانت القافية مذكرة ومن ثلاثة عشر اذا كانت مؤنثة . ويقسم كل بيت الى شطرين بوقفة Césure تأتي بعد الهجاء السادس لمساواة الشطرين . والنظم في هذا البحر صعب يحتاج الى نفس عال وتلف كثير ومهارة زائدة وبه تظهر قوة الشاعر واقتداره على التصرف في الكلام ولذا اختص بالمواضيع الجدبة العالية لقصائد الحماسة وروايات الفاجعة . واختاره فيكتور هوكو لنظم روايات النرام التمثيلية المذكورة في الكتب الخمسة المتقدم بيانها ولنظم غيرها من الاشعار الحماسية والتاريخية ولكنه غير فيه كثيراً ولم يراع الوقوف على الهجاء السادس بل قسم البيت الى شطرين غير متساويين وجوز تكميل معنى البيت الاول بالفاظ من البيت الثاني . مع أن العرب يشترطون ان يكون كل بيت من ابيات الشعر تاماً في بابه مستقلاً في معناه . ويمكن تشبيه البحر الاسكندري بالبحر العربي الستة عشر أو البحور الفارسية الثمانية عشر

ومن شعر فيكتور هوكو ما هو على اوزان متخالفة تتألف من ستة أو ثمانية أو عشرة هجاءات نظمت أسماطاً أسماطاً واغصاناً واغصاناً وجعل لها ادواراً ولازمات على نسق ما استحدثه الاندلسيون وبقية شعراء العرب المتأخرين من الموشحات

والازجال . وهي اسهل طريقة واقرب تناولاً من البحر الاسكندري كما ان الموشحات والازجال العربية اسهل من بقية البحور . ولها عند الافرنج اسماء بحسب اجناسها مثل اود وبلاد وروندو وايلجي الخ . ولها ادوار تسمى قبوله وستروف ولها ايضاً لازمات refrain الخ واقتبس الفرنسيون هذه الاعاريض من شعراء التروبادور . وهؤلاء تلقوها عن عرب الاندلس كما اخذوا عنهم علم القوافي . فان شعراء الافرنج على لاطلاق لم يكن لهم معوفة بالقوافي وانما كانوا يعاضون عنها في اشعارهم بما يسمونه (اسوانس) وهو شبه القراي والعتابي كما مر ذكره . ومثلاً فيما سبق للقافية بكلمتي (ساج) و (باج) زناً يسمونه اسوانس بكلمتي (ساج) و (آرم) والافرنج لا يلتزمون في القصيدة او المنظومة قافية واحدة اوروبياً واحداً كما يفعل العرب . ففيكتور هوغو لم يلتفت كثيراً لاوزان العروض التي نظم فيه من تقدم عليه من الشعراء بل تساهل جداً في جانب الالفاظ واستحدث من عند نفسه انواعاً جديدة ووضع هذه القاعدة وهي :

« ان الشعر ليس في قوالب المعاني وانما هو في المعاني نفسها . فالشعر هو الامر الباطني لكل شيء في الوجود »

فهذه القاعدة ليست بمجھولة بالتمام عند أدباء العرب . ولعل ابن رشد اشار اليها في العبارة السابقة بقوله عن المحاكاة في اللفظ « اعني الاقاول المخيلة الغير الموزونة » . وحكي عن حسان بن ثابت حينما اتاه ابنه عبد الرحمن وهو صبي يبكي ويقول لسعني طائر

فقال حسان — صفه يا بني

فقال — كانه ملتف في بردي حبره — وكان لسعه زنبور

فقال حسان — قال ابني الشعر ورب الكعبة

فمقصود الصبي ان الطائر الذي لسعه يشبه في اجنحته وشكله المنقش المعجيب الشخص الملتف برداء موشى ومصنع . وقول حسان حجة على ان الشعر لا ينحصر في الكلام المقفى الموزون وانما حقيقة الشعر في المعاني والتخيل وفي ما يحدثه على النفس من التأثير . ولكن درج تعريف الشعر على الاسنة بانه كلام مقفى موزون . وسبق

لنا ذكر تعريف ابن خلدون للشعر بأنه « الكلام البليغ ، المبني على الاستعارة او الاوصاف ، المفصل اجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ، الجاري على اساليب العرب المخصوصة » . وعلى هذا التعريف يكون كلام المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء . وقال ابو الفداء عن المعري « وطبق الارض ذكره واكثر مصنفاته ركيكة فهجرت لذلك » . والصحيح ان كلا منهما امام مجدد في الاسب خرجا بالكلام عن تلك القيود المدرسية واطلقا للقرينة عنان الحرية وكان النوع المعروف بين الادباء هو نوع التصيد وله اساليب معروفة عندهم تختص بمطاع القصيد وبيت التخلص والختام وذكر لاطلال والرسوم والراحلة والسفر . فالمعري والمتنبي خرجا عن هذه الاساليب ولكنهما افراطا في ايراد التشبيه الغامضة والالفاظ اللغوية واحتاج شعرهما الى شرح طويل وتفسير صار هو ايضا شعراً مدرسياً بسبب نسج المتأخرين على منواله وتهافتهم على التشبيه الغامضة . وقال فيكتور هوغو في كتابه المسمى أدب وفلسفة :

« لا يكفي أن يكون للشعر قالب حسن الالفاظ بل يلزم ان يحتوي على معنى أو تشبيه أو احساس ليكون له رائحة ولون وطعم . تسمى النحلة في بناء الواجبات الست لبيوتها من الشعع . ثم تملأها بالعسل . فهذه البيوت أو الخلايا هي ابيات الشعر . والعسل هو الشعر . » اهـ

فشبه الشعر بالشهد وهو العسل في شمعته . وبالحجر أيضاً ولها أوصاف ثلاثة : رائحة تفوح منها كما يفوح المسك . وتسمى باصطلاحهم (بوكه) . ولون كانه ياقوتة سائلة أو صفراء فاقع لونها . وطعم يعرفه أهل الذوق كما تعرف طعموم الماء كل ويميزون فيه بين الحسن والاحسن والضرار والنافع والانع . ورأيت في أهل الذوق من رسحت لهم ملكة حتى أصبحوا يعرفون الحجر من أي كرم وقرية ومن محصول أي سنة بمجرد معاينة أوصافها الثلاثة بالحواس الثلاث حاسة البصر وحاسة الشم وحاسة الذوق . وتشبيه الشعر بالحجر والعسل معروف عند العرب ويقولون فلان من أهل الذوق في الكلام وتقول العامة « كلام بلا طعم » وما يؤيد ان الشعر في

المعاني قول ابي محمد الخازن من ادباء اصفهان وكان ينتسب للصاحب بن عباد
ويراسل ابا بكر الخوارزمي قال :

لا يحسن الشعر ما لم يسترق له حر الكلام وتستخدم له الفكر
انظر نجد صورة الاشعار واحدة وانما لمعان تمشق الصور

ثم ان تقسيم الشعر عند الافرنج الى اود وبلاد وايليبي ... الخ هو تقسيم
باعتبار الشكل الخارجي أي باعتبار قوالب الالفاظ وبحور العروض والادوار ...
الخ . . . واما باعتبار المعنى فيقسم الى ثلاثة اقسام غرامي وتقاسي ودرامي . فالغرامي
— ويسمى الموسيقى ايضاً لأن الاصل فيه الانشاد على فترات الاوتار — هو كل
شعر اعرب عن الحواس الشخصية . فؤله يبين فيه احساسه وعواطفه ووجهه وبغضه
وشقاءه وسعادته . فاذا جرى التوقيع به على آلات الطرب كان أشدّ وتمأً وتأثيراً
على النفوس . والشعر الحماسي هو ما وصف به شجاعة الشجعان وذبحهم عن الحرم
والاوطان وفيه احاديث المرواة والغيرة والحمية فهو بهذه الصفة تاريخي . والدرام هو
ما صور فيه الحياة الانسانية وتقدم تفصيل الكلام عليه

فالاد وبلاد والايليبي . . الخ يقابلها في العربية المدح والغزل والثناء . .
الخ غير ان هذه الاقسام في العربية من الاقسام المعنوية واما عند الفرنساويين
فهي من الاقسام اللفظية التي لكل منها عرض مخصوص وشكل معروف . ومن
هذه الاقسام اللفظية ايضاً الشعر الفاجع وهو ما صور فيه الشاعر حادثة مهمة من
شأنها تهيج العواطف وتحريك الغضب واستجلاب الشفقة والرحمة وتنتهي الرواية
الفاجعة في الغالب بمصيبة . فروايات المتقدمين التي على هذا الطرز تسمى تراجيديا .
وروايات اصحاب الطريقة الرومانية التي على اسلوبها تسمى درام . واما الكوميديا
فهي مصورة لاخلق الهيئة الاجتماعية ومساويهم ومعاييرهم بصورة هزلية مضحكة
كروايات موابر ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية ومنشورة في مطبعة ابو
الضياء . وأشعار الهجاء عند الافرنج تشتمل على الهجو والذم والانتقاد والتعريض
والاستهزاء وخطط الجدل بالهزل ونحو ذلك . ومن انواع الشعر عندهم ايضاً الشعر
البدوي المصور لاخلق البدو والرعاة وهم في البادية والجبال . وقد أحسن ليبد بن

ريعة العامري في تصوير اخلاق البادية والمعيشة البدوية قبل الاسلام وديوانه مطبوع في فينا عاصمة النمسا . ومن الشعر ما تقص فيه الحكايات وتضرب الامثال على السنة الحيوانات كحكايات لا فوتين . ومنه ايضاً الشعر الذي على نهج الرسائل والمكاتب . . وله امثال عند العرب ومن شعراء دمشق المتأخرين من نظم حجة شرعية بجميع ما يلزمها من القيود والشروط

وجل مهارة فيكتور هوكو في الشعر الغرامي او الموسيقي العربي عن الاحساس الشخصي ولشعره نغمة مطربة وقواف عامرة . والحن تحن لها القلوب وترتاح اسماعها النفوس . وهو الذي اوجد عند الفرنسيين الهجو الموسيقي في المنظومات التي هجا بها نابليون الثالث . ولم تزل هذه الانعام والتوافي والالخان هي الباعثة على رواج اشعاره واقبال الجمهور عليها

وكما ان فيكتور هوكو غير افاعل الشعر وتفاعيله واصلح عروضه على المثال المشار اليه آنفاً . فقد اصلح كذلك الفاظ الشعر ومعانيه . وابطل جميع اصطلاحات الادباء أي الاساليب والتعبيرات المصطلح عليها بينهم والتي لا يفهمها الا أهل الغوس على المعاني وهم خواص الناس . وقال بان جميع الالفاظ سواء . لا فرق فيها بين اللفظ الذي وقع اختيار الادباء عليه وبين اللفظ الذي رفضوه وقالوا عنه سوقي مبتذل . وجوز للكتابة والشعراء الاخذ بكل واحد من نوعي الالفاظ المختارة والسوقية واستعمالها بلا فرق في النظم والثر ^(١) على شرط موافقتها لقواعد النحو والصرف وابطل ايضاً ما كان يستعمله الادباء في كلامهم من المقدمات والدورات التي من شأنها تغطية المعنى والتثقيب عليه وكذا التعبيرات العمومية والاجالية التي يتلاشى بها المعنى ويستبهم كما يفعل ادباء العرب في خطبة الكتاب المصنف وفي مقدمته . ولم يرض من جميع ذلك الا بالتعبير الاصلي والمعنى الحقيقي الدال على

١ ذكر الحرجاني في اسرار البلاغة المطبوع اخيراً في مصر في الكلام على الالفاظ المستحسنة ان تكون اللفظة مما يتعارفه الناس في استعمالهم . ويتداولونه في زمانهم . ولا يكون وحشياً غريباً . او عامباً سخيفاً ، سخفه بازائه عن موضوع اللغة واخراجهم عما فرضته من الحكم والصفة كقول العامة (اشغلت) و (انفسد)

خصوصية الموضوع . لان الغرض من تأليف الكلمات وتصنيف الكلام انما هو تشخيص الموضوع وبيان مزيته وغرابته . فلا حاجة للاستعارة ولا للمعنى المجازي . ويقوم مقام الاستعارة التشبيه أو التخيل الذي هو نوع من الاحساس لا التشبيه والتخيل المستفاد من طرز الكتابة . فلو اوجب على الكاتب ان لا يشغل نفسه بالاستعارات وانواع البديع وان لا يتصنع ولا يتعمل في الكلام . بل ينبغي له ان يهتم ببيان الموضوع الذي هو فيه وايضاحه ووصفه بالاوصاف السديدة المظهرة له ظهور الشمس في رابعة النهار . ويوضح انفعالاته النفسية في ذاك الموضوع ليكون أشد تأثيراً على السامع . فتأثير الكلام يكون من جهة الانفعال النفسي والتصوير الطبيعي لا من جهة الاستعارات

غير ان فيكتور هوكو واهل طريقته لم ينعوا انفسهم من استعمال الاستعارات المدروسة والتعبيرات المصنعة لسوخ ملكتهم فيها . ومن الاستعارات التي وردت لفكتور هوكو على الطرز اقديم قوله « نجوم البركة » يريد المصابيح التي تثار بها المركبات ليلاً وتظاير عن بعد كالنجوم

فادباء الغرب قالوا بان جل محاسن الكلام ان لم تكن كلها متفرعة عن التشبيه والتخيل والاستعارة والكناية وجعلوها اقطاباً تدور عليها المعاني . ولذا نجد غزلم مثلاً يدور دائماً حول الثنتين في تشبيه القدود بالاغصان والتهود بالزمان والحدود بالورد والجلتار والعيون بالترجس ونحو ذلك . على حد قول الشاعر

قلبي على قدك المشوق بالهيف طير على الغصن أم همز على الالف

وهل سويداءه خال بخدك ام خوبدم أسود في الروضة الالف

وهي قصيدة غراء من كتاب ربحانة الالباء المطبوع في بولاق . والمراد تشبيه قد المشوق بالغصن او بالالف . وقاب العاشق بالظهير او بالهمزة . وفي البيت الثاني تشبيه سويداء القلب وهي الحبة السوداء التي فيه بالخال الذي على خد المحبوب وتشبيه الخال بالخدام الصغير الاسود وهو في الروضة . لان جسد الحبيب في اصطلاحهم بستان فيه جميع الازهار والفواكه والاشجار والانهار والتلال والوهاد والاغوار والانبجاء . فكان جميع المخلوقات الطبيعية تشخص في هذا الجسد . فجميع

اشمارهم في الغزل وجميع تفتنائهم فيه يدور ويرجع لاصل واحد واحسن مثال له القصيدة الآتية

نالت على يدي ما لم تنله يدي كانه طروق نمل في اناملها
 خافت على يدها من نبل مقلتها مدت مواشطها في كفها شركاً
 وقوس حاجبها من كل ناحية وعمرق الصدع قد بانت زبائنه
 ان كان في جنان الخلد من عجب وخصرها ناحل يمشي على كفل
 انسية لو رآها الشمس ما طلعت سألتها الوصل قالت انت تعرفنا
 ركم لنا عاشق في الحب مات جوى فقلت استغفر الرحمن من زال
 و خلفني طريقاً وهي قائلة قالت لطيف خيال ذارني ومضى
 فقال خلفته لو مات من ظماء قالت صدقت الوفا في الحب شيمته
 واسترجعت سألت عني فقبل لها وامطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت
 وانشدت بلسان الحال قائلة والله ما حزنت اخت لفقد اخ
 فاسرعت واتت تجري على عجل واغمرتني بفضل من عواطفها
 هم يحسدوني على موتي فوا اسفي

تقشاً على معصم او هت به جلدي اوروضة رصعتها السحب بالبرد
 فالبست زندها درعاً من الزرد تصيد قلبي به من داخل الجسد
 ونبل مقلتها نرمي به ككبيدي وناعس الطرف يقظان على الرصد
 فالصدر يطرح رماناً لمن يرد مرجرج قدحكي الاحزان في الخلد
 من بعد روئيتها يوماً على احد من رام منا وصلاً مات بالكمد
 من الغرام ولم ييدي ولم يعد ان المحب قتل الصبر والجلد
 ما تنظرون فعال الظبي بالاسد بالله صفة لا تنقص ولا تزد
 وقلت قف عن ورود الماء لم يرد يابرد ذاك الذي قلت على كبدي
 ما فيه من رفق دقت يداً بيد ورداً وعضدت على العناب بالبرد
 من غير كره ولا مطل ولا رمد حزني عليه ولا ام على ولد
 فعند روئيتها لم استطع جلدي فمادت الروح بعد الموت للجسد
 حتى على الموت لا اخلو من الجسد

فهذه القصيدة اشتملت على كثير من التشايب وعلى شيء قليل من المعاني وعلى شيء اقل من الاحساس . فشبّه النقش الذي تنقشه الماشطة على يد العروس بطرق النمل وهم ذاهبون لمسالكهم قطاراً بجانب قطار . وبالبرد النازل على روضة البقل وبدرغ الزرد وبشرك الصيد أي شبكته . وشبه الحاجب بالقوس والاهداب بالنبل والكبد بالهدف . وشبه الثمر الاسود على الصدغ بالعقرب وطرفة المولي بالزبانة . وزبانتا العقرب قرناها . وشبه الخد بالجلنار وهو زهر الرمان وبالورد أيدناً والثدي بالرمان وشبه نفسه بالاسد وشبهها هي بالشمس والظبي وشبه دموعها باللولؤ وعينها بالترجس واناملها المصبوغة بالحناء الاحمر بالعناب واسنانها بالبرد . وردفها بالحزن وهو ما غلظ وارتفع من الارض ويسمى الراية والكثيب أيضاً

وأما المعاني التي في هذه القصيدة فهي سؤاله الوصل وجوابها بالرد وصبره ومجلده على البعد ووفاءه في الحب حتى لم يبق فيه رمل . فشفتت عليه وبكت وحزنت حزن الاخت لفقد اخيها والام على ولدها وابتت اليه تجري على عجل وتعطفت عليه وانمشته لحسده العوازل

فادباء العرب يستعذبون هذا الكلام المصنع المصع كما يستحسنون النقش على اليد والصبغ الاحمر على البنان . والفرق بين اليد البيضاء الطبيعية والانامل المنظفة والمبرد والمقص وبقية آلات التنظيف وبين اليد المنقوش عليها نقشاً وحسباً والانامل الخضبة بالحناء لا يخفى على اهل النظر والذوق والابصار المتوحشة لا يستحلون العرائس الا اذا كثر على اجسادهن النقش والوشم وشرحت خدودهن وكسرت اسنانهن ليحصل فيها الفالج وثقت انوفهن وشفاهن واذانهن ليعلق فيها الاقراط والحلقات فهم يبدلون خلقة الله بما يرونه حسناً بحسب اذواقهم . وكذلك الادباء يعدلون بالكلام عن السوق الطبيعي الى تلك التشايب والاستعارات واذا نظرت الى مدحهم رأيت أيضاً يدور حول طول النجاد وكثرة ارماد كقولهم

طويل النجاد رفيع العمد كثير الرمد اذا ما شتى

فهذا البيت يليق مدحاً حقيقياً بشيخ قبيلة بدوية أو بملك امة متوحشة من مم اواسط افريقيا لا في كل ممدوح . واذا مدح به ملك امة لها حظ من الحضارة

ينقلب المدح ذمّاً . وهكذا يقال في بقية فنون الكلام وضروبه مثل الهجاء والرثاء والاستماتحة ، والشفاعة ، والشكر ، والاستعطاف ، والافتخار ، وبث الشكوى ، والمواظع ، والحجج . ولا سيما الوصف وهو اعمها واكثرها ضرراً فان كل فن من هذه الفنون يدور حول تشابه معلومة واساليب مدرسية يندر فيها الاحساس الشخصي والانفعال النفس وانما هي تقاليد يتبع فيها الخلف السلف

ففيكتور هوكو وأهل طريقتة لا يرون شيئاً من الحسن في هذه التشابه والاستعارات المدرسية ولا يستعذبون معنى من تلك المعاني التي ليست بطبيعية . بل يجدونها من المعاني السخيفة الغير المعقولة . خرج بها اصحابها عن الذوق السليم وعن دائرة الطبيعة وشوهوا وجه الكلام بتلك الاستعارات كما سخموا وجه العروس وبدنها بالنقش والوشم والصنم ثم جاؤا يقولون (نالت على يدها ما لم تله يدي) . ورأينا في معرض بارنوم الذي يطوف به ساحبه مدن العالم اقديم والجديد شخصاً من المتوحشين وشم جميع بدنه فكان يتجلى امام الناظرين كانه لابس ثوباً مبرقشاً والوشم هو ان يغرز الجسد بآبرة ثم يذر عليها النور وهو النبلج (نبات النيلة) . وفي الحديث لعن الله الواشمة والمستوشمة . واليك وصف مؤلفاته

١ — المداخل والمطربات

هو أول ديوان نشره فيكتور هوكو في الشعر وافتتحه بمقدمات نظرية بليغة ترجنا احدهما لمناسبتها المقام ومنها يعلم أن تعبيرنا عن الاود والبالاد بالمداخل والمطربات فيه تساهل لان قصائد هذا الديوان لا تقتصر على المدح والغزل بل فيها أيضاً الرثاء والهجاء ممزوجة بعضها ببعض

قال فيكتور هوكو :

هذا ديوان في الشعر الموسيقي (الفرامي) . فيه نوعان من افانين الشعر احدهما (اود) ويدخل تحته جميع المنظومات المشتملة على الهامات دينية أو مطالعات قديمة أو المترجمة عن واقعة عصرية أو عن تأثر شخصي . والثاني (بالاد) وهو نوع مخالف للفرع المتقدم . ومنظوماته انما هي مسودات فن هوائي . وهي عبارة عن

ألواح مصورة وخيالات وأحلام ومناظر بديعة وحكايات دارجة وأحاديث خرافة
واساطير ووسوسة . والقصد من نظمها إعطاء فكر عن ماهية الاشعار والقصائد التي
نظمها في القرون الوسطى شعراء التروبادور المتقدمون الذين هم رواة الشعر في عالم
النصرانية . وكانوا لا يملكون من الدنيا إلا السيف والرباب ويطوفون على الامراء
في قلاعهم وفصورهم ويتضيفون على موائلهم وينشدونهم الاشعار استجداء لاحتسانهم
ولو لم يكن في التعبير فخفة لقال المؤلف بأنه وضع روحه في الاود وتخلله في البلاد
على انه لا يبدأ بتقسيم الشعر الى أنواع وأفانين ولا بتصنيفه أصنافاً متباينة . لان
حقيقة الشعر واحدة مهما اختلفت عروضه وأدواره . ولذا فهو لا يبالي باعتراض
من يزعم ان ما ورد في هذا الكتاب ليس هو في شيء من الاود ولا من البلاد .
(كما قيل عن شعر المتنبي والمعري . لانهما لم ينسجاً على منوال شعر الجاهلية ولا حافظاً
على الاساليب القديمة .) فدعهم يقولون ما يشاؤون ويسموننا بما يشتهون من
الاسماء فان العبرة بالمسمى لا بالاسم . ونسجهم يتشددون كل يوم بصلاحية الفن
الفلاني من فنون الشعر . ورافقة الفن الاخر ويقولون بمحدودية هذا وبوسعة
ذاك . ويمنعون في فن التراجيديا ما يجيزونه في فن الرومان . ويسمحون في نوع
الغناء بما يحظرونه في نوع الاود ... الخ . فمن سوء حظ هذا انه لا يفهم شيئاً مما
يقولونه ويفتش في كلامهم عن المعاني ولا يرى فيه الا التشدد بالانقاط فالذي
يظهر له ان ما هو في الحقيقة ونفس الامر جميل صحيح يكون جميلاً وصحيحاً في
كل مكان . وما كان دراماتيقياً أي فاجعاً في قصة من القصص يكون دراماتيقياً
أيضاً في رواية مثله على المسرح . وما كان موسيقياً أي غرامياً في دور (قوله) من
ادوار الشعر يكون موسيقياً أيضاً في سمط (ستروف) من اسماط الشعر المنظوم
أسماطاً اسماطاً واغصاناً اغصاناً . والحاصل التمييز الوحيد الحقيقي في محصولات الفكر
انما هو التمييز بين الحسن والقبيح . والفكر لارض محضبة لم تقتلح تبني مصولاتها
الما فيها بحرية . أعني حسب التصادف بدون ان تصنف صنفاً صنفاً أو تجعل
صفاً صفاً في احواض مصنعة كما تجعل الازهار في البستان الصناعي . او كما جمعت
نوابغ الكلم في رسائل البيان وقيدت المتخيلات في سفائن الاشعار

ومع ذلك فلا ينبغي لك ان تظن هذه الحرية مستلزمة للتشويش . كلا بل هي بالعكس باعثة على حسن الانتظام . وايضاحاً لذلك نقول : تأمل في الحديقة الملوكية التي في قصر فيرسايل بالقرب من باريس تجدها في غاية من التسوية والتعشيب والتنظيف والجرف والكري والترميل مشتملة على كثير من الشلالات الصغيرة ، والبحيرات الصغيرة ، والروضات الصغيرة ، وفيها من التصاوير النحاسية ما هي على هيئة آلهة البحر ، نصفها سمكة والنصف الآخر انسان . وهي سابحة على الماء ، ومتجمعة فوق بحار مساعية جابت من نهر السين بصرف النفقات الباهظة وفيها من تماثيل المرمر والرخام ما هو على صورة آلهة اليونان والرومان ، وهم يغازلون حور الجنان ، ويعزفون بالزامير والعيدان ، وقد احدثت بهم اشجار السرو العالية على هيئة رمزية . وترى شجر اللبان في شكل اسطواني ، وشجر الليمون في شكل كروي ، وشجر الآس في شكل منحرف ، واشجاراً كثيرة لم تكن في اصل خلقها الطبيعية على أشكال منتظمة ولكنها اقتضبت بمقص البستاني وهدمت بآلاته الزراعية . ثم قايس بفكرك بين هذه الحديقة المصنعة وبين غابة عذراء من غاب العالم الجديد تجد فيها اشجاراً ونباتات على سائر الاشكال من غياض ، وآجام وأيك ، ودوح ، وكلاء ^(١) وحشيش ، وعشب طويل ، ونبات تتعرش بلالب وشوك واوراق مختلفة . وفيها مروج نظرة كأنها بين تلك الاشجار الصلبة الشاخنة سوارع أو طرق واسعة لا يسقط فيها نور الشمس ولا يمتد ظل الشجر الا على بساط من الخضرة . ويظير في تلك الغابة الف نوح من الطير بالف لون من الريش وتجري فيها انهار كبيرة تقطع الاشجار وتسحب جزراً مكالة بالازهار . وتتدفق المياه

(١) واشهرها غاب اميركا وغاب افريقيا ومنها غابة الكونغو . والغاب جمع غابة . والغياض جمع غبضة وهي مغيض ماء يجتمع فينبث فيها الشجر وتجمع ايضاً على اغياض . والآجام والاحجام جمع اجمة وهي من القصب . والايك جمع ايكة وهي الشجر الكثير المتنف . والدوح جمع دوحة وهي الشجرة العظيمة من اي نوع . والكلاء هو العشب رطباً كان او يابساً . والحشيش هو الكلاء اليابس . اه مختار الصحاح

الجارية من مكان اعلى الى مكان اسفل فتحدث الشلالات . ويتخلل الضياء بين تلك المياه الساقطة فينقلب الى قوس قزاح . ويتألف من هذا الهدير والخرير والتغريد والزئير الحان وحشية لا مثيل لها . -- فنحن لا نقول : اين العظمة ؟ اين العزة والجبروت ؟ اين الجمال الحقيقي ؟ بل نسأل فقط : اين الانتظام واين عدم الانتظام ؟ فهناك مياه حبست وحوّلت عن مجراها الطبيعي لتتدفق من ينابيع صناعية وتركذ في حياض محتفزة ثم تنفث فيها . وهناك ايضاً آلهة تحجرت ، واشجار قلعة من الارض التي انبتت فيها ، ونقلت من الاقليم الذي ربيت فيه ، وحرمت من شكاها الطبيعي ، ومن ثمارها الطيبة ، واكرهت على تحمل منجل البستاني يفعل فيها حسب اموانه ومشيبته ، ويديرها كيف دار حبل استقامته ، فلا انتظام الطبيعي مضاد ، معكوس ، مقلوب ، مخروب

وأما هنا فبالعكس كل شيء خاضع لأموس لا يتغير . وفي كل شيء آية على وجود الله حي ^(١) . وقطرات الماء تنحدر في مضيقها وتجري انهاراً تجتمع وتصبير بحاراً . وبذر النبات يختار الارض الصالحة له ويصير احراجاً . وكل نجم ^(٢) وكل شجرة صغيرة او كبيرة تنبت في فصاها وتنمو في ارضها وتثمر ثمرها فتنتج في اوانها . فكل ما في هذه الغابة جميل حتى الشوك . فنسأل ايضاً اين الانتظام ؟ فاخترا اذاً بين أحسن ما اتت به الصناعة البستانية وبين مصنوعات الطبيعة ، بين ما هو جميل بحسب الاصطلاح وبين ما هو جميل بغير القواعد الاصطلاحية بين أدب مصنع مرصع وبين شعر مبتكر لم ينسج على منواله أحد

ربما قل معترض بان الغابة المذراء البعيدة عن الناس قد يربض فيها الف حيوان مفترس واما حياض الحديقة الصناعية التي استئمت المياه فيها فلا تحتوي في الغالب الا على قليل من الصفدع المستقدرة . فهذا الاعتراض وارد مع الاسف ولكن اذا خيرنا فنحن نفضل التماسح المفترس على الصفدع القذر . كما نفضل

(١) وفي كل شيء له آية تدل على انه واحد (ابوالعناهي)

(٢) النجم من النبات ما لم يكن على ساق

بربرية الشاعر الانكليزي شكسبير على سخافة عقل الشاعر الفرنسي فايسترون
(ولد في طولوز ١٦٥٦ - ١٧٢٣ م)

ومن المسائل المهمة المقتضى بيانها هو ان الانظام يمتزج بالحرية في الادب
كما يمتزج بها في السياسة . لا بل الانتظام نتيجة للحرية فيها جميعاً . ولكن ينبغي
التفريق بين الانتظام وبين رعاية القواعد . فرعاية القواعد أمر لا يتماق الا
بالشكل الخارجي . وأما الانتظام فينتج من باطن الاشياء اي من ترتيب العناصر
الاصلية التي في الموضوع المبحوث منه ترتيباً يستحسنه الذوق . فرعاية القواعد هو
تأليف مادي ووضع انساني . وأما الانتظام فهو أشبه بالامر الالهي . فهاتان
الخاصتان المتخالفتان في ذاتهما كثيراً ما توجد احدهما بدون الاخرى . فالكنيسة
المبنية على القالب القرطي يظهر لنا فيها انتظام بديع رغماً عن سداجتها وعدم رعاية
قواعد البناء فيها . وأما الابنية الفرنسية الحديثة التي بنيت على قوالب ابنية
اليونان والرومان وقد البنائون في بنائها تقليداً أعمرى بغير ذوق ولا مهارة
فتظهر لنا غير منظمة رغم ما في بنائها من رعاية القواعد المعمارية . فلمؤلف العادي
لا يتذرع عليه تصنيف تأليف على حسب القواعد . وأما وضع الانتظام في التأليف
فلا يتيسر الا لذوي العقول الكبيرة من المؤلفين . لان الخلاق^(١) الذي ينظر
من الاعلى ، ينظم . والمقلد الذي ينظر من القرب ، يطبق على القواعد . فالاول
يعمل بمقتضى ناموس طبيعه . والثاني يتبع قواعد طريقته . فالصناعة الهام للاول .
وعلم للثاني . والحاصل رعاية القواعد هي ذوق المتوسط^(٢) . والانتظام هو ذوق
القريبة . ومن هنا يفهم الفرق بين ادب الطريقة الرومانية وبين ادب الطريقة
المدرسية

واعلم ان الحرية في هذا المقام لا ينبغي ان تصل الى الفوضى . وان الخروج
عن الاسلوب لا يقتضي ان يكون وسيلة لتجوير اللحن والغلط . فبقدر ما يهور
المؤلف في الخروج عن الاسلوب يلزم ان لا يكون في تأليفه لومة للاثم . لانه اذا

(١) اي مختلف المعاني (٢) اي المتوسط في الادب الذي لم يبلغ شأو

أراد التفوق في حق واحد على غيره يجب أن يكون معه عشرة حقوق زائدة عليه
وبقدر ما يهمل علم البيان والمعاني يجب عليه أن يراعي علم النحو والصرف ولا
يجوز له خلع ارسطوطاليس البياني ^(١) الا اذا جلس مكانه فوجيلا النحوي ^(٢) .
وتبغني محبة (صناعة الشعر) التي ألفها بوالو لاجل انشائها على الاقل . ان لم يكن
لاجل ما فيها من القواعد . فالكتاب الذي له اقل اهتمام بما يكتبه يجتهد دائماً بان
يصفي منطقته بدون ان يحو الصفة الخصوصية التي يفصح بها تعبيره عن شخصية
فكره . فادخال التعبيرات الجديدة في الكلام ما هو الا دليل على عدم المقدرة .
واللحن في الاعراب لا يأتي بمعنى جديد ^(٣) . فالانشاء مثل الزجاج كلما صفا تلاماً
ربما اوضح مؤلف هذا الكتاب في غير هذا الحل كما اشار اليه هنا . ولكنه
قبل ان يختم كلامه يستميج القراء في بيان ان رأي التقليد (اي رعاية الاسلوب)
الذي وصي المتقدمون باتباعه حفظاً للطرق الادبية ، ظهر له دائماً بأنه بلاء على
صناعة الادب . فهو لا يجوز للكتابة التقليد لاساليب الطريقة الرومانية فضلاً
عن الطريقة المدرسية . لان الذي ينسج على منوال شاعر من شعراء الطريقة
الرومانية يصير بالضرورة مدرساً ما دام انه يقلد . فسواء عليك كنت صدى
الشاعر الفرنسي راسين أم كنت انعكاساً لنور الشاعر الانكليزي شكسبير فما
انت الا صدى وما انت الا انعكاس . ولو تسر لك النسج بالتمام على صورة
شاعر من ذوي القريحة . فتفوتك دائماً غرابته ^(٤) اي قريحته . فلعجب باكابر

(١) وقد لخص ابن رشد كتاب ارسطوطاليس في الشعر وطبعه المنشرق
فوستو لازينو في فلورانس سنة ١٨٧٣ (٢) نحوي فرنساوي ألف كتاب
الملاحظات على اللغة الفرنسية (١٥٨٥ - ١٦٥٠) وهذا ما قاله الحرجاني
في اسرار البلاغة المطبوع في مصر « ان تكون الالفاظ مما يتعارفه الناس في
استعمالهم ويتداولونه في زمانهم ولا يكون وحشياً غريباً . او علمياً سخيفاً وسخفه
بازالته عن موضوع اللغة واخراجه عما فرضته من الحكم والصفة . كقول العامة
(انشغلت) و (انفسد) (٣) لا كما يقولون ليس على المطرب ان يعرب

(٤) يقول ادباء العرب هذا البيت من الغريب المبتكر . ورأسين كما لا يخفى

هو امام الطريقة المدرسية وشكسبير امام الطريقة الرومانية

الشعراء ولا تقلدهم . ولنعمل بطريقة اخرى . فان نمجنا فنم ، وان سقطنا فما الاهمية ؟

يوجد سوائل لتصبير اذا غطست فيها زهرة او ثمرة او عصفورة وتركناها مدة تكسوها قشرة سميكة حجرية وتحفظ في الحقيقة اشكلها الاصلية . ولكن رائحة العطر ، ولذة الطعم ، وحركة الحياة فقدت . فالتعاليم المشدق بها ، والقباسات المنطقية الاسكولاسيقية ، وسريان داء العادة ، وجنون التقليد يتجن عين هذه النتيجة ، فاذا دفنت فيها قواك الغريزية وتخيلك وفكرك فلا تخرج منهم ابدا . وما تستخرجه منهم ربما تجده محافطاً على شيء من ظاهر العقل والتريجة والذكاء ولكنه يكون متحجراً كتلك الاشياء المصبرة

فاصحاب الطريقة المدرسية يقولون « يحيد عن طريق الحقيقة والجمال كل من لم يتبع الاثر الذي طبعه باقدامهم السالكون قبله في هذا الطريق » فهذا خطأ واصحاب الطريقة المدرسية يخلطون بين العادة والتأب وبين صناعة الادب . ويمشون على اثر العجالات توها بانها الطريق

فالشاعر لا ينبغي أن يكون له الا نموذج واحد وهو الطبيعة ودليل واحد وهو الحقيقة . ولا ينبغي له أن يكتب مع ما كتب بل مع نفسه وقلبه . ومن جميع الكتب المتداولة بأيدي الناس ينبغي له درس كتابين فقط . اوميروس والتورا . فهذان الكتابان المحترمان — الاذان هما أول الكتب تاريخاً وقيمة وكادا يكونان قديعين كالدينا — هما في حد ذاتهما عالمان المعاني . ويجد فيهما الكاتب بنوع ما الخليفة باجمعها مصورة في شكل مضاعف . ففي اوميروس مصورة بتريجة الانسان وفي التورا بالهام الله

انتهى في اكتوبر سنة ١٨٢٦

وبعد المقدمات النظرية البليغة ورد في هذا الديوان المنظومات وهي تزيد على خمسين منظومة بديعة اظهر فيها من رقة الالفاظ وجودة المعاني وقوة التخيل والتصور ما حمل ادباء العصر وشعراءه على الاقرار ولاعتراف له بالفضل والشاعرية وبالقبض على زمام الصناعة الادبية . وأحسن هذه المنظومات المنظومة التي عنوانها « فأنده »

وهو اسم ايلة على شاطئ البحر المحيط في شمال بوردو اشتهرت ايام الانقلاب الكبير بالحرب الاهلية التي حدثت فيها بين حزب الجمهورية وبين المتصربين للملك من الاعيان والرهبان . وكذا المنظومة التي عنوانها (غناري فيردون) وفيردون مدينة على الحدود الالمانية ومشهورة في التاريخ قديماً وحديثاً . وأبدع فيكتور هوغو في رؤساء الذين قتلوا ونكبوا في تلك الحروب الاهلية وكان اذ ذاك على مذهب الكاثوليكين . ومن قصائد هذا الديوان ومنظوماته البديعة (لويس السابع عشر) و (اعادة تيجال هانري الرابع) و (موت دوق برتي) و (ولادة دوق بوردو) و (تعميد دوق بوردو) و (جنازة لويس الثامن عشر) و (تويج شارل العاشر) و (الي عمود ميدان فاندوم) و (الي والدي) و (حرب اسبانيا) ... الخ

٢ - الشوقيات

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقدمتين وختمته بشروح مفيدة واورد فيه احدى واربعين منظومة وقال بان الباعث على نظمها اتجاه انظار الادباء نحو الشرق بعد ان كانوا منذ عهد لويس الرابع عشر لا يبحثون الا في آداب اليونان والرومان ومعارفهم . ففي القرن التاسع عشر اقبلوا على درس لغات الشرق وآدابه وتاريخه وعلومه فوجدوا فيه الافكار والتخيلات عبرانية ، تركية ، يونانية ، فارسية ، عربية ، اسبانية ، لان اسبانيا جزء من افريقيا وافريقيا جزء من اسيا لوجود مشابهة وعلاقة بينهما . وشبه ما في هذا الديوان من المعاني والتخيل بمدن اسبانيا القديمة المشيدة على نمط المدن الشرقية . ووصفها بان فيها منزهات لطيفة تظللها اشجار اللبون وتجري من تحنها الانهار . ويسطع نور الشمس على مياديها الواسعة المعدة للاحتفال بالمواسم والاعياد وازقتها ضيقة بعضها مظلم وبعضها غير نافذ ولا مستقيم . وانية دورها من جميع الازمان وعلى كل الاشكال منها العالي والمنخفض والسود والمبيض والمصبوغ والمنحوت والمنقوش . واتصلت العمارات بعضها ببعض من دور وقصور وفنادق واديرة وتكنات للعساكر . وكل منها يختلف عن الآخر

في طرز البناء والاسلوب المعماري ويدل على نوع غريب قائم بذاته . واسواقها غاصة بالانام يعلو فيها الصياح والخصام . واذا دخل الاشياء مقابرها وقفوا سكوتاً كأنهم اموات وفيها المراح والكنايس والمشائخ التي بقي أثرها من الازمان الغابرة وفي وسط كل مدينة كنيسة الجامعة مبنية على القالب القوطي المعروف . وهناك أيضاً الجوامع قائمة بين اشجار النخيل والجيز وفيها مغشاة بالنحاس والقصدير وابوابها مصبغة وحيطانها مجلاة منقشة ونوافذها عالية وعلى كل باب كتبت آية قرآنية . ورصفت الارض ورصعت الجدران بالفسيفساء . فاصبح كل جامع من هذه الجوامع كأنه زهرة كبيرة تفتحت في نور الشمس وفاح طيبها في الجو

وكان تأليف هذا الديوان في اثناء حرب المورة واستقلال اليونان لان الثورة ظهرت سنة ١٨٢١ في المورة وسرت الى بقية الولايات والجزر اليونانية واستولى الثائرون على اثينا واسسروا فيها حكومتهم وعينوا ماوردو قورداتو رئيساً عليهم . وكان من جملة زعماء الثورة رايان سفينة يونانية يدعى فناري هجم ليلة ١٨ و ١٩ حزيران سنة ١٨٢٢ على الاسطول العثماني الراعي على جزيرة ساقز واحرق بعض مراكبه . فساقت الدولة العلية على اليونان رشيد باشا من الروم ايلي وابراهيم باشا من مصر . وكانت العساكر المصرية مدربة على النظام الجديد فخرجت بالمراكب الى شبه جزيرة المورة واتخذت ثورتها واسترد رشيد باشا اثينا وكادت الفتنة تنام لو لم توقفها اوربا باحراق المراكب العثمانية . وذلك ان الافرنج لما رأوا انخماد ثورة اليونان قامت الجرائد والشعراء تهيج الافكار العمومية في اوربا على العثمانيين وتتنصر لارباب الفساد والعصيان من اليونانيين . فتداخلت في المسئلة انكثرا وروسيا وفرنسا وبعثوا اساطيلهم فأحرقوا الاسطول العثماني واغرقته بدون اعلان حرب على الدولة العلية ولا مراعاة للحقوق المتعارفة بين الملل والامم وجرت هذه الحادثة المؤلمة بتاريخ ٢٠ تشرين اول سنة ١٨٢٧ امام فرضة نافرين في جنوب المورة واشتهرت في التاريخ بواقعة نافرين . ثم انتشبت الحرب بين الدولة العلية وروسيا واخذت العساكر العثمانية بلاد اليونان وعاد ابراهيم باشا لمصر وصارت اليونان ايلة ممتازة تحت سيادة الباب العالي ثم اعلن استقلالها تماماً

فشعراء الافرنج لم يقتصروا كسعماء العرب، على مدح الامراء والتغزل والرثاء بل هم يبحثون في السياسة الداخلية والخارجية ويرجون الرأي الذي يروونه . ولذا اتبع فيكتور هوغو في السياحة خطة استاذ شاتوبريان وخطة اللورد بايرن . وهذا الشاعر الانكليزي بعد ان خدم السياسة اليونانية بقلمه اراد ان يجرب فيها سيفه ويثبت اقتداره في ميدان الحرب كما اثبتته في ميدان الادب . فنزل من قصور لوندرا الى اكواخ ميسولونكي من بلاد اليونان ومات فيها بالحمى . وتهور في فعله وخاطر بنفسه كما خاطر المثني حينما تخرج قاصدا الكوفة سنة ٣٥٤هـ فلقبه اعراب من عشيرة قاتك بن الجهل الاسدي واخذوا ما معه وانصرفوا . فقال له مفلح وكان من اتباعه اأنت القاتل :

فالخيل والليل والبيداء تعرفني
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقال بلى وأظهر الشجاعة حيث ينبغي اظهار الحزم والرأي وكر على الاعراب كرة الفوارس فقتلوه وقتلوا ابنه معه . واسس بالانكليز جمعية دعوها جمعية بايرن (بايرن سوسيتي) وغايتها حماية المسيحيين في الممالك العثمانية كما كانت مقاصد هذا الشاعر وأمانيه ولهذا الجمعية شعبة في الاسكندرية واخرى في اتينا وغيرها ولها علاقة بالمسئلة المكيدونية كما كان لها علاقة بالمسئلة الكريدية

وتوسم شعراء الافرنج في انتصارهم لليونان ان الموجودين في هذه العصور هم من نسل اولئك الابطال والفلاسفة الذين انقروا في القرون الغابرة واورثوا المسلمين علومهم وفلسفتهم . فهذا هو السبب الذي حمل فيكتور هوغو على التعصب لليونان على العثمانيين وعلى تحريضه امم النمساوى على قتل المسلمين ومناذاته بالحرب الصليبية . وكان لم يزل في سن الشباب وعلى سياسة المذهب الكاثوليكي والحزب الملوكي . ولم يك بهر قداهتدى للتوحيد الفاسفي ومحبة الانسانية ولا لاتباع الانصاف الذي ذكره المعري بقوله :

والدين انصافك الاقوام كلهم
واي دين لا يبي الحق ان وجبا
وفعل الافرنج ما فعلوه من الانتصار لليونان بلا مشوق ولا مستصرخ فظن الارمن والبلغار بانهم يتمكنون من استمالة اوربا اليهم بالاستصراخ والتصويت

والانشيد الحماسية فعمدوا في اوربا المجتمعات وخطبوا فيها الخطب المبهجة على غير فائدة . وبعد انقضاء المعرض الاخير باريس بعث المقدونيون شاعرهم الملقب ميخائيلوفسكي مع وفد من اديبانهم لاهات مدن اوربافكان يكثرون انشاد القصائد الشرقية لفيكتور هوغو ومن انشاد اشعار ايرون الانكليزي ومن تنظير هذه القصائد والنظم على منوالها باللسان البلغاري ثم ترجمتها للفرنساوية وتلاونها على الحاضرين في المجالس بكل شوق وحاسة وطنية وهيجان عظيم . ومع ذلك لم تنفعل اوربا ولا تأثرت الافكار العمومية فيها كما تأثرت ايام استقلال اليونان لاسباب كثيرة منها ان المجال لا يتكرر . والامم اصبحت تنظر لمنافعها الاقتصادية والتجارية اكثر من التفاتها للحماسة الجاهلية . وتوهم شبان مصر ما توهمه هؤلاء ايضا ايام بعثوا صاحب جريدة اللواء الى باريس يحمل صورة عظيمة تمثل مصر وهي في الاسر وتحنها ابيات عربية تستغيث فيها من مجلس النواب الفرنسي كما هو معلوم ومطلع الابيات افرنسا يا من نصرت البرايا انصري مصر ان مصر بسوء ... الخ

اما عنوان المنظومات التي في هذا الديوان فهي « الصاعقة » و « قاري » سمي هذه المنظومة باسم احد زعماء الثورة المتقدم ذكره ووصف بها المحاربات البحرية وصور فيها اعلام الدول وهي تخفق على المراكب الحربية . وقصيدة « رؤوس السراي » نظمها سنة ١٨٢٦ على اثر الاشاعة الكاذبة التي اشاعتها الجرائد عن موت قناري بتمثلة اصابته في محاربة ميسولونكي وعن ارسال رأسه مع رؤوس رفقاته الى الاستانة . ووصف في هذه المنظومة السراي وما فيها من السراي والطواشة والبزخ والتقصف ورنى قناري ورفيقين له افجع رثاء وحرص ام النصاري على قتال المسلمين . و (ناظرين) صور فيها محاربة نافارين العدوانية واطم الشامة باحراق المراكب العثمانية ومن ابيانه قوله « مضت ست سنوات ونحن نرى افريقيا تركض لمساعدة آسيا على امة تعلمت كيف تموت . و ابراهيم الذي لا يسكنه شيء طار من البرزخ الى السطح كانه صقر بلا وكر . كانه ذئب نحكم في حظيرة الغنم . فهو يجري الى حيث تستدعيه الغنبة فاذا عاد الى خيمته رمى يده الرؤوس الى السراي . »

ومن منظومات هذا الديوان ايضاً (حصى المفتي على الجهاد) و (وكدر الباشا) صور فيها جلوس الباشا في دائرة الحرم حزيناً وارتباكاً رجال المعية والخدام والخصيان وتساءلهم عن سبب حزنه وعما ينقصه من النعم التي هو غريق فيها بين رقص الجوارى وغناء الغانيات في قصور عاليات وفروشة بالديباج تعبق فيها روائح المسك والعنبر وهن الورد . فوجدوا كدره . لا على خراب البلاد ونهب العباد وكثرة الظلم والاستبداد وانما هو على موت خصيه الحبشي . ومن هذه المنظومات ايضاً (اغاني قرصان البحر) تصور فيها كيف كانت المراكب تجري في البحر المتوسط وتغير على ما في سواحل من بلاد الافرنج وتأسر البنات والغلمان وتبيعهم في السرايات للباشوات . ومنها (الاسيرة) و (ضياء القمر) و (النقاب) صور في هذه المنظومة غيرة الاخوة على اختهم وقتلها لانكشاف الحجاب عنها بسبب الهواء وهي مارة في الطريق امام باب الجامع وبعد قتلها كفنها وقالوا لها هذا حجاب لا يكشف ستره ونحو ذلك من القصائد .

ولم يدع مدينة من مدن الشرق المشهورة الا ذكرها في هذا الديوان . واكثر من ذكر مدن ايطاليا واسبانيا ادخالها في الشرق . وكان لهذا الديوان رواج عظيم حينما نشر لعلاقته اذ ذاك بالمسائل السياسية الجارية . اما اليوم فقد شحبت طلائوته وزال رونقه وقلت الرغبة فيه . لان فيكتور هوكو فضلاً عما كان عليه اذ ذاك من النغرض والتعصب الاعمى لم ير الشرق بعينه ولا عرفه الا بدرس الكتب ومطالعة ما نظمه الشعراء مثل شاتوبريان وبايرون وكوتيه ناظم (ديوان اورينتال) وامثالهم وطالع ايضاً ما ترجم من كلام الحافظ الشيرازي والشيخ سمدي صاحب الكلستان . ومن شروط اهل الطريقة الرومانية الكتابة والنظم عن رؤية وانفعال نفسي ولذا يجدون شعور فيكتور هوكو في الشرقيات بمبها وكلامه مصنفاً لا طبيعياً . بخلاف القسم المتعلق بالاندلس واسبانيا من هذا الديوان فلم يزل له رونق واعتبار عند ادباء الافرنج . لان الشاعر زار اسبانيا في صباه وقرأ مع اولادها في المدرسة فساعدته ذاكرته على وصف ما فيها باحسن صورة وأبدع أسلوب . ومنظوماته التي عنوانها (غرناطة) هي السحر الحلال كانها كتاب في

الجغرافية أفرغ في قالب شعري ومنها يتضح تبحر الشاعر في الجغرافيا والتاريخ والآثار القديمة والفلسفة وقد ترجمنا هذه لقصيدة لتعلم اساليب الشعر الافرنجي ومناحيه وهي :

٢ — غرناطة

لا توجد مدينة لا بعيدة ولا قريبة ، لا عربية ولا اسبانية تنازع غرناطة الجميلة في تفاحة الحسن ^(١) . ولا تظهر اكثر منها ابهة شرقية ولا رشاقة تحت السماء الطف من سمائها . قادس فيها النخل . مرسية اشجار البرتقان . جيان فيها القصر القوطي ذو القل الفريرة . أغريدة فيها الدير الذي بناه القديس ادمون . سيغونة فيها السبكل الذي تقبل اعتابه وفيها قناة قائمة على ثلاثة صفوف من القناطر . نحر اليها المياه من قمة الجبل . ليبر فيها الابراج . برشلونه فيها عمود على رأسه منارة مطلة على البحر . تودلا (تطيله) راعية لصدائقها ملوك اراغوت وهم في قبورهم العتيقة وحافضة لصولجانهم الحديد . طلوشه فيها سوق الحدادين المظلم كان دكاكينه في الدجا منافذ على جهنم

السمة التي شفت في غابر الازمان عين طويا من العما تلعب في جوف الخليج الذي رقدت فيه (فوتارابي) ^(٢) . اليقانت تخرج فيها المآذن بالجيسات قوم بوسله فيها قديسها . قرطبة فيها الدور العتيقة وفيها الجامع الذي تحار العين في عجائبه . مادريد فيها نهر مانزانارس . بلباو تغطيها امواج البحر ويكسي المرج

١ اشارة الى تفاحة الحسن التي نخاصمت عليها آلهات اليونان كما فصل خبرها في الاساطير اليونانية

٢ طويا من اتقيا بني اسرائيل ذهب حينما اسرهم شلعنصر الى نينوى وعمي بصره فخرج ابنه يفتش له عن دواء واجتمع بالملك اسرافيل عليه السلام فوصف له سمكة يأخذ نحتها ويكحل به والده ففعل وعاد اليه بصره وعاش اربعين سنة اخرى وكتبت سيرته في رسالة الحقت بالتوراة . واما فوتارابي فقيل معناها عين العرب وقيل غير ذلك وهي على الحدود الفرنسية من جهة البحر المحيط —

الاخضر سورها المسود من الهرم • مدينة ذات الشجاعة العظيمة تخفي فقرها من
كبرها تحت رداء دوقاتها وليس لها شيء سوى شجر الجيزلان قناطرها الجيلة من
بقايا العرب وقنوانها من بقايا الرومان • بلنسية فيها جرسيات كنائسها الثلاثمائة •
القنطرة ذات التي اسلمت لهبوب النسيم رايات الترك المعلقة على عواميدها ^(١) •
سلمنكه فجلس وهي ضاحكة على ثلاث للال وتنام على نغمات الاوتار وتسفيق
مذعورة من جلبه اولاد المكاتب الصغار • طرطوشة غالية على القديس بطرس •
بويسرده الغنية فيها الرمر مثل الاحجار • تويه تفتخر بقلعتها المئمة الشكل •
طرا كونة تفتخر باسوارها التي بناها اجدد الملوك • سمورة يجري من تحتها نهر دورو
طليلة فيها القصر العربي • اشبيلية فيها جبرالدة • برغة وضعت ثروتها على قبتها •
بينافلور مركيزة • جبرونة دوق • بيفارة كلها زهدت في الحلي الفخيمة • بامبلونه
انظمة منهشة دائما للحروب وقبل ان تنام على ضوء القمر تقفل الابراج المحيطة
بها كالمنطقة

فهذه المدن الاسبانية اما مشجرة في السهول او مرتفعة على الجبال • وفي جميعها
قلاع لم تضرب يد الاعداء فيها بالواقيس • وفي جميعها كنائس جامعة لها جرسيات
حلزونية الشكل ^(٢) • ولكن غرناطة فيها الحمراء

الحمراء وما ادراك ما الحمراء قصر زوقه الجن وملأته بالمحاسن كأنما هو في
الخم • بل وقلعة ذات شرف مخزومة مقلبة • اذا جن الليل سمعت منها اصواتا سحرية
واذا طلع القمر من وراء اقواسها العربية الكثيرة وانعكس نوره على الجدران
احدث عليها نقوشا بيضاء عجبية • غرناطة فيها من العجائب اكثر ما في الرمان من
الحب الذي لونه كلون العقيق وينبت الرمان في وديانها بكثرة • غرناطة اسم على مسمى
غرناطة اذا اشتعلت نار الحرب فقتت في وجوه اعدائها اشد من قمع القبلة الحمراء
بمائة مرة

(١) لعل مراد الشاعر الرايات التي يحملها النصارى من الاراضي المقدسة
التابعة للترك ويعلقونها على عواميد الكنائس تعبدا
(٢) لانها كانت ماذن

إذا اجابت (فيناتوبن) (فيقاقونلد) بدفها المزين بالاجراس او تتوجت
 (جنة العريف) بالنور وامست كانها خليفة ورفعت في ظلام الليل قنفا المضيفة
 فلا شيء أجل من ذلك ولا شيء اعظم من ذلك . وتعزف الابواق من (ابراج
 العقيق) كانها جمهور نحل تسوقه الرياح . وفي القوافة نواقيس مهيئة دائماً لاعلان
 الافراح . وتطنطن في ابراجها الافريقية لتوقظ من في البيضاء . غرناطة لا تجارها
 الرقاء ولا في شيء . غرناطة تغني الاغاني الرقيقة بارق مما هي . وتصبع دورها
 بابهى الالوان . ويقال بان النسيم يحبس انفاسه اذا نثرت غرناطة في ليلة من
 ليالى الصيف نساءها وازهارها في سهوها

جزيرة العرب جدتها . والعرب الرحل المتنعمون انما قطعوا اسيا وافريقيا من
 اجلها فقط . ولكن غرناطة كاثوليكية . غرناطة ضحكت منهم . غرناطة تلك المدينة
 الظريفة لو امكنها ان تكون اثنتين لكانت اشبيلية أخرى . انتهى
 فان كان هذا وصف غرناطة عند فيكتور هوكو فكيف يكون وصف اشبيلية .
 ولا يخفى ما في تعداد هذه المدن الاسبانية من الاهمية في تاريخ آداب العرب
 لانساب الكثير من العلماء والادباء اليها كالشريشي شارح المقامات والشاعر الاشبيلي
 والشاطبي ناظم "شاطبية" وكثير من امثالهم . وأما قوله تحبس انفاسها فهو من تشايبه
 اصحاب الطريقة المدرسية على حد قول العرب اذا برزت الحسنة احتجبت
 الشمس خجلاً ونحو ذلك

اما غرناطة فهي في اسفل جبال نفاده (سيرانفاده) وعلى مجتمع نهري
 دارو وجنيل المنصب في الوادي الكبير وهي مبنية على ثلاث تلال تحتها سهل
 واسع من اجمل السهول يسمى لافيكه . وغالب ابنتها من القرميد الاحمر رصفت
 بعضها فوق بعض فاشبهت الرمانة المفلوقة . ولذا سميت غرناطة ومعناها الرمانة
 وأشهر ابنتها « الحمراء » وهي على تلة يجري من تحتها نهر دارو وفيها برج عظيم على
 رأسه شرف ولونه عقيق ولذا قيل له (تورفيرمبل) وتجاه الحمراء (البايسين) اي
 البيضاء وهي حارة من جارات غرناطة تشتمل على دور لطيفة للسكن . وبقر
 الحمراء جنة العريف (جنرايف) وهي قصر للصيف من ابداع القصور مرتفع على

قمة عالية وسميت الحمراء لانها مبنية بالقرميد الاحمر ومنظرها الخارجي ليس بعجيب
 فاذا دخل الزائر من بابها بهره ما يراه داخلها من التزيين والنقش العربي (ارابسك)
 والتزويق والترصيع بالفسيفساء والنصفيح بانواع المرمر والتميشاني وكتبت عليه
 آيات قرآنية وعبرة (لا غالب الا الله) . وفي كل زينة من زيناتها او تزويقة
 من تزويقاتها دليل على سلامة الذوق والمهارة التامة في الصنعة وحسن الانتخاب.
 ومشمولات الحمراء دوائر كثيرة وساحات ومخادع واروقة وجنات تجري من تحتها
 الانهار . وفيها جامع وحمامات . واشهر مشتملاتها لحوش السباع وهي ساحة سماوية
 مبلطة بالرخام الابيض يقرب طولها من ٣٠ متراً وعرضها ١٦ متراً وعلى جوانبها
 اروقة قائمة على عمد من الرخام واقواس بديعة . وفي وسط الساحة قصعة بيضاء
 قائمة على اثني عشر سبماً من المرمر الاسود ينصب الماء من افواهها ويجري في
 قنوات مكشوفة الى البيوت والمخادع . ولكن الماء ينقطع اليوم عنها . ومن مشتملاتها
 الظريفة قاعة السفراء وقاعة الاخنين وغير ذلك . وقد مثلت الحمراء في كثير من
 المدن الاوروبية ومثلت في معرض باريس الاخير احسن تمثيل
 وتغزل شعراء العرب في غرناطة باشعار كثيرة ونظم رئيس كتابها عبدالله بن
 زمرك موشحات لطيفة منها :

لازمة

نسيم غرناطه عليل لكنه يبري العليل وروضه زهره بلبل ورشفه ينقع الغليل
 دور

عقيلة ناجها السيكة تطل بالمرقب المنيف
 كانها فوق ملكه كرسيا جنة العريف
 تطبع من عسجد سيكه شمسها كلها تطيف الخ

وقال ايضاً ووجه بها من فاس الى غرناطه

لازمة

ابلق لغرناطه سلامي وصف لها عيدي السلام فلورعي طيفها زمامي ما بت في ليله السلام

دور

اعندكم انني بفاس اكابد الشوق والحنين
اذكر اهلي بها وناسي والابل في الطول كالسنين
الله حسبي فكم اقامي من وحشة الصحب والبنين
لازمه

مطارحاً ساجع الحام شوقاً الى الاف والحييم والدمع قد لح في انسجام منيراً عقده النظيم

نوره

يا ساكن جنة العريف أسكنتم جنة الخلود
كم ثم من منظر شريف قد حلف باليمين والسعود
ورب طود به منيف ادواحه الخضر كالبنود
النهر قد ل كالحسام لراحة الشرب مستديم
والزهر قد راق بابتسام مقبلاً راحة النديم

ولد هذا الاديب في غرناطة واتصل بواسطة لسان الدين بن الخطيب الشهير
الى اميرها واحرز منه رئاسة الكتاب وترجمه لسان الدين في كتابه « الاحاطة »
واثنى عليه وقبل بأن ولده كتب هامشاً على ترجمة عبدالله بن زمرك وطعن فيه وقال
بأنه تقرب للامير بالافساد والوشاية على والده لسان الدين وتوفي ابن زمرك مقتولاً
سنة ٧٥٥ هـ قتله زوجته مع ولدين له . ومما قاله ايضاً في غرناطة

عروسة تاجها السبيك وزهرها الحلي والحلل
لم ترض من عزها شريك بحسنا يضرب المثل
ايدها الله من ملك يملك المجد للدول
بدولة الرنجي المهيب الملك الطاهر الازر
تختال من ردها القشيب في حلة النور والزهري
كرسيها جنة العريف مرآتها صفحة القدير
وجوهر الطلي عن شنوف تحمكه صنعة القدير
والانس فيه على صنوف فمن هديل ومن هدير

كم خرق الزهر من جيوب وكل القضب بالدر

فالغصن كالكاغب اللعوب والطير تشدو بلا وتر

وهي طويلة اقتصرنا منها على ما يناسب المقام . فجنة العريف التي اكثر الشعراء من ذكرها هي اشبه بقوله اليوم قصر يلديز . ونظم في بارية ايضاً موشحات ووصف قصرها العجيب فقال

عليك بارية السلام ولا عدا ربك المطار

مدخل في قصرك الامام فتربك السؤل والوطر

عروسة انت يا عقيله تجلى على مظاهر الكمال

مدت لك الف مستقبليه تمسح اعطافك الشمال

والبحر مرآتك الصقيه يشف من ذلك الجمال

الى آخره

وقال ايضاً في هذا القصر من موشح آخر

يا حبذا مبنك فخر القصور بوجه طالت بروج السما

ما مثله في سالفات العصور ولا الذي شاد ابن ساء السما

كم فيه من ردى بهيج وقور في مرتقى الجو به قد سما . الخ

ومما ورد على منوال منظومة فيكتور هوكو البصيدة الشهيرة التي مطلعها (لكل

شيء اذا ما تم نقصان) حيث ورد فيها

فاسأل بلنسية عما شأن مرسية واين شاطبة ام اين جيان

واين قرطبة دار العلوم فكم من عالم قد سما فيها له شان

واين حص ومانحويه من نزه ونهرها العزب فيضان وملا ن

قواعد كن اركان البلاد فما عسى البقاء اذ لم تبقر اركان

تبكي الحنيفية اليضاء من اسف كما بكى لفراق الالف هيمان

على ديار من الاسلام خالية قد افقرت ولها بالكفر عمران

حيث المساجد قد صارت كنائس ما فيهن الا نواقيس وصلبان

حتى المحارب تبكي وهي جامدة حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة ان كنت في سنة فالدهر يقظان
وما شياً مرحباً يلهيه مولته أبعد حمص تغر المرء اوطان

وجمص هي اشيلية وهي على الضفة اليسرى للنهر ابي الوادي الكبير المنصب
في المحيط عند خليج قادس وارتفع وراء المدينة جبل ولذا قال فيها احد واصفيها :
ذكرتك يا حمص ، ذكروني
كانك والشمس عند العرو امات الحسود وتعنيته
غدا النهر عقدك والطود تا رب عروس من الحسن منجوته
وهذا اشبه بقول الشريف العقيلي المنتسب لعقيل بن ابي طالب في مدينة
الفسطاط قاعدة الديار المصرية في اوائل الاسلام :

تبدت عروساً والمقطم تاجها ومن نيلها عقد كما انتظم الدر
ونظموا في اشيليه كثيراً من الاشعار لانها كانت دار انسهم وسرورهم ومركز
عزمهم وحضارتهم وكان اهلها يزيدون على اربعمائة الف نفس . واما اليوم فلا يبلغ
سكانها المائة وخمسين الفا

وفيها القصر الشهير المعروف عند الافرنج باسم (القازار) وفيها منارة
جهرالده وارتفاعها (٩٤) متراً وكان يرصد فيها الافلاك . ومما قيل في بشنية
المعروفة بمدينة فالانس وهي على شاطئ البحر المتوسط عند مصب (غواد الافيال)
واليها ينسب كثير من الادباء :

بشنية جنة عالية ظلال القطوف بها دانية
عيون الرحيق مع السلسيل وعين الحياة بها جارية
قاله ابو العباس احمد بن الزقان ومدحها باشعار كثيرة . ومما قيل في
قرطبة أيضاً :

بأربع فاقت الاقطار قرطبة وهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم افضل شيء وهو رابعها
وقرطبة كما تقدم على نهر الوادي الكبير والزهراء حارة من حاراتها

٣ - اوراق الخريف

افتتح الشاعر هذا الديوان بمقالة ادبية تاريخية سياسية نظر فيها نظرة عامة الى الاحوال الجارية في سنة ١٨٣١ والى المسائل الخارجية وشبه القرن السادس عشر الميلاد بصراط مرت عليه الامم الاوربية من الجامعة الدينية والسياسية الى حرية الضمير وحرية المدنية اي استقلالها بأدارة بلديتها . ومن الفلسفة المنطقية الزهبانية الى الفلسفة الحسية التحليلية المؤسسة على البحث والتفتيش ومن الدين الكاثوليكي الى الدين البروتستانتي . ومن بافانين الصناعة القوطية الى افانين الصناعة المدرسية وهي المستفادة من آثار الرومان واليونان . قال ولم يكن حينئذ في اوربا الا حروب دينية وحروب اهلية وحروب على الاعتقاد بالسحر المقدس وعدم الاعتقاد به ولم يكن يسمع فيها الا صليل السيوف ولغط العلماء المتعصبين فظهور لوتر مؤسس الدين البروتستانتي وظهر ميكل أنج مصور (اليوم الاخر) وهو شيخ المصورين وامامهم وحدث انقلاب وتبدل في اوربا ولكن القلب الانساني مثله كمثل الارض . يتيسر لك حرثها وزرعها وبناء ما تريد بناءه عليها ومع ذلك لا تنفك عن انبات العشب المغروس في طبيعتها وبزوره في داخل جوفها . ولا يتمكن المحراث من الوصول الى اعماقها ولا قلب سافلها لعاليتها . وكذا القلب الانساني ايزل مغروسا فيه شيء من الافكار العتيقة . ولا تزول هذه الافكار تماماً الا بهدم القلب الانساني . اذ لا يكفي ان يقلب عليه سافله فقط . فالذي يهدم القلب الانساني هو الشعر وترنم الشاعر في هذا الديوان بحجة الوالدة وبذكر المعاهد البيتية واحوال الطفولية وعبر عما يجده في نفسه ويحس به في قلبه ولذا كان تأثيره على نفوس القراء اشد من تأثير ديوان الشرقيات . غير ان الشرقيات اكثر سناء وضياء من اوراق الخريف

اما المنظومة الاولى فقطعها « كان لهذا العصر سنان » يعني حينما ولا سنة ١٨٠٢ فشخص كيفية ولادته وحضانة امه وحنوها وراقها عليه . وذكر في القصيدة الثانية بيت ابيه وكيفية الذهاب اليه وما في طريقه من المدن وما حوله من الرسوم والاطلال وما ابقاه في ذهنه من التصور والخيال . وقال في منظومة اخرى « حينما

يولد الطفل تهتف العائلة باصوات الفرح وتقر عيونهم جميعاً برواية لحظه اللطف اللامع وتنهال وجوههم بالبشر مها كانت حزينه او عبوسة واطنب في وصف ما يتعاق بالمولود ومحبة امه له وخفقان قلبها عليه وكيفية نومه وقعوده وبكائه واكله . وصور جميع ذلك بأسلوب بديع يحل منه للقارى انه في دار الولادة يسمع ويرى ما يحدث فيها من الاحتفال بالمولود . وعلى منوالها منقوطة اخرى مطلعها « ما اجل الطفل وهو يتسم » . وكان تزوج وولدت زوجته فاختر لذة العائلة وعرف محبة الاولاد . ولذا خالف في هذا الموضوع المذري القائل :

على الولد يبجي والد ولو انهم ولاية على امصارهم خطباء
وزادك بعداً عن بنيك وزادهم عليك حقوداً انهم نجباء
يرون ابا يلناهم في مؤرب من العقد ضلت حله الارباء
وله ايضاً :

ابوك جنى شراً عليك وانما هو الضب اذ يسدي العقوق الى الحسل
وهو ولد الضب ولذا كني ابا حسل . ويقال في المثل هو أعق من الضب
وهو القائل في اللزوميات ايضاً من قصيدة غراء مطلعها :

ترنم في نهارك مستعيناً بذكر الله في المترنمات
ومنها : ولا ترجع باباء سلاماً على بيض اشرن مسلمات : الى ان قال
خمور الريق لسن بكل حال على طلابهن محرمات
ولكن الاوانس باعشات ركابك في مهالك مقمات
صحبك فاستندت بهن ولداً اصابك من اذاتك بالسماط
ومن رزق البنين فقير ناء بذلك عن نوايب مستمات
فمن ثكل يهاب ومن عقوق وارزاء يجئن مصمات
وان تعط الاثافي بؤس تبين في وجوه مقسمات
يردن بعولة ويردن حلياً ويلقين الخطوب ملومات
ولسن بدافعات يوم حرب ولا في غارة متفشمات (١)

ودفن^١ والحوادث فاجعات
 وقد يفقدن ازواجهن كراماً
 يلدن اعادياً ويكنن عاراً
 يرعنك ان خدمن بغير فن
 ومنها : وما الجارات الا جاريات
 فلا تسأل أهندهن أم لبس
 ولا ترمق بعينك رايحات
 الى ان قال

وساو لديك اتراب النصاري
 ومن جاورت من حنف وسرب
 فان الناس كلهم سواء
 ومنها : وواحدة كفتك فلا تجاوز
 وفي هذا المعنى ايات من قصيدة لعلمة بن عبدة من شعراء الجاهلية مدح
 بها الحرث الغساني واوها :

طحا بك قلب في الحسان طروب
 تكافني ليلي وقد شط اهلها
 ومنها :

فان تألوني بالنساء فاني
 اذا شاب رأس المرء او قل ماله
 بردن نراء المال حيث وجدته
 فكان فيكتور هوكو عارض المعري وصور في هذا الديوان سرور العائلة
 بالاولاد . وكان لما نظمة في زهو الشباب ، فالشاعران في هذا المبحث على طرفي

(١) بغير فن اي بصروب كثيرة ومخدمات ذوات خدم وهي الخلاخل

(٢) الحنيف المسلم على ملة ابراهيم عليه السلام . والعابثون جنس من اهل

تقيض . ولكنهما يتفقان (في تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد ووضع المثنى في كل جيد) وفي الحيرة مذهب الذين قالوا رب زدني فبك تحميراً كما قال ابن الفارض
 زدني بفرط الحب فيك تحميراً وارحم حشا بلظي هواك تسعرا
 فظهر فيكتور هوكو حيرته في منظومة عنوانها « ما يسمع على الجبل » . قال
 فيها : بانه صعد الى جبل مشرف على المحيط الغربي ووقف صامتاً ساكناً يرى
 السماء فوقه والماء تحته ويدعم تلاطم الامواج وتضارب الرياح وامتزاج اصوات
 البر باصوات البحر وصعودها الى الملاء الاعلى . فالصوت الذي يصعد من البحر
 فيه جلاله وسرور وهو من تلاطم الامواج والمدير . والصوت الذي يأتي من
 البر فيه كآبة وحزن وهو من تضارب الرياح وتأفف الانسان من مصائب الحياة .
 فالبحر يرتل آيات الفرح والسلام كترتيل المزامير في صهيون ويحمد الخالق على
 ما ابدعه من جمال المخلوقات فيصعد كلامه الطيب الى الله . وكلما فرغت موجة
 من تسبيحها قامت وراءها موجة اخرى تسبح الله . وأما البر فينادي باصوات
 الويل والحرب ويصرخ ويشتم ويلاطم . فهذا الصراخ والعويل هو بكاء الارض
 وصراخ الانسان . هذان الصوتان احدهما يقول « الطبيعة » والثاني يقول
 « الانسانية » . قال الشاعر « تأملت طويلاً في هذا المنظر الباهر وفكرت في الح
 البحر الذي تملوه الامواج فانفتح في قلبي لجة عميقة لا قعر لها وقات في نفسي لم
 نحن هنا ؟ ما هو الغرض من كل هذا ؟ ما تصنع النفس ؟ ايها احسن البقاء ام
 الفناء ؟ والله يقرأ وحده في لوحه المحفوظ لاي سبب يمزج على الدوام غناء الطبيعة
 بكاء الجنس البشري :

قال المعري :

ارى الخلق في امرين ماض ومقبل وظرفين ظرفي مدة ومكان
 اذا ما سألنا عن مراد هنا كنى عن بيان في الاجابة كان .
 ونظم فيكتور هوكو في هذا المعنى قصيدة اخرى عنوانها « الشمس الغارب »
 صور فيها غروب الشمس وظهور الشفق وتكاثف الغيوم على الافق . واستدل بنظره
 في المخلوقات على وجود الخالق . « ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل

والنهار لا آيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض ربنا ما خلقت هذا بطلاً سبحانك فقننا عذاب النار» قالوا الالباب من الشعراء لا سيما الذين نهجوا نهج الطريقة الرومانية لا يفترون عن التفكير في هذا الامر. ومما هو في منظومة الشموس الماربات من لطائف الايات قوله : « هذه السحب الملوثة بالوان الرصاص والذهب والنحاس والحديد تستكن فيها الزوادة . والاعصار والصاعقة والجحيم وتدمدم دمدمة خفية . فهو الله الذي يعلقها جميعاً في السموات العميقة كما يعلق الفارس على اوتاد البيت اسلحته المتصلصلة . » (١)

ومما ورد فيكتور هوكو في هذا الديوان من التعمائد البدعة ، التي سماها « الدعاء لبحر » قال :

يا بنتي قومي للصلاة . — انظري قد عسّس الليل ، ونزل الضباب على الافق ، وطلع النجم من وراء السحاب كأنه دينار . انصتي لم يبق الا مركبة تكر في الظلام على بعد . والكل دخل يستريح . والشجرة التي على الطريق نفخت غبار النهار بريح المساء (وهي الدبور) .

زحزح الشفق عن النجوم ستار الليل وفجر كل نجم كالشرارة الحامية . ورقق المغرب حاشيته الحمراء . وفضض الليل في الدجا وجه الماء . وامتزجت اقلام المحراث بالمسالك وبما حولها من الشوك . واختفى الجميع عن العيان . والتبست الطريق على ابن السبيل .

النهار الاذى والتعب والبغض . فلنشرغ في الصلاة حيث دخل الليل . ما

(١) سورة النبأ : الم نجعل الارض مهاداً . والجبال اوتاداً . وخلقناكم ازواجاً وجعلنا نومكم سباتاً . وجعلنا الليل لباساً . وجعلنا النهار معاشاً . ونبتنا فوقكم شجراً شداداً . وجعلنا سراجاً وهاجاً . وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً . وجنات النافا

والسبات الراحة . والمعصرات السحاب تقتصر . والاعصار ريح تثير سحاباً ذات وعد وبرق

أصنى الليل وما أوقره : الراعي يعود والماشية تجار ، والريح تعزف في نوافذ البرج ،
والمياه تركد في المسنقعات ، والجميع يتألم ويشكو . لان الطبيعة من شدة تعبها امست
في احتياج للنوم والسلاة والحب .

هذه الساعة هي التي يتكلم فيها الاولاد مع الملائكة . واما نحن فنهرع فيها
للالهينا الغريبة . فجميع الاولاد الصغار يدعون في آن واحد بدعاء واحد . وهم
راكون على الارض واعينهم شاحصة الى السماء وايديهم مضمومة وارجلهم حافية .
ويطلبون لنا الرحمة من الله تعالى .

ثم ينامون . — وحينئذ تنثائر اخلامهم الذهبية في حنايس الليل بعد ان تتولد
من هوشات آخر النهار . فاذا رأت عن بعد انفسهم متصاعدة وشفاهم محمرة طارت
الى ناموسياتهم كما يطير النحل الى الازهار ورفرفت حولها .

ويا عجباً لنوم السرير ! ويا عجباً لدعاء الصغار ! فهو صوت حذر ورأفة
لا عدوان فيه . وما احلى هذا الدبس الذي يقر العين ويضحك السن ! هذا مطامع
النشيد في ليلة السمود . فينيم الولد عقله الصغير في الدعاء كما يضع الطير رأسه
نحمة ، جناحه .

٢

يا بنقي قومي للصلاة . — وادعي اولاً وخاصة التي هزت الليالي الطوال في
سريرك . لتي التقطك من عالم الذروانت نفس لطيفة ووضعتك في الدنيا وصارت
لك امأ شفوقة وقسمت لاجلك نصيبها من هذه الحياة المرة الى قسمين فشربت
الحنظل واستقتك العسل

ثم ادعي لي . فاني احوج منها لدعائك لانها مثلك صالحة ، بسيطة ، صادقة ،
قلها صاف ، ووجهها راض . شفقت على كثيرين ولم تحسد احداً . عاقلة ، حليلة ،
صابرة على غصص الحياة ، متحملة لشر بدون ان تعرف فاعله

ظالما قطفت الزهور ويدها الطاهرة لم تمس قشر الشجرة المنهي عنها ^(١) . ولم

(١) قيل ان الاديب الماهر في الانتقاد الادبي سنت ريف كان يغازل زوجة
فيكتور هوغو ولذا حصل بينهما تقاطع وعداوة

تقع بالفخ مع ضحكة سنها . وتنسى دائماً كل ما سلف ومضى . ولا تعرف الافكار الخبيثة التي تمر في الذهن كما يمر الظل على الماء .
 قبحيل — واجهلي مثلها دائماً — ما في هذا العالم من الشقاء الملوث للنفس ،
 والحظوظ الكاذبة ، والباطيل الفانية ، وكل ما عاقبته الندامة وتبكيك الضمير ،
 والشهوات التي ترغي على القلب كارغوة ، وخواطر الخجل والمرارة الباعثة على
 احمرار الوجه

انا اخبر بالحياة ويمكنني ان اقول لك بقي كبرت واقتضى تعليمك بان الجري وراء السلطة والسعادة والتقن هو جئون ودناءة . وبان كاس^(١) الانتخابات تدور علينا وتسقينا الخزي بدلا عن الفخار . وبان الانسان يخسر نفسه في لعب هذا القمار .

كدا عاشت النفس تعطشت . والامور وان شفت بدايتها عن نهايتها وظهرت اسبابها في عاقبتها فالانسان مع ذلك يشيب على الرذيلة وعلى المضلال المنفور منه . من كثرة المشي يتيه الانسان ويدخل عقله الشك . والكل يترك شيئاً على شوك الطريق التي سلكها فالغنم تترك صوفها والرجل يترك فضيلته

قومي اذا وادعي لي وقولي في مقام كل دعاء : « يا الله يا الله يا ربنا انت ابونا فارحمنا انك انت الرحيم . فارحمنا انك انت العظيم . » ودعي قولك يذهب الى حيث ترسله نفسك . ولا تقلقي فلكل شيء طريق . فلا تقلقي على الطريق التي يذهب فيها

لا شيء . في هذه الدنيا الا وله مجرى . فالنهر يجري متلوياً بين السهول حتى يصب في البحر والنحلة تعرف الزهرة التي فيها العسل . وكل طائر يطير ويقع دائماً على غرضه فالنسر يطير ويرتفع نحو الشمس . والعقاب يهبط على المقبرة والخطاف (السنونو) يطير في الربيع . والدعاء يصعد الى السماء

• فاذا ارتفع صوتك الى الله بالدعاء لي اكون كالعبد الذي جلس في الوادي بعد ان حط حملة على حافة الطريق واشعر بخفة نفسي لان دعائك يأخذ معه وهو

(١) وهي كاس تجمع فيه الاموات لانتخاب رئيس المجلس او غيره

صاعد جميع ما ينقل على عاتقي من الآلام والاوزار والخطايا
قومي ادعي لايك . — لاصيراهلاً لرؤية طيف ملك يمر في المنام كطير
الحمام . ولتشتعل نفسي مع اشتغال البخور . احبي خطاياي بنفسك الطاهر لبصير
قلبي معصوماً تقيماً كأنه صحن الميكل الذي يغسل في كل مساء

٣

ادعي ايضاً لجميع من يمر على هذه الارض من الاحياء ولجميع الذين اندثرت
مآثرهم بهبوب الرياح وتلاطم الامواج عليها . واللاحق الذي يفرح بلمعان الحرير
وبسرعة عدو الخيل . ولكل من يتألم ويشغل سوء كان غادياً أو بادياً . سواء
عمل خيراً أو شراً

ادعي للمنعم بك في الازدات والماكب عن القبلات الى الصياح . ولمن يتخذ
وقت الصلاة ليلهو بالرقص أو الجلوس على المائدة . ويشغل بالفحشاء في الالة
التي تلو النفس الزكية فيها دعاء المساء واذا فرغت من دعائها رجعت خائفة من الله
يسمع رجاءها

يا ولاي ادعي للمعداري المستورات . وله حبوس في القلعة . وللعواهر اللواتي
يبعن اسم الحب العالي . وللماقل الذي يسغرق في مطالعاته ويفكر في الخلق .
وللكافر الملعون الذي يطعن في الشريعة المقدسة . — لان الدعاء لانهية له .
لانك توأمين عن الذين يجحدون والطفولية تقوم مقام الايمان

ادعي ايضاً للذين عم راقدون تحت حجر القبر . يا لها من حفرة سوداء تفتح
امامنا في كل آن . جميع هذه النفوس المالككة مفتقرة لمن يزيل عنها صداء الجسم^(١)
هل سكنوها دليل على انها لا تتألم ؛ يا أولادي لتنظر تحت الارض لان الشفقة
على الاموات

٤

اركبي اركبي اركبي على الارض حيث وضع ابوك اباه . وحيث وضعت امك
امها . حيث يرقد كل من عاش عليها رقدة عميقة في حفرة يتمزج فيها الغبار بالغبار .

(١) معري : تجاور هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذن بذلك وتصدنا

ويجد الانسان تحت ابيه آباء . كاللج تحت اللج في بحر لا نمر له

ياولدي حينما تنامين تنبسمين . فيأتي الطيف وهو فرح في الظلام الذي غطست فيه . فيجفل من نفختك ثم يعود اليك ايضاً . وفي النهاية تفتح عينيك الالهيتين اللتين احبهما . في الوقت الذي يفتح فيه الفجر على الافق جفنه وله اهداب ذهبية فان الفجر عين الالهة ايضاً .

ولكن الاموات لو تعلمين اي نهم ينامون ! فرشهم باردة وثقيلة على عظامهم ولذا شنعهم . والملائكة لا يسبحون وهم محتمعون حولهم وطيف الخيال ينقل عليهم بجميع ما جنته ايديهم . ليلهم ليس له فجر والندامة تنقلب دوداً في القبر وتفتت قلوبهم

يمكنك بكلمة يمكنك تقول ان تجعلي ندامتهم تتخذ لها جناحاً وتطير . وان تبعثي بحرارة لطيفة تلذ عظامهم . وان تجعلي الشعاع يصيب ايضاً اجفانهم الغامضة وان توصلي لهم خبراً من النور والحياة وشيئاً من الرياح والاحراج والمياه

قولي لي حينما تذهبين وانت طفلة مفكرة تدورين على ساطع البحر المتلاطم او تحت الشجر الذي يملأ القلب مهابة بظله وبتضارب الرياح عليه ، الا تسمعين صوتاً يقول لك يا بني حينما ألا تدعين لي ؟

هذه شكوى الاموات ؟ فالاموات الذين يدعى لهم ينبت على قبرهم نبات اشد اخضراراً واكثر ازهاراً . ولكنهم منسيون واحسرتاه ! حتى الشيطان لا يضحك لهم ولا ضحكة استهزاء . ليلهم بارد مظلم . وبعض الشجر الهائل الذي يظل قبورهم يغرس دائماً عروقه في قلوبهم بلا شفقة عليهم

ادعي ! حتى ان الاب والعم والاجداد الذين لا يطلبون من الا الدعاء فقط ، يهتزون في قبورهم عند سماع ذكرهم . ويعلمون ان على وجه الارض من يتذكرهم بعد ، ويشعرون بحصول دمة في عينيهم الفارغة كما يشعر ثلم المحراث بتفتح الزهرة

٥

يا حمامتي لا ينبغي لي ان انا ادعي لجميع الهالكين . ولا الاحياء المارقين من الدين . ولا . لجميع الذين ضمهم القبر . والقبر اصل المآبد
لا ينبغي لي ان الذي نفسه فانية ، مملوءة بالخطايا ، وفارغة من الايمان ، ان ادعي للجنس البشري . لان صوتي يكاد لا يكفي ليستغفر الله عن ذنوبي
كلا بل لو امكن احد أن يدعي اليوم لهذه الارض الفاسدة لكان انت . انت الذي صوتك يسبح . ودعاك الطامع يا ولدي يمكنه ان يكلف بالآخرين
استثلي هذا الاب العظيم الذي ييسم في افكك لماذا الشجرة الكبيرة تنشق الشجرة الصغيرة ؟ ومن الذي يميل بالعقل البشري عن الحق الى الباطل
استثليه هل الحكمة لا تختص الا بالازلية ؟ لماذا نفخته تحطنا ؟ لماذا حشر الانسانية في القبر بلا انقطاع ؟
الاولاد يسهرون في المكان المقدس على الذين افناهم الاثم . فهم ازهار يعطرونهم وهم بنور يفوح عليهم . وهم اصوات ترتفع الى الله
فلنترك هذه الاموات العالية تفعل . ولنترك الاطفال جاثنين على الركب . ايها المذنبون كننا ولنا ذنوب . كننا على شفا جرف هار . فينبغي للطفولية ان يدعونا

٦

الح . . الح . .

وقصيدة الدعاء للجميع طويلة ومشملة على قواعد الانسانية والفلسفة الاجتماعية التي شرعها ووضحها في كتاب البؤساء لان النثر اوسع مجالاً من الشعر الذي يضيق عنه الكلام ولا يتيسر فيه الا الرمز للمسائل والاشارة اليها واللييب تكفيه الاشارة . وانما أوردنا منها ما ذكر لتعلم الاساليب الشعرية التي جرى عليها المؤلف في النظم على نهج الطريقة الرومانية وتظهر افكاره في الموجدات . وكان نظمه لهذه القصيدة وهو في سن الشيخوخة أي في سنة ١٨٨٠ وهي معتبرة من ابلغ كلامه

«الف وثمانمائة واحد عشر» وهي السنة التي ولد فيها الممدوح . وهذا المطامع من اساليب الطريقة الرومانية وليس فيها تعمل ولا تصنع كما في مطلع القصائد المنظومة على نهج الطريقة المدرسية ونابوليون الثاني هو ابن نابوليون الاول وحفيد امبراطور النمسا وبسمى دوق ريشتاد وكانت نشأته في فينا عند امه . والف فيه شاعر العصر آدمون روستان رواية بديمة سماها النسير (لبيكون) تصغير نسر وتمثل في يومنا على المراسح

وفي هذا الديوان أيضا منظومتان عنوانهما (قنارى) وهو بطل اليونان المتقدم ذكره في ديوان الشرقيات . وكانت ولادته سنة ١٧٩٢ في جزيرة إيبساره المجاورة لجزيرة سافز ووفاته سنة ١٨٧٧ . وكان رئيساً على مركب صغير وبعد استقلال اليونان صار رئيساً للاستطول وناظراً للبحرية ثم رئيساً للوزارة .

وفيه أيضا قطعة عنوانها (الرجاء بالله) ومنها يعلم حسن اعتقاد الرجل وان كان من اهل الحيرة . وهي : ضع يا ولد املك في الغد ، ثم في الغد ايضاً ، ثم في الغد دائماً . ولنعتمد في المستقبل . ضع املك وكلما طلع الفجر انكن هناك حاضرين لنستغفر كما ان الله حاضر يغفر . خطايانا يا حبيبي وماكي هي المسببة لآلامنا . فلما لنا اذا اطلنا القعود على الركب يغفر الله لنا بعد فراغه من الغفران لجميع المعصومين ولجميع التائبين

٥ - الاصوات الداخلية

نقل المؤلف في مقدمة هذا الديوان عن شكسبير انه قال في بعض مؤلفاته بان كل انسان في داخله موسيقى فتباً لمن لا يسمعها . واورد في هذا الديوان اثنتين وثلاثين قصيدة غراء ومن ابغها قصيدة البقرة صور فيها قرية بما حولها من الدجاج والكلاب . ينبج هو لا . والناس نيام وتصرخ اولئك عند طلوع الفجر . فالديوك حراس النهار والكلاب حراس الليل . وفي تلك القرية بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين وقفت بكل هيبة ووقار لانمياً بالذين حولها . وجاء صبية بشعور مغبرة واطمار بالية واسنان حادة وصحة تامة وهم في صراخ وجلبة يراحم بعضهم بعضاً

وينادي كل فريق منهم رفاقه . واغتنموا فرصة غياب اللبان واقتضوا على البقرة يعصرون ثديها باصابعهم ويلتهمون حلماتها الكثيرة بافواههم ويمتصون حليبها وهم متكأ كئون حول احشائها وهي غير مكترثة بما يفعلون وشاخصة يبصرها تنظر الى بعض النقط التي حولها

فمثل هذه البقرة كمثل الدنيا ام المحلوقات وما جاءهم الوحيد يلتقطون العشب والابن من تحت احشائها الابدية . قال المؤلف فجن معشر العلماء والشعراء تملقنا بشديك المتين ايتها الطبيعة وارثونا مما ادره علينا فكان لبنك دماً وروحاً لنا . واستفدنا من نورك وحرارتك واوراق شجرك ومن جميع ما عليك من الجبال الراسية والانهار الجارية والمروج الخضراء والسماء الزرقاء وانت تفكرين ببرك ولا تنزعجين منا

نبقرة فيكتور هوغو اشبه بام دفر المعري حيث قال :

دنياك تكني بام دفر لم يكنها الناس ام طيب

والدفر هو النتن والتعفن ولا تخفى مناسفته في تكون بين الحيوان والنبات . ولكن

بقرة فيكتور هوغو تدر على ابائها بابن سائح للشاربين . والمعري

يحلف ما جادت الليالي الا بسم لنا قطيب

والقطيب المزوج

٦ — الاشعة والظلال

افتتح هذا الديوان بمقالة ادبية نثرية قال فيها :

كتب شاعر عن جنة عدن الضائعة وكتب شاعر آخر عن النار . فالدنيا بين

جنة والنار . والحياة بين البداية والنهاية . والانسان بين اول انسان وآخر انسان .

فالانسان موجود باعتبارين احدهما بالنظر للجمعية والثاني بالنظر للطبيعة . ووضع الله

الشهوة في الانسان . ووضعت الجمعية فيه العمل . ووضعت الطبيعة فيه الخيال فمن

الشهوة الممزوجة بالعمل اي من الحياة في الحاضر ومن التاريخ في الماضي تولد

« الدرام » (١) ومن الشهوة الممزوجة بالخيال تولد الشعر بمعناه الاصلي . فاذا نزل توصيف الماضي الى التفصيلات العلمية ، واذا نزل توصيف الحياة الى التشريحات الدقيقة صار الدرام روماناً . فالرومان ما هرا الا درام مفصل تارة بالفكر وتارة بالقلب تفصيلاً لا يليق بالتمثيل على المراسح . وعدا هذا فالشعر فيه درام . والدرام فيه شعر . فالدرام والشعر ينفذ كل منهما في الآخر كما تنفذ الحواس في الانسان او كما ينفذ النور في الاجسام . والعمل فيه احياناً خيال . مثال ذلك ما قاله السبد في الرواية التي ألفها قورنيل : « هذا النور المظلم الذي يربط بين النجوم »

لا احد في هذا الكون، يتخلص من السماء للزرقاء، والشجر الاخضر والليل المظلم والرياح العاصفة والطيور المفردة . وليس من مخلوق يقدر على التجرد من الخليقة . على حد قول المري : أأخرج من تحت هذي السماء فكيف الابق واين المفر . — ومن جهة اخرى الخيال فيه احياناً عمل ... لان الواحد يدمم الآخر والشيء يكمل بعضه بعضاً . فالجمعية تقوم في الطبيعة والطبيعة تظرف الجمعية

فالشاعر تنظر احدى عينيه الانسانية والاخرى للطبيعية . والعين الاولى تسمى الملاحظة والاخرى تسمى التصور . فمن هاتين العينين الشاخصتين في موضوعها يتولد في مخ الشاعر الهام يقال له القريحة الخ

ثم افنتح المؤلف هذا الديوان بقصيدة عنوانها « وظيفة الشاعر » . وكان تكلم على هذه الوظيفة في مقدمة الديوان الاول وقال ينبغي للشاعر ان يكون للامة نوراً يسمى بين يديها . ويربها طريق الصواب . ويقودها الى المبادئ الحسنة . وهي الانظام والشرف ومكارم الاخلاق . ولتكون سلطة الشاعر هينة على الامة يلزم ان يهتز بين اصابعه جميع الياق القلب الانساني كما تهتز اوتار العود . ويلزم ان لا يكون كلام الشاعر صدى لكلام احد سوى كلام الله تعالى . وينبغي للشاعر ان يذكر الامة بان لها ديناً ووطناً وهذا ما اغفل ذكره المتقدمون وان ينشر دائماً باشعاره ما يكون لبلاده من الاقبال والادبار وما في دينه من الزهد

(١) مؤلف اللجنة الضائعة هو الشاعر الانكليزي ميلتون . ومؤلف النار اي الكوميديا المقدسة هو الضابطاني داني انظر مقدمة روى بلاش في تعريف الدرام

والاستغراق في الحب حتى ينال المتقدمون عليه والمعاصرون له شيئاً من قريحته ومن روحه وحتى لا يقول عنه من يأتي بعده في المستقبل بأنه كان ينشد اشعاره بين قوم جاهلين

ويُن فيكتور هوغو في القصيدة التي عنوانها وظيفة الشاعر افكاراً وشرحها احسن شرح وشبه الطبيعة بعود كبير وشبه الشاعر بريشة الهبة يضرب بها على اوتار هذا العود . فالشاعر ياهم الشعر وهو يسبح بين غياض الاشجار وعلى سواحل البحار ويسمع هدير الماء والاصيب النسيم بلاوراق . وقال في آخر القصيدة الرابعة : انثر ايها الشاعر نشيدك الديني بين العائلات وبين الصبيان والبنات وبين الشيوخ وأرد باصبعك الساحل للذين سارت بهم السفن في لج البحر والارياح متغيرة ^(١) . وأرد للعداى العصمة وهي كوكب السعد والشرف . وأرد للجمهور المحراب الذي غطاه الكفر . وأرد للشبان المستقبل وللشيخ الخلود وصب دليلاً في عقول الرجال والنساء . وأرد لكل منهم الصحيح من الجهة المُنقذة حتى يجلد عندك كل مفكر ما يفتش عليه . أغرس محبة الله في القلوب والحق في كل نفس كلمة الهبة من جنس ما تشعر به الخ

وهذا ما اشار اليه المعري في مقدمة لزومياته حيث قال : نسأت ابية اوراق نوخيت فيها صدق الكامة ونزهتها عن الكذب فمنها ما هو تمجيد لله وبعضها تذكير للناسين وتنبيه لارقدة الغافلين ونحذير من الدنيا الكبرى التي عبثت بالاول واستجيبت فيها دعوة جرو ل اذ ول لاه

جزاك الله شراً من عجز ولقاك العقوق من البنينا

فهي لا تسمح لهم بالحقوق وهم ياكرونها بالعقوق . . الخ

فهذه صفة الشاعر الذي ينبغي الاقتداء به والنسج على منواله . لا الشعراء الذين يتبعهم الغاؤون وفي كل واد بهيمون ويقولون ما لا يفعلون حتى صار لهم الكذب خلقاً والتملق الامراء سحبة استجداء لمعروفهم وطلباً لاحسانهم وارق ما في هذا الديوان المنظومة التي دنوانها حزن اوليبيو كنى بهذا الاسم

(١) يوج بحرك والاهواء غالباً لراكيه فهل للسفن ارساء (معري)

عن نفسه وقايس فيها بين جلال الطبيعة وجالها وبين قلة حظ الانسان وقصر ايام
سعادته وليالي انسه وانقضاء شهواته وفناء لذاته . اذ كل من عليها فان ويبقى وجه
ربك ذو الجلال والاكرام . قال فيكتور هوكو في آخر هذه القصيدة : يقرضنا الله
المروج . النضرة والعبون الجارية والاشجار الممتدة والصخور الوعرة والسموات الزرق
والبحيرات والغدران والسهول انضع فيها قلوبنا وامانينا واشواقنا . وهذا القرض
لاجل مسمى . ثم يسترد جميع ذلك منا ويطلق سراجنا ويغمس في الليل المغارة
التي كنا مستنيرين ونحن فيها . ويقول لنوادي الذي انطابت عليه روحنا ان يمجى
اثرنا وينسى ذكرنا . فلا حيلة . انسنا ايها الدار والبستان والظل والخضرة . وابلي
يا عتابنا . واخف يا شبك اثر اقدمنا وغردي يا طيور واجري يا انهار واتي يا اوراق
فان الذين نسيتموهم لا يذكركم ابداً الخ . وهي طويلة محزنة . وفي هذا المعنى
أوما يقاربه قصيدة المعري التي يقول فيها :

للمليك المذكرات عبيد	وكذلك المؤنثات اماء
فالهلل المنيف والبدر والفر	قد والصبح والنرى والماء
والثريا والسن والنار والنثر	ة ^(١) والارض والضحى والنساء
هذه كلها لربك ما عا	بك في قول ذلك الحكاء
خاني يا اخي استغفر الله	فلم يبق في الا الذاء
ويقال الكرام فولا وما في العه	ر الا الشخصوس والاسماء
واحاديث خبرتها غواة	وافترتها للمكسب القدماء

وهي طويلة مدروجة في اللزوميات وكلها حكم ، ونفس المعري ونفس فيكتور
هوكو يتقاربان ولكن الاول اعمى والثاني بصير يرى بهجة الطبيعة وزينتها فيظهر
وصفها في شعره . ويزيد فيكتور سوكو على المعري بانه من اهل عصر جديد
بزغت في افقه شمس الحرية والمدنية واتسع فيه نطاق العلوم وافانين الصناعات
فارتفعت مدارك الشاعر

(١) النثرة نجمتان صغيرتان يقال لهما انف الاسد

ويشبهون القصيدة (حزن اولمبيو) ^(١) بقصيدة البحيرة التي نظمها الشاعر الشهير لا مارتين وترجمها للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيينا وباريس سابقاً . ورأيت في كتاب فرناوي نشر حديثاً بان أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم قصيدة لا مارتين المذكورة للعربية . ومؤلف هذا الكتاب الفرنسي فرديناند دي مرتينو وعبد الخالق بك فروت وعنوانه منتخبات من غزل العرب ترجما فيه من كلام الجاهلية واهل الطبقة الاسلامية ومن اقوال المعاصرين ايضاً مثل حسبي حسني ومحمود باشا سامي البارودي واسماعيل باشا صبري وحفني بك ناصيف .

هذا ما نظمه فيكتور هوكو من الشعر الموسيقي في الدور الاول من حياته . وأما ما نظمه في الدور الثاني اي في منفاه فهو اعلى طبقة وأحسن ديباجة وأشد تأثيراً واهاجة واكثر توقداً وتوهجاً لان قريحته انضجت في شمس الغربة وهو معتزل عن الناس بتلك الجزيرة . واستبحر فكره بمجاورته المحيط الغربي لان للجوار حقاً . فنظم احسن مؤلفاته وهي ديوان القصاص وديوان التأملات وديوان سير الدهور . وابلغ هجاء لفكتور هوكو ما هجا به نابوليون اسات في ديوان القصاص والفرح رناء له ما رنى بنته في ديوان التأملات . وأحسن شعر حماسي له ما ورد في ديوان سير الدهور كما قرره العارفون بكلامه .

٧ — القصاص

الف فيكتور هوكو ديوان القصاص بعد انقلاب الجمهورية الثانية الى الحكومة الامبراطورية وذلك ان البرنس لويس نابوليون بوناپرت بن لويس بوناپارت الذي كان ملكاً على هولاندا واخ نابوليون الاول انتخب رئيساً للجمهورية لاربع سنوات ختامها سنة ١٨٥٢ فخلف امام مجلس نواب الامة وبحضور فيكتور هوكو

(١) اولمبيو اسم لامعني له ولا هو من الاسماء التاريخية وانما كنى به الشاعر

عن نفسه

الذي كان عضوا فيه سلى ان لا يبدل القوانين الموضوعة ولا يخالف احكام القانون الاساسي ولا يخون عهد الجمهورية . ثم صارت الاكثرية في المجلس لحزب الاورليانيين وارادوا ترقية كونت باريس وموشاب من العائلة المالكية في فرنسا . وكان يعارضهم حزب الوارثين الذين يقولون بان حق الوراثة في الملك انما هي لكونت شامبور فهو الذي ينبغي توليته على سرير الملك الفرنسي . فاغتم رئيس الجمهورية هذه الفرصة وكان حق الوراثة في الامبراطورية التي اسسها نابليون الاول منتقلاً اليه لوفة نابليون الثاني عند اهل امه في فيينا وهر الملعب ليكون اي النسير ودوق ريشناد . وكان لنابليون الاول شهرة عظيمة واعتبار زائد في نظر افراد الامة فاخذ رجال المعية وحاشية القصر يشوقون ابن أخيه على الاستبداد بالامر كما يفعل المقربون من أولي الامر في كل جيل وفي كل أمة وكما فعلت بطانة هارون الرشيد ودسوا للمغنين الشعر المهيج واحتالوا على سماعه للخليفة تحريضاً لا على البرامكة ومن هذا الشعر قولهم :

ليت هنداً انجزتنا ما تعد وشففت انفسنا مما نجد
واستبدت مرة . واحدة انما العاجز من لا يستبد

فلما سمعها الرشيد قال اي والله اني عاجز حتى بعثوا الي بائثال هذا . وهكذا كانت بطانة البرنس بوناپارت رئيس الجمهورية يغرونه على الاستبداد ونكث العهد وقلب الحكومة . ففي ٢ ديسمبر سنة ١٨٥١ أي قبل حلول الاجل المضروب لانهاء رئاسته نكث الايمان التي حلفها وغير القانون الاساسي الذي تعهد برعاية احكامه وعدم تغيير مضمونه وبدله بقانون اساسي آخر يخوله حق البقاء في رئاسة الجمهورية عشر سنين . ثم أبدله أيضاً بقانون اساسي ثالث أعلن به الحكومة الامبراطورية بدل الحكومة الجمهورية . وصدقت الامة على هذين القانونين وكان عدد الاصوات المصدقين يزيد على ١٠ ملايين صوت . فاعلن لويس نابليون امبراطوراً على فرنسا وتلقب بنابليون الثالث . وشرع في اضطهاد المخالفين لسياسته وتعذيبهم . ففر فيكتور هوغو من بطشه وبعث يقول له ما معناه

وحلفت انك لا تميل مع الهوى ابن اليمين وأين ما عاهدتني

فاجاب لسان الحال عن نابوليون الثالث
والظلم من شيم النفوس فان تجدد ذا عفة فلعلة لا يظلم
وخرج مشير القصر الامبراطوري يحول بالعساكر في شوارع باريس ويقول
ما معناه

ان المعالي عروس غير وامقة ما لم تخلق رذلتها برشح دم
وكان اول هذا الملك من رجل سعى الى ان يدعو سيد الامم
فهذا الرجل هو نابوليون الاول الذي لا يختلف في شجاعته ومهارته اثنان ولكن
عساكر الامبراطورية الثانية لم تظهر البسالة على قول فيكتور هوغو الا في طرق
باريس وميادينها بقتل احرار الرجال والنساء والاطفال ونهبهم من الارض وتغريبهم
على الجوارح المنشآت في البحر . ولما انتشرت الحروب بينهم وبين جيرانهم ولوا
مدبرين ، ولذا يقول لهم الشاعر متهمكاً : أسد علي وفي الحروب نعامة . على انا
نحن معشر العثمانيين لا ننكر بمالة عساكر الامبراطورية ولا شجاعة ماقيمون حينما
صعد على قلعة مالاكوف في مدينة سيستابول من شبه جزيرة القرم فقبل له بان
الروس وضعت تحت البرج باروداً لتطيره فاجاب : انا هنا وهنا أقعد ، فذهبت
مثلاً وكان ذلك في الحرب التي حدثت بين الدولة العلية والروس سنة ١٨٥٥ وكانت
فرنسا وانكلترا متفتتين مع العثمانيين

يشتمل ديوان القصاص على نحو مائة منظومة تغبوت منها سهام السخط
والغضب وتساقطت كارجوم والشهب على نابوليون الثالث وعلى أشياعه وأحزابه .
ولم يدع منهم احداً الا وعرض به ورماء بنبال هجومه فندد باعضاء مجلس
المبعوثان ^(١) ومجلس الاعيان لتصديقهم على لائحة القانون الاساسي للحكومة
الامبراطورية . وبالذين نفذوا هذا القانون من الوزراء وامراء العسكرية وسائر
رجال الدولة والمعية . وبالذين تملقوا رجال القصر الامبراطوري وقبلوا اعتبارهم
جراً لمنهم أو دفعاً لمنهم . وبالحكام الذين راعوا خواطرم في الاحكام وحكموا على

(١) مجلس المبعوثان هو مجلس نواب الامة والالف والنون ليست للتشنية

وانما هي اداة جمع بالفارسية

احرار الرجال بل والنساء بالحبس والنفي والاعدام . وبالأقسى والرهبان الذين دعوا في كنائسهم بتأييد عز الدولة الامبراطورية . وسيق الجميع بالسنة حداد . وكلما ذكر سيئة أورذيلة نابوليون الثالث قارنها بحسنة أو فضيلة من حسنات نابوليون الاول وفنائه ولذا لقب الاول بالكبير والثالث بالصغير . فورد في أشعاره كثير مما يسميه ادبائنا في فن البديع بالطباق وهو الجمع بين متضادين لا سيما في الهجوية التي عنوانها الاستغفار أو تكفير السيئات فانه جعلها فيه على طرفي تقيض . فهاجي ديوان القصاص تتخللها أشعار المدح والحماسة . وفي هذا الديوان ايضاً رثاء الذين قتلوا في حادثة دسمبر وتجانين الذين اخرجوا من ديارهم ونفوا بعيدين عنها وانشيد الذين سفروا على البحر ووصف حالة اولئك المصابين والمحكومين والمنفيين وحنينهم الى اوطانهم رشوقهم لمن تركوه فيها من الارامل والايام ومن الاحوات والبنات والاباء والامهات اللواتي ييكنن بكاء الخساء على احبائهم مما تنفطر له القلوب وتفتت الاكباد لا سيما من قرأ شعره وهو يتألم بلدغة الاستبداد

فما ورد في هذا الديوان من بدائع المعاني القصيدة الثلاثة من الفصل الثاني وعنوانها « نذكار ليلة ٤ » وهي الليلة الثانية من جلوس نابوليون على تخت الامبراطورية . نظمها الشاعر ليلة عيد الجلوس سنة ١٨٥٢ وصور فيها ما شاهده في تلك الليلة وجسم الحادثة بكيفية بديعة ومضمونها ان صبيّاً يتيماً حسن الصورة حسن الاخلاق كان يلعب مع الصبيان امام دارهم فاصابته رصاصتان من بندق عسكر الامبراطورية وهم يتجولون في شوارع باريس لارهاب الناس وتسكينهم . ولم يكن لهذا الصبي المقتول الا جد وجدة طاءان في السن ليس لهما وارث سواه فادخلته جدته الدار والدم يسيل من جراحه ومات بين يديها فاخذت تنوح وتلطم وتقول واسواتاه ! واحمرتهاه ! كيف اعيش بعدك يا ولدي ومهجة كبدي . لم تخلف لي امك سواك . افهموني انتم يا حاضرون لماذا قتلوه ؟ اريد ان تعرفوني السبب . الصبي لم يصرخ لتحج الجمهورية

قال الشاعر اما نحن فكنا واقفين صامتين دهشة وفرائصنا ترتعد امام هذا المآثم الذي لا عزاء له الى ان قال لها مخاطباً .

انها الجدة انك لا تفهمين السياسة ابداً . الموسيو نابوليون — وهذا اسمه الصحيح — فقير بل وامير أيضاً (برنس) يحب القصور . ويقتضي ان يكون له خيل وخدم ونقود للعب القمار ولسفرة الطعام ولخزائن الملابس وللخروج للصيد . وبهذه الوسيلة يخلص العائلة والكنيسة والجمعيه . ويريد ان يكون قصره من كلو مملوا بالورد طول الصيف لتأتي اليه ولالة البلاد واعيانها ويسجدوا له . فهذا هو السبب الذي اوجب الجدات العجائز ان يخطن باصابعهن المرتجفة من الهرم اكفان صبيان لم يتجاوزوا من العمر سبع سنين

والقصيدة السادسة من الفصل الثالث عنوانها « الشرقية » قال فيها

لما رأى عبد القادر وهو في سجنه قد دخل عليه ذلك الرجل ذي العينين الضبقتين الذي يسميه التاريخ نابوليون الثالث قال مزدرباً من يكون هذا الرجل ؟ رأى وهو في نافذته رجل قصر الايليزة الاحول يمشي وخلفه قطع كائنهم في خدمته . اما هو فكان اسد الصحراء والسلطان الذي ولد تحت اشجار النخيل وصاحب الساع الكاسرة . فهو الحاج النافر وعينه هاديتان . والامير المفكر الشديد الرحيم . وهو رجل عابس متشائم شبح اصفر في برنس ابيض . وثوب وهو خراف بمداومة الحرب ثم وقع في الظل على الركب . وهو الذي يصلي على قارعة الطريق ويجلس في الخباء المرفوع الاطناب وترى النجوم يديه المصبوغتين بدم الانسان وهو ساكن الجأش . وهو الذي يسقي السيوف ويجلس على الروس المقطوعة مفكراً في بديع خلق السموات . فلما رأى لحظ هذا الرجل الخائن المحتمل وجبهته المظلمة من الخجل احجم عنه وهو العسكري الجميل والشيخ المهيب الجليل ونفر من شاربي ذاك الشنيع (١)

فقبل له انظر ايها الامير بلطات العساكر وهي مارة فهذا الرجل هو قيصر الحرامي اسمع هذه الشكايات المرة وهذا الصراخ المتعالي . فهذا الرجل الذي لعته الامهات ولعته الزوجات . لانه رماهن وكسر قلوبهن . واخذ فرانساً وقتلها وهو الان بلغ في

(١) وكان نابوليون الثالث ذا شاربين افقيين عكس امبراطور المانيا الحالي

دمها . فحينئذ سلم عليه الحاج عبد القادر . ولكنه في الباطن احتقر هذا الدني الذي الدموي
فهذا النمر الاشم الانف شم ذاك الذئب وهو مستخف به . اهـ

انظم فيكتور هركو هذه الهجوية وهر في جزيرة جربي في نوفمبر سنة ١٨٥٢
وكان الامير اطور نابليون بعد جلوسه يذهب للاصطبايف في مدينة بو التي هي من
اجل المدن الفرنسية على حدود جبال البيرينه وفي مدينة بياريس التي على
ساحل المحيط الغربي بالقرب من الحدود الاسبانية فزار في احدى سفراته الامير
عبد القادر الجزائري ولطفه واطلق سراحه

فان هذا الامير الخطير بعد ان ثبت امام الفرنسيين ١٥ سنة واطهر من
البسالة والدراية في الحرب ما لا مزيد عليه اضطر سنة ١٢٦٤ هـ على تسليم نفسه
فسيره الدوق دو مال والي الجزائر في ذلك الحين الى فرانس . فانزل في قصر
لامانغ من مدينة طولون . ثم نقل منه الى قصر مدينة بو ويسمى قصر عمري
الرابع وهو من احسن القصور بناء وزينة ولم يزل السائح يشاهد فيه الدائرة التي
سكنها الامير عبد القادر سنة ١٨٤٨ م ثم نقل منه الى قصر امبواز وهو بالقرب من
مدينة تور التي انتهت اليها فتوحات العرب في اوائل القرن الثاني من الهجرة . وفي
سنة ١٢٦٩ هـ حضر الامير عبد القادر للاستانة ونال التفات السلطان عبد المجيد
وذهب ليقم في مدينة بروسه . ولما حصلت فيها الزلازل ارتحل عنها الى دمشق
سنة ١٢٧٢ هـ وتوفي سنة ١٣٠٠ هـ في قصره الذي بقية دامر فنقل نعشه الى
الصاحية ودفن بتربة محي الدين بن العربي رحمهم الله جميعاً . والامير عبد القادر
هورب السيف والقلم وله تأليف معتبرة مطبوعة وترجم احدها للفرنساوية المسيو
دوغا . وكان الامير عضواً فخرياً في الجمعية العلمية الفرنسية

ومما في هذا الديوان من الاهاجي والمناجاة البليغة المنظومة الثمينة من الفصل
السادس وعنوانها « دعاء المغربين » وفيها توسلات الالهية ومحاطبات لحام الوادي
ونسيم الصبا كأنها مترجمة عن العربية قول فيها :

يا الله يا كبير اليك ترتفع اكفنا ونحرك تشخص ابصارنا . اللهم ان هؤلاء
المكبلين بالحديد وعبراتهم تسيل على الحدود لهم أشد الممتحنين بلاء مع انهم

اصح الناس حالاً . اينها الطيور المارة ان هناك مناظرا . ايها الرياح الجارية ان
هناك اخواتنا وامهاتنا يبكين ليلاً ونهاراً . بلنهم يا طير بؤسنا . واحمل اليهم يا نسيم
الصبا اشواقنا . وانت يا الله نرسل اليك فكرنا . ونسألك ان تنسى هؤلاء المحكوم
عليهم بالقتل ظالماً ولكن أن تجعل مجدهم افرانسا المهانة وان تتركنا نحن
المظلومين نموت في هذا المذاب الاليم الخ . وهذا يذكرنا بقول ابن المعتز
حينما أخذ ليقتل

يا نفس صبراً لعل اخير عقيبك خانتك من بعد طول الامن دنياك
مرت بنا سحراً طير فقلت لها طوباك يا ليتني اياك طوباك
أن كان قصيدك شوقاً بالسلام على شاطي القرات ابغني ان كان مثواك
من موثق بالنايب لا فكاك له يبكي الدماء على الف له باكي

ولا ادري أن كان لها بقية ام لا ولكن الغالب في الشعراء العربي ان يعلموا به
النفس ثم ينقطع قبل أن يشفي غليل النفس بذكر الوسط الذي يقوم فيه الشاعر
وشرحه وتوصيفه بجميع ما فيه كما يفعل شعراء الأفرنج . نعم أن شعراء الجاهلية
ومن نسج على منوالهم شرحوا اوصاف الفرس أو الناقة مثلاً واطنبوا في ذلك ولم
يتركوا عضواً ولا حركة ولا هيئة الا ذكروها وتخلوا فيها ونسجهم مع ذلك حصروا
نظرهم في نقلة واحدة ولم يلتفتوا يميناً ولا شمالاً الى ما حولهم من مناظر الطبيعة
وبدائع المخلوقات

:

وابن المعتز اشعر بني هاشم وهو ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل
ويسمى خليفة يوم لانه ولي الخلافة يوماً واحداً ثم خاتته الايام وغدرت به السياسة
فسلم اونس الخادم فقتله . وتشبيهات ابن المعتز واشعاره مشهورة ومن مؤلفاته
كتاب الزهرة والرياض ، كتاب البديع ، كتاب مكاتبات الاخوان بالشعر ،
كتاب الجوارح والعين ، كتاب السرقات ، كتاب اشعار الملوك ، كتاب الآداب
كطب حلي الاخبار ، طبقات الشعراء كتاب الجامع في الغناء ، أرجوزة ذم الصبوح
ومن قوله

سقى الحظيرة ذات الظل والشجر ودير عبدون هطال من المطر

فطالما نهيتي للصبح بها في غرة الفجر والعصفور لم يطر
ومن كلامه البديع قوله : أنفاس الحي خطاه الى أجله . وكان مستجمعا للكلمات
الانسانية وقيل في رثاه

. ما فيه لولا ولا ليت فتنقصه وانما أدركته حرقة الابد

قرأ على المبرد ومعلب وتاريخ ولادته (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ)

والفصل السابع من هذا الابوان مجوية عنوانها « هاتين قدوركن يا ساحرات
شكسبير » اشارة الى رواية ماقت التي ألفها شكسبير وما فيها من خبر الساحرات
اللواتي يطبخن السحر في القدور ويفتحن للنساء الفال فقال فيكتور هوغو هاتين
قدوركن يا ساحرات شكسبير . وخذن عني يا ساحرات ماقت كل الامبراطورية
من قديمة وحديثة . وضعن في كانون واحد برجه السمين والكونت فروشو وفلان
وفلان وعددًا كبيراً من رجال نابوليون الى ان قال واحنين رؤوسكن
وانفشن شعورك وحلقن عيونكن واكشفن نحورك وانفخن بملء رئاتكن على النار
التي تحت القرعة وانظرن فان الصغير يخرج من الكبير وصيرن باروش وطاليران
بخاراً وكذا ابن الاخ الذي يهبط بينما ان العم يملو . فما الذي بقي في قعر الانبيق؟
العار

فكان فيكتور هوغو هور في جزيرة جرسي كلما سمع بنفي المتهمين بالسياسة
لبلاذ الجزائر أولاميركا يفور غضبه ويشدد غيظه ويهدر كمدير البحر . وشبه السفن
التي تحمل المنفيين باليوم التي تنادي على خراب البلاد بابعاد نخبة الشبان الاحرار
منها . ولكنه مع ذلك لم يقطع رجاء ولا خابت امانيه بل كلما نظر في المستقبل لاح
له قبس الفلاح ولمع في عينيه نور الصباح وراقت اشعاره وصفا كلامه ولذا شبهوه
بالبحر الذي يهيج تارة ويسكن اخرى . وله في البحر تشايه واستعارات لم يسبق
اليها . وقال في خاتمة هذا الديوان انه سوف ينبج صبح المدل ويزهق ليل الباطل
ان الباطل كان زهوقا . وأنذر باستيقاظ الامة من رقدة الغفلة ومجازاتها الظالمين
المستبددين المجرمين . ان المجرمين في ضلال وسعير . ان الذين كفروا وظلموا لم

يكن الله ليغفر لهم ولا يهديهم طريقاً . ولو أطلع السيد عبد الله ندبم على ديوان القصاص لما حرر كتاب المسامير

٨ - ديوان التأملات

وعرف هذا الديوان بتسميته أيضاً سانحات الفكر ونلخص فيه أعمال ربع قرن من حياته وما شعر به من فرح وترح وقال في مقدمته بأنه تاريخ حظ من الحظوظ البشرية في شقائه وسعادته أراهو ديوان الحياة الإنسانية منذ خرجت من معنى المهد الى ان نزلت في معنى اللحد . وأبواب هذا الكتاب هي : الفجر النفس الزاهرة التنازع والاماني ، في المسير ، على ساحل اللامتاهي . ومنها يفهم فكر الشاعر في ترتيب المنازل التي يقطعها المسافر في طريق الحياة . واجاد في وصف المناظر الطبيعية وتصوير وجوه الارض على حد قول أبي تمام :

يا صاحبي تقصياً نظريكا ترميا وجوه الارض كيف تصور
تريا نهاراً مشمساً قد زانه زهر الربا فكأنما هو مقبر
ومن ذلك ايضاً قول القاضي عياض وقد تولى قضاء سبته وغرناطة :

انظر الى الزرع وخاماته تحكي وقد ماست أمام الرياح
ككتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

وأبدع ما في هذا الديوان الرثاء الذي رثى بنته حينما انشبت فيها المنية اظفارها وهي في ريعات الشباب واشهر العرس وأتى بالبدائع والعجائب في وصف قلب الوالد على ولده وما يكابده بسبب موته من الام الحياة وعذابها . ولعله تابع في النظم شعوره وأحاساسه فجعل اول المراثي تفجماً وبكاء . ثم أرتفع صوته بالنحيب والمويل . ثم زاد ألم الرزية عليه وكبرت المصيبة في عينه فصار يهدير كما يهدير المجنون ولا يعني ما يقول فطوراً يقاتل القضاء وارة يامن القدر وانقطع من الدنيا وزال رجائه بالآخرة ويشس من هذه الحياة الفانية

ثم برد قلبه شيئاً فشيئاً وهذا باله رويداً رويداً فصار يندب ميتة ويمدد محاسنها ويتذكر زمن طفوليتها وشبابها وعرسها وكل ذاكرة منه تسيل من عينه عبرة

وتودع في قلبه حسرة . ولم ير له ملجأ الا في تسليم الامر لله والرضا بما قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار وتزال الى الله وانكب على اعتاب مراحمه كانه عمل بنصيحة الشيخ محمد ايش حيث قال :

الزم باب ربك وأترك كل دون وأسأله السلامة من دار الفتون
لا يضيق صدرك فالحادث بهون الله المقدر والعالم شئون
لا تكثر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واغتمامك وبحك لا يفيد القضا تحمكم فالزم السكون
لا تكثر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يران فوض له امورك وأحسن في الظنون
ومنها الرضا فريضة والسخط حرام والقنوع راحة والطمع جنون
وأفجع رثاء واحسن توسل لفيلكتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها « الى
فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تنزه مع زوجها في زورق
على نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفجع والرثاء . قال
فيكتور هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب الى جبال البيرينة وسواحل المحيط
الغربي :

الى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عيني . الان أنا
تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الان خرجت مصفراً
من المأتم الذي أظلمت منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي
الان استطعت ان أجلس على شاطئ البحر متأثراً من هذا الافق اللطيف
الهادي وان اخص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر الى الازهار وهي
في الحدائق

الان ياربي ، حصلت لي سكينه محزنة استطيع بسببها ان أرى بعيني رأسي

الحجر الذي أعرف انها نامت في الظل تحته نومة ابدية .
الان قد رقت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور
واودية ونهر كالفضة

ولما رأيت عجزى ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فجئت اليك
يا الله يا من يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي بكسرتة
وهو مملوء بحمدك

جئت اليك يا الله ، معترف بانك رؤوف رحيم حلیم وبانك اله حي . وأقر
بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبأن الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح
أقول بان القبر الذي يغلق على الاموات يفتح الفلك الاعلى . وان ما نحسبه
في هذه الدنيا نهاية هو البداية

أقر ايها الاله العظيم وانا راك بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا
نهاية له . أقر بان انجراح قاي هو خير وهو غديل . لان الله أراد ذلك
لا أعترض أصلاً على جميع ما اصابني بازادتك . فانفس تندرج في الابدية
من ماتم لماتم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل
لا نرى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الاخر غاطس في سرائيل مرعب
فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطلع على الاسباب . وجميع ما يراه قصير
، زائل ، لا فائدة فيه

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الارض
يقين ولا سرور

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يعط شيئاً في ايامه
السريمة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضى وأحباني .
جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت
هذه الاشياء واقعة فانا أقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث ^(١) . يا الله ! العالم مظالم
والحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضاً . والانسان ما هو الا ذرة

(١) ليس في الامكان ابداع مما كان . لو اطلعتم لقاتم الخبرة في الواقع

وتودع في قلبه حسرة . ولم ير له ملجأ الا في تسليم الامر لله والرضا بما قدره وقضاه فصبر على البلاء ورجع بانكسار وتزال الى الله وانكب على اعقب مراحه كانه عمل بنصيحة الشيخ محمد عايش حيث قال :

الزم باب ربك وأترك كل دون وأسأله السلامة من دار قمتون
لا يضيق صدرك فالحادث بهون الله المقدر والعالم شتون
لا تذكر همك ما قدر يكون

نحن والخلائق كلنا عبيد والاله فينا يفعل ما يريد
همك واعتمادك وبحك لا يفيد القضا تحكمكم فالزم السكون
لا تذكر همك ما قدر يكون

ومنها أيضاً :

مولاك المهيمن انه يراد فوض له امورك وأحسن في الظنون
ومنها الرضا فريضة والسخط حرام والقنوع راحة والطمع جنون
وأجمع رثاء واحسن توسل لفيككتور هوكو ما جاء في المرثية التي عنوانها « الى فيلكيه » وهي المدينة التي غرقت بقربها ليوبولدين وهي تنزه مع زوجها في زورق على نهر السين وقد أتينا على ترجمتها بالحرف بياناً لاسلوبه في التفعيع والرثاء . قال فيكتور هوكو وكان قد خرج من باريس وذهب الى جبال البيرينه وسواحل المحيط الغربي :

الى فيلكيه

الان باريس وطرقها وجدرانها وضبابها وسطوحها بعيدة عن عيني . الان أنا تحت غصون الايك وأستطيع التفكير في حسن السموات . الان خرجت مصفراً من المأتم الذي أظلمت منه روحي وشعرت بان سلام الطبيعة الكبرى دخل قلبي الان استطعت ان أجلس على شاطئ البحر متأثراً من هذا الافق اللطيف الهادي وان انحص في ضميري عن الحقائق الغامضة وان انظر الى الازهار وفي الحداث

الان ياربي ، حصلت لي سكينه مبررة استطيع بسببها ان أرى بعيني رأسي

الحجر الذي أعرف انها نامت في الظل تحته نومة ابدية
الان قد رقت عواطفي بهذه المناظر الالهية ما بين سهول وغابات وصخور
واودية ونهر كالفضة

ولما رأيت عجزى ورأيت معجزاتك رجع لي عقلي امام جلالك فحُثت اليك
يا الله يا من يجب علينا الايمان به . وأحضرت لك قطع هذا القلب الذي كسرتة
وهو مملوء بحمدك

جئت اليك يا الله ؛ معترف بانك رؤوف رحيم حلیم وبانك اله حي . وأقر
بانك وحدك تعلم ما تصنعه وبما ان الانسان ما هو الا ريشة في مهب الريح
أقول بان القبر الذي يفلق على الاموات يفتح الفلك الاعلى . وان ما نحسبه
في هذه الدنيا نهاية هو البداية

أقر ايها الاله العظيم وانا راكع بانك وحدك مالك لما هو حقيقي ، مطلق ، لا
نهاية له . أقر بان انجراح قاي هو خير وهو عدل . لان الله أراد ذلك
لا أعترض أصلاً على جميع ما اصابني بازادتك . فانهفس تندرج في الابدية
من ماتم لما تم والانسان يتدحرج من ساحل لساحل
لا نرى من الاشياء الا طرفاً واحداً والطرف الاخر غاطس في سرليل مرعب
فالانسان يتحمل الاذى بدون ان يطلع على الاسباب . وجميع ما يراه قصير
، زائل ، لا فائدة فيه

أنت تلقي الانسان دائماً في طريق الشك ولم ترد ان يكون له على هذه الارض
يقين ولا سرور

ولا يملك الانسان خيراً الا ويسترده القدر منه فهو لم يسط شيئاً في ايامه
السريمة الزوال ليتمكن من ان يتخذ له مسكناً ويقول : هنا بيتي وارضى وأحباني .
جميع ما تراه عيناه ينبغي ان يراه في مدة قليلة . ثم يهرم وتخور قواه . فما دامت
هذه الاشياء واقمة فانا أقر بانها حدثت كما يلزم ان تحدث ^(١) . يا الله ! العالم مظالم
والحانه التي لا تتغير مؤلفة من البكاء ومن الغناء ايضاً . والانسان ما هو الا ذرة

(١) ليس في الامكان ابداع مما كان . لو اطلعتم لقلتم الخبرة في الواقع

في هذا الظلام الغير المتناهي . فهذا ليل يصعد فيه الابرار ويهبط الاشرار . أعرف بان لك يا الله اشياء اخرى كثيرة تشتغل بها عوضا عن ان تشفق علينا جميعاً وبان الولد الذي يموت ويختلف الحزن لآمه لا يضرك منه شيء .

أعرف بان الثمر يسقط من الريح الذي يهزه وبان الطير يفقد ريشه والزهر يفقد رائحته وبان الخياقة دولاب كبير لا يمكنه ان يدور بدون ان يسحق احداً الشهور ، والايام ، وامواج البحر ، والسون الذارقة بالبكاء تمر جميعها تحت السماء . الازرق أعرف . يا ربى انه يلزم للعشب ان يذبت وللولاد ان يموتوا . لعلك في سمواتك ما وراء طبقة الغيم وفي اعماق الزرقة النائمة التي لا تتحرك تصنع اشياء مجهولة يدخل فيها ألم الانسان كأنه عنصر من عناصرها

أمل هلاك الاشخاص الملاح بتيار المصائب فيه فائدة لمقاصدك التي لا نحصى . طوابع نحو سنا تسير تحت نواميس واسعة لا يغيرها شيء . ولا يرقق عواطفها شيء . وليس في الامكان ان تأتني المراحم الالهية فجأة وتغير ناموس العالم أنوسل اليك يا الله بان تنظر لنفسى وتعتبر بانى اتيت لعبادتك خاضعاً خضوع الصبي . وليناً لبن المرأة

وأعتبر ايضاً بانى منذ طلوع الفجر اشتغلت وقالمت وفكرت وسعيت وجادلت وانا افسر الطبيعة للناس الذين يجهلونها وانير كل شيء بنورك . وانى عملت الواجب سئى في هذه الدنيا وأنا اقتحم المهالك والمخاطر ولا يمكنى ان أنتظر هذا الجزاء ولا أقدر ان أتأمل بانك انت ايضاً تنزل يد بطئك على رأس المنحني وبأنك أنت الذي ترى قلة حظي تأخذ ايضاً ولدي على عجل . واعتبر بان النفس التي اميتت بمثل هذه المصيبة هي مدفوعة على الشكوى . وبانى اجترأت على سبك وعلى رفع صوتي عليك كالولد الذي يرمى البحر بحجر . واعتبر يا ربى ان المرء قد يشك في الله حينما يشتد عليه الألم . وان العين التي تبكي كثيراً تنمى في النهاية . وان الشخص الذي يلقيه مأتمه في أعظم هاربة لا يمكنه ان يضرع اليك وهو لا براك

اليوم وانا ضعيف القلب كالولدة انحنى على اعتابك تحت سمواتك المنكشفة وأشعر في مرارة الى بانى استنرت بنظرة وقعت منى على العالم .

يا ربي ، انا اعترف بان الانسان اذا جسر على الشكوى منك فهو في حالة الجنون . فها انا تركت الشكوى وتركت السب . فدعني أبكي . واحسرتاه ! دع الدموع تجري في جفوني لانك خلقت البشر لذلك . دعني أبجي على هذا الحجر البارد واقول لولدي : اتشعربن باني هنا ؟

دعني اكلمها في المساء حينما يسكن كل شيء ، وانا منعن على ما بقي من جسدها وهي كانت ملك ينسج لي وكأنها تفتح في الليل عينها السماويتين واحسرتاه ! لم يبق في الدنيا شيء يساني . فالتفت نحو الماضي بعين الاشتياق ونظرت الى تلك اللحظة من حياتي فرأيتها تفتح جناحيها وتطير . وسأرى تلك اللحظة حتى مماتي . تلك اللحظة التي فاضت فيها دموعي وصرخت قائلاً : ماذا اذا ؟ الولد الذي كان لي الآن فقدته بالكلية !

لا تغضب علي يا ربي ان قلت هذا . لان جرحي سأل دمه زماناً طويلاً والضيق في نفسي لم يزل شديداً . وقلبي وان خضع لكنه لم يسلم ولم يرض لا تغضب يا ربي ! حيث يصعب علينا أن نخرج نفوسنا من هذه الاكدار العظيمة . انت يا ربي اعلم بان اولادنا لازمون لنا . اذا رأى الانسان ذات يوم في حياته وهو بين اكداره واتعابه وفقره والبلاء الذي ربه به اقداره قد ولد له ولد جميل ضاحك بشوش يخال انه رأى باب السموات فتح له . فاذا رأى مدة سبع عشرة سنة والده الذي هو قطعة من جسده يكبر وينمو ويعقل واذا عرف ان هذا الولد الذي يحبه هو نور في قلوبنا وضياء في بيوتنا وأنه هو السرور الوحيد الذي لنا من جميع ما نتمناه في هذه الدنيا . فلا يخفي عليك يا ربي انه اذا فقد منا يكون حزننا عليه عظيماً . اه — فيلكيه في ٤ سبتمبر سنة ١٨٤٧

وبعد ان طال رثاء فيكتور هوغو ونديه حصلت له الفة بالموت واعتاد عليه . فأنحنى على القبر كأنه يريد انتزاع السر المكنون فيه ونظم قصائده التي عنوانها « كلام على الكتيب » و « وقفة في المسير » و « ما هو الموت » . ولكن لم يتيسر له رفع الستر عن القبر ولا ازالة الحجاب عن هذا الباب . واكثر في كلامه من توحيد الله وذكر الآخرة وخلود النفس

ومن القصائد المشهورة في رثاء الاولاد القصيدة العينية التي نظمها ابو ذؤيب الهذلي المتوفى سنة ٢٧ الهجرة وكان مات له في سنة واحدة خمسة اولاد في الطاعون الذي حدث بمصر ومطلع قصيدته :

امز المنون وريه ترجع والده ليس بمعتب من يجزع
ومنها اودى بني فاعقبوني حسرة عند الرقاد وعبرة لا تقلم
فالعين بدمهم كأن حداقها كحلت بشوك فهي دور تدمع

وفي اشعار فيكتور هوكو ما يحاكي كلام ام حكيم زرجة عبيد الله بن عباس والي اليمن من قبل علي رضي الله عنه . فيما اتاهما بشر بن ارطاة قائد عساكر معاوية وذبح لهما ابني صيين فلم تالك امهما نفسها ولا قدرت ان تقدر في مكانها بل كانت تحوم حوم الطير حول وكر صغارها وقد ذهب عقلها وفرغ صبرها فقالت تبيكها وتولول :

ها من احس بابني اللذين هما كالدرتين، تشظى عنهما الصدف
ها من احس بابني اللذين هما قباي وسمعي قباي اليوم مختطف
ها من احس بابني اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مردهف
من ذل والهدة حبري مدلهة على حيين ذلاً اذ غدا الساف
خبرت بشراً وما صدقت ما زعموا من افكم ومن القول الذي اقترفوا
انحى علي ودجى ابني مرهفه مشحودة وكذاك الانم يقترف

ومثل ذلك مرثي شواعر العرب وجمع كلام من احد افاضل العلماء ونشره في بيروت وسيدة شواعر العرب الخنساء القائلة :

اعيني جودا ولا تبجدا الا تبكيان لصخر الندى
الا تبكيان الجري الجميل الا تبكيان الفقى السيدا

ومن شواعر العرب برة بنت عبد المطلب جد النبي عليه السلام قالت في وفاة أبيها :

اعيني جودا بدمع درر على طيب الخيم والمعتصر
على ماجد الجد واري الزناد جميل الحياء عظيم الخطر

والبكاء على الاموات وندبهم من عادة نساء العرب ولذا نبغت فيه الشواعر
منهن سيما وان قاب المرأة ارق وأحن ولذا قال فيكتور هوغو بانه صار ضعيف
القلب كالوالدة

ومما ورد للعرب في هذا المعنى قول ابي بكر بن زهر الاندلسي
ولي ولد مثل فرخ القطا صغير تخلف قلبي لديه
وافردت عنه فيا وحشتا اذاك الشخيص وذاك الوجيه
تشوقني تشوقته فييكي علي وابكي عليه
وهذا الشاعر الرقيق اشتهر بفن الطب وعلم الادب وسارت الركبان بموشحاته
وهو حفيد ابي العلاء بن زهر الطيب المشهور . وكان صاحب هذه الايات بعث
به الى راکش وسمم فيها فمات سنة ٥٩٦ هـ وله بنت وأخت ماهر تان في الطب
والقبيلة نفيتا أيضاً الى مراکش وقتلتا مثل أخيهما بالسم . وابقى ولده في الاندلس
فقال الايات المذكورة متشوقاً

٩ — سير الدهور

ديوان جليل ملأه الشاعر بالحكمة والفلسفة فاحوج مطالعته الى الدقة والتبصر
فيه ومراجعة كتب التاريخ والفلسفة لفهم دقائق معانيه كما يحتاج لذلك قارىء
الازوميات ورسالة الغفران واشباههما من كتب الادب والفلسفة التي خفيت وقائعها
على كثيرين فنسبوا لها الركاقة . ومن هذه الكتب أيضاً ما ألفه الصفدي شرحاً
على الطبراني صاحب لامية المعجم والقصائد المعروفة في الكيمياء . ومنها أيضاً ما
ألفه ابو بكر بن وحشية صاحب الفلاحة النبطية سنة ٩٠٤ م ومنها نسخة في مكتبة
ايا صوفيا . وزعم المستشرق الروسي شولسن بان لابن الوحشية معرفة بعلوم
الاراميين والبابليين وفنون ادبهم ومن منظوماته « الشوق المستهام » تكلم فيه عن
خطوط المتقدمين وكتاباتهم . وله أيضاً « سدرة المنتهى » بحث فيها عن مواضع
دينية فلسفية . ومثل ذلك أيضاً « ازهار الافكار في المعادن والاحجار » لشهاب
الدين ابي العباس التفاشي المتوفى سنة ١٢٥٣ م تكلم فيه عن المعادن والاحجار

الثمينة وطبعه المستشرق رافيو في اوتراخت من هولاندا سنة ١٧٨٤ م ثم طبعه كليان موله سنة ١٨٦٨ م . ومن ذلك ايضاً ديوان شذور الذهب لبرهان الدين بن ارفع رأسه من مدينة جيان في اسبانيا المتوفى سنة ١١٩٧ م في فاس . وغير ذلك

وجمع فيكتور هوكو في هذا الديوان سيراً حماسية اتخذها من تاريخ البشر في القرون الاولى والوسطى والاخرى وصورها في الواح معظمة وسبكها في قوالب مكبرة وقصصاً مفجعة شرح فيها سير الانسان في مراقي العمران وخروجه من الظلمات الى النور ومن قيد العبودية الى سراح الحرية . وجعل الحق للامم والقوة للملوك الجبارة المستبدن بالرعية . وبين كيفية تغلب الحق على القوة كلما خطا الانسان خطوة في التاريخ وارتقى درجة في سلم الحضارة . وأظهر بذلك قاعدة الحكم لمن غلب « من بين الامم شيئاً فشيئاً ويعلو الحق وينتصر رويداً رويداً لان الحق يعلو ولا يعلى عليه

فنظم فيكتور هوكو في تصوير القرون الاولى قصيدة « تيتان » سلك فيها طريقة الشاعر اليوناني ايشيل مؤلف رواية « برومته » المقيد بالسلاسل وبين فيها ظلم الجبارين ومحاربتهم للآلهة ثم سقوطهم في مهاوي الخزلان . اما تيتان فورد ذكرهم في اساطير اليونان بانهم من اولاد السماء والارض وقيل باهم عصوا على الالهة وارادوا ان يبنوا لهم صرحاً ليبلغوا به اسباب السموات أي نواحيها . فعمدوا الى الجبال ووضعوا جبلاً فوق جبل حتى كادوا يبلغون السماء الدنيا لولا ان كبير الآلهة جوبتير صעתهم بصاعقة دكت الجبال دكاً

ونظم فيكتور هوكو ايضاً « ضمير قاين » ويعرف عندنا بقايل الذي قتل أخاه هابيل ثم ندم على ما فعل . فصور الشاعر ندامته وعين الله ناظرة اليه بالغضب وعظم هذه القصة وجسمها تجسماً لا تقاً برجال ذلك العصر الذين منهم عوج ابن عناق . واشعراء الترك والفرس مبالغات عجيبة في تصوير مثل هذا الموضوع . كالشاعر نفعي الذي وصف شدة الحر وقال بأن زفرة من زفرات الثمل كافية

(١) سورة المائدة : واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق اذا قربا قرباناً فتقبل من

لتنشيف البحور السبع وجملها سراباً ووصف شاعر آخر رستم عنصرة الفرس وقال بان
الذبل الذي رمى به من قوسه اخترق السموات السبع ودخل في الامكان .
واستخرج فيكتور هوكو من التوراة والاسرائيليات غير هذا الموضوع وصوره
كذلك في هذا الديوان

ونظم في تاريخ القرون الوسطى عدة منظومات مثل لا ديسلاس وسيجسوند
وغيرهما من الظلمة وقطاع الطرق الذين توصلوا بالقتل والنهب والحيل والدسائس
الى لبس تاج الملك والجلوس على كرسي الامبراطورية . وقارنها بالسيد ورولان
وغيرهما من الفوارس الشجعان الذين جاهدوا بأنفسهم في سبيل النصرانية وتقاتلوا
في الغيرة والحمية الدينية . ورولان هو ابن اخ شارلمان وقائد جيوشه وشارلمان هو
الامبراطور المعاصر لهارون الرشيد . وتقدم ذكرهم وذكر السيد ايضاً وهو عنصرة
الاسبانيين كما ان رولان عنصرة الفرنسيين وكلاهما اشتهرا في الحروب مع مسلمي
الاندلس . وصور فيكتور هوكو القرون الوسطى بما فيها من المظالم والجرائم الفظيعة
واراقة الدماء والاستبداد والنخوة الجاهلية والمهيب الديني وأظن غاية الاطباب
في توصيف ذلك وتمظيمه ونجسيه

ونظم في القرون الاخرى مقبرة ايلو وهو مكان في المانيا انتصر فيه نابليون
على عساكر الروس وبروسيا . ونظم فصلاً ساء جماعة الظلام واقتتعه بقصيدة

احدنا ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلناك قال انما يتقبل الله من المتقين . ان
بسطت الي يدك لتقتلني ما انا به سطيدي اليك لاقتلك اني اخاف الله رب العالمين
اني اريد ان تبوء باثمي وانك فتكون من اصحاب النار وذلك جزاء الظالمين . فطوعت
له نفسه قتل اخيه فقتله فاصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الارض
ليريه كيف يوارى سواة اخيه قال يا وياي اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب
فاواري سواة اخي فاصبح من النادمين . من اجل ذلك كتبنا على بني اسرائيل
انه من قتل نفساً بغير نفس او فساد في الارض فكانما قتل الناس جميعاً ومن احباها
فكانما احبا الناس جميعاً الخ

١١ — السنة الممولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفاية لما اقترفه من السيئات على زعماء في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الاخر ما جاء به الفرنسيون من الفيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان في اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنسية الالمانية كأنها حلقة للسلسلة الحروب التي اثارها دول اقرون الوسطى المعبر عنهم بالقبو دالينه وهم اشبه بما سكان في بلادنا من اصول التيمار والزعامه وبحكومة الامراء الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويلات الحرب الالهية وما اقترفه الرعا (كومين) في باريس من الفظائع الدموية وظهر حمفهم وجهالهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلبيين

١٢ — صناعة كون المرء جدًا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والاولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأيداً لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة . وكان فيكتور هوكو يطرب لبأية الاطفال ومناغاتهم وللعب الصغار وهوشاتهم ويفرح لا بتسامهم وضحكهم وتبريق عبونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك نجل واستغراق ظهر اثره في نظمه . وبعد ما اصاب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتهما بنفسه فكان يشاهد نشوئهما وتفتح الروح وانتاق الذهن فيها وينظم مطالعته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتلمية وتعليم وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونظمهم ولعبهم . وكذا مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « اغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحقة » وكذا

المنظومة التي عنوانها ايضاً « حنه كانت في العرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مرييتها جازتها بهذا الجزء . تأديباً لها . نجاءها جدها من وراء الباب المقفل واطعمها الحلواء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبعي في انفي ولا ادع المرة تخمشني فذهب ينشف لها عند مرييتها . فاعترض عليه اهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيراً وافسدت تربيتها . وكيف ينظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع وراذع وقانون يتبع . فاقرب بخطه واعترف بان كثره الرحمة مضرة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال ثم اما الخطي . ضعوني مكانها في العرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقولوا له انت مستحق لذلك لان اقانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت اليه - بهين لاشقة والمرحة وقالت له بصوت منخفض « وانا اجيب لك الحلواء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والفاظ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الادباء وقالوا ان في اشعاره ما هو اشبه بياضة الاطفال لالذة فيه ولا طعم له

ثم نظم اربعة دواوين صغيرة تلخص فيها مسلكه الفلسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها « الاديان والدين » . « البابا » . « الحمار » . « الرحمة الالهية » ونظم فيها شيئاً كثيراً مما قرأه في لزوميات المري على حد قوله :

دين وكفر وانبياء تقصّ وفر قان ينصّ وتوراة وانجيل
في كل جيل الباطل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله

جاء القرآن وامر الله ارسله وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الاعاد منتقضا ولا تألف الا شت وافترقا
مذاهب جعلوها من معاشهم من يعمل الفكر فيها تعطله الارقا

.....

ولكن كلام فيكتور هوغو اوضح واظهر واجمع واكثر تفصيلاً وترتيباً وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرها على المعاني الواحدة .

١١ - السنة الممولة

هجا في بعض هذا الديوان نابوليون الثالث وعد سقوط حكومته الامبراطورية كفارة لما اقترفه من السيئات على زعماء في حادثة ٢ ديسمبر . وبين في بعضه الاخر ما جاء به الفرنسيون من الغيرة والشجاعة في الدفاع عن الاوطان في اثناء حرب السبعين الالمانية وما قاموا به من الثبات في حصار باريس . واعتبر الحرب الفرنسية الالمانية كلها حلقة في السلسلة الحروب التي اثارها دول القرون الوسطى المعبر عنهم بالقيودالينه وهم اشبه بما كان في بلادنا من اصول التيمار والزعامة وبحكومة الامراء الذين قيل لهم (دره بك) . وعد انقطاع تلك السلسلة وزوال هاتيك الافكار العسكرية بظهور الفكر الجديد والتقدم العصري . وتكلم في القسم الثاني من هذا الديوان على ويالات الحرب الاهلية وما اقترفه الرعاع (كومين) في باريس من الفظائع الدموية واطهر حشمتهم وجهالتهم في احراق الديار وذبح الرجال وختمه بطلب العفو عن المجرمين المغلبيين

١٢ - صناعة كون المرء جدًا

تكلم في هذا الديوان على الاطفال والاولاد وشبههم بالملائكة واعتبر وجودهم على الارض دليلاً على رحمة الله وتأيداً لما يرجوه الناس من الحياة الآخرة . وكان فيكتور هوغو يطرب لباباة الاطفال ومناجاتهم وللعب الصغار وموشاتهم ويفرح لابتسامهم وضحكهم وتبريق عيونهم وتهلل وجوههم ويحصل له من جميع ذلك تجل واستغراق ظهر اثره في نظمه . وبعد ما اصاب في اولاده عكف على حب حفيده جورج وحفيدته حنه (جان) وشغف بهما شغفاً زائداً والتزم تربيتها بنفسه فكان يشاهد نشوئهما وتفتح الروح وانتاق الذهن فيها وينظم مطالعته وما يلهم به من الشعر . فنظم جميع ما يتعلق بالاطفال والاولاد من تهليل وترقيص وتاهية وتلعيب وصور جميع حركاتهم وسكناتهم ونومهم وقيامهم وجريهم ونظهم ولعبهم . وكذا مثال ذلك القصيدة التي عنوانها « اغاني لترقيص الاولاد الصغار في الحقبة » وكذا

المنظومة التي عنوانها ايضاً « حنه كانت في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف » وذلك أن مرييتها جازتها بهذا الجزء تأدياً لها . فجاءها جدها من وراء الباب المقفل واطعمها الخلاء خفية فقالت له تبت وما عدت ادخل اصبي لي انفي ولا ادع الهرة تخمشني فذهب ينشف لها عند مرييتها . فاعترض عليه اهل الدار وقالوا له اطعمتها كثيراً وافسدت تربيتها . وكيف ينظم امر البيت ان لم يكن فيه وازع وراذع وقانون يتبع . فاقرب بخطئه واعترف بان كثرة الرحمة مضرّة بمصلحة العائلة كضررها بمصلحة الامة وتبعث على انحطاطها وهلاكها . وقال ثم اما الخطي . ضعوني مكانها في الغرفة المظلمة على الخبز الحاف . فقالوا له انت مستحق لذلك لان القانون ينبغي أن ينفذ على الكبير والصغير . فنظرت اليه . بعين المشقة والرحمة وقالت له بصوت منخفض « وانا اجيب لك الخلاء » . فنظم الشاعر هذه القصة بصورة بديعة والمأخذ عذبة وهي مثال لمواضيع قصائده . فكان كالصغير مع الصغار ولذا انتقد عليه بعض الادباء وقالوا بان في اشعاره ما هو اشبه بياضة الاطفال لا لذة فيه ولا طعم له .

ثم نظم اربعة دواوين صغيرة نلخص فيها مسلكه الفاسفي وجميع معارفه العلمية وافكاره الدينية والهاماته الربانية وسماها « الاديان والدين » . « البابا » . « الحمار » « الرحمة الالهية » ونظم فيها شيئاً كثيراً مما نقرأه في لزوميات المعري على حد قوله :

دين وكفر وانباء تقصّ وفر قان ينصّ وتورا وانجيل
في كل جيل اباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل

وقوله

جاء القرآن وامر الله ارسله وكان ستر على الاديان فانخرقا
ما ابرم الملك الا عاد متقضاً ولا تألف الا شتً وافترقا
مذاهب جعلوها من معاشهم من يعمل الفكر فيها تعطله الارقا

.....

ولكن كلام فيكتور هوغو اوضح واظهر واجمع واكثر تفصيلاً وترتيباً وان كان الشاعران يتفقان كثيراً في اصل الفكرة وتتوارد خواطرها على المعاني الواحدة .

ويظفر في كلامهما أثر الحيرة والدهشة من النظر في الكون ولكن فيكتور هو كوكلم يستول عليه اليأس ولا القنوط الذي استولى على افكار المعري واحرمه من نعيم الدنيا ولذا نثا الحياة مع ما كان له من سعة الرزق وكثرة المال . وما انشده في ذلك :

وانهامي بالمال كف ان يطالب مني ما يقتضي التحويل
ويقول الغواة خولك الله كذبتهم لغيري التحويل
عيشة ضاعت / الهواذير ما فيها مفيد وكلها تطويل
ان حباك القدير كالليل تبرا فايضه العطاء والتحويل
الى ان قال واذا هولت علي المنايا راقني من وعيدها التحويل
حوليني عز ظاهر الارض فالقلب يسلي همومه التحويل الخ
ووردت ترجمته في بعض الكتب الفارسية وقيل فيها بانه كان من اهل الثروة واليسار مع زهد وتقشف

١٣ — الاديان والدين

ديوان مشحون بالحكم ولكن ضيق الوقت منعنا عن تدقيقه ومقابلته بما ورد على مثاله من شعر العرب . وهو على خمسة ابواب : باب الجدل ، باب الفلسفة ، باب لا شيء ، باب الاصوات ، باب النتيجة ، ونظم في باب المجادلات . تسع منظومات : (١) يوم الاحد (٢) اول التفكير (٣) النبولوجي ونسميه المتكلم أو المتكلمون وعم الباحثون في علم الكلام والتوحيد . (٤) للتيولوجي أي خطاباً لهم ومطلها :

ايها الرهبان ، ايها الالابسون الحرام والطيلسان ، سواء عليكم تعممتم بمعائم البرز أو تنوجتم بالتيجان المرصعة بالجواهر والآلي ، فحيث جعل لكم في هذه الدنيا حق بالحامة فانتم تتجارزون فيها الحد بشدة لا مثيل لها . لان العلي الاعلى يفض بصره وبصم اذنه عنكم الخ . (٥) الاختراع . (٦) الايدي المرفوعة نحو السماء . (٧) احسن الصنع وبين فيها ما يقوله المتكلمون من النصارى في حق الله (٨) بقية . (٩) مسائل

ثم ذكر في الباب الثاني آراء الفلاسفة وفي الباب الثالث آراء الملاحدين الجاحدين الذين يقولون بعدم وجود شيء . ان هي الا ارحام تدفع ولحم تباع وما يهلكنا الا الدهر . وانما مثلنا كمثل الزجاجة اذا انكسرت لا يعاد لها سبك . وبما الخاتمة فهي منظومة طويلة نظر بها في حسن السماء وبجودها التي هي زيتها وفي الشمس وتقر ونورها وفي الكون باجمعه وقال في ختامها : هو . موجود : هو موجود : انظري اينها النفس . فله اوج وهو الضمير . وله محور وهو العدالة . وله نقطة اعتدال وهي المساواة . وله فجر واسع وهو الحريية . وشعاعه ينير فيما ما تصوره النفس فهو موجود : موجود ! موجود ! بلا نهاية ، بلا بداية ، بلا كسوف ، بلا ليل ، بلا فراغ من العمل ، بلا نوم

فارجي يا دودة الارض عن خالق الشمس . اه وهذا على حد قولنا لا تفكر في ذات الله وحقيقته بل تفكر في خلقه ومصنعه

١٤ - الحمار

اراد المؤلف بنظم هذا الديوان بيان افضلية الطبيعة والسوق الطبيعي على العلم لا سيما على العلم الكاذب والباطل . وقايس فيه بين صبر الحمار وبين خشونة الرجل وعبث الصبي . لان الحمار وان كان في عرفنا كرامة عن البلادة والغاوة ومن اوصاف الذم لكنه في عرف المتقدمين رمز عن الصبر ولذا سمي مروان الحمار وكان ذا شجاعة وحزم . وسمى اليونان بعض رجالهم واظنه اشيل الحمار أيضاً . ففيكتور هوغو سمي حماره الصبر وقايس بينه وبين الفيلسوف كانت وجعل بينهما مخاطبات فلسفية بديعة وقال لكانت : ما الذي وجدته بعد خوض بحار العلوم وما الذي استنتجته من سبر غورها والى ابن ارسطو هذه الكتب والدفاتر فهي لم تذون ولا وضعت في الكتيبات الا لترعى في حواشيها الارضة وتخزن فيها الرطوبة فالعلم الحقيقي هو في وجه الطبيعة والطموية وفي الابتسام والصلاح والبشاشة ... الخ

١٥ - الرحمة العالية

صور في هذا الديوان الظلم والاستبداد وبكاء المظلومين ولعنهم الظالمين وشخص القوة المستبدة أحسن تشخيص وبين الحامل للاستبداد في امرهم على الشكوى. وأكن المآكر في إبطان الامر ونفس الحقيقة يرى اولئك الظالمين الملعونين في حاجة وفقر الشفقة عليهم ايضاً. لان حمل الحكومة والدولة من أثقل الاحمال لا سيما وان اولي الامر واصحاب الاستبداد محاطون دائماً بالمذاهين والمتسلقين. فالظالم شنيع ولكن المغري له والتبصيص اشنع فالمتماتون يفسدون اخلاق الملوك منذ حداثتهم وهم يكررون عليهم في كل صباح ومساء « كل هذه الامة هي لك ». فحب الملك خصلة كبقية الخصال الانسانية والملوك يستوون في الخصال مع بقية الناس ولكنهم يفرقون عنهم بان الحقيقة تخفى عليهم بالكيفية ولا يظلمون على جلي الخبير فهم أحق وأولى بالرحمة العالية

الدرام

استعملنا هذا الاسم ايضاً بضم ادياء العرب اسماً مقبلاً له أو يعرفونه كما عرب المتقدمون كلمة موسيقى أو ارتطاطيقي ونحوهما من الكلمات اليونانية. والمقتضى لهم ايجاد كلمة تكون على وزن ن اوزان الاسماء العربية ويسهل النطق بها على اللسان لاننا في عصر يحتاج فيه لادخال كلمات جديدة في لغة العرب كما ادخل السلف فيها الكلمات اليونانية والفارسية وغيرها على عهد الخلفاء العباسيين

١ - كرومويل

اول درام الفقه فيكتور هوغو هو درام كرومويل وتقدم ذكر مقدمة هذه الرواية في تعريف الطريقة الرومانية. أما كرومويل فهو من أشهر رجال الانكليز في القرن السابع عشر للميلاد اشتغل بالسياسة حتى صار رئيساً للحزب الجمهوري وأحدث (الثورة) الاغتيال الذي قتل فيه شارل الاول ملك الانكليز سنة ١٦٤٩ كما قتل لويس السادس عشر ملك فرنسا سنة ١٧٩٣ م واستبد اوليفيه كرومويل

بالجمهورية وصار صاحب الامر والنهي كانه ملك ولم يقنع بما استحوذ عليه من السلطة والنفوذ بل وسوس له الخناس الذي يسوس في صدر الناس بان يتملك على الانكليز . فاخذ في تهيئة الاسباب واعداد المعدات كما فعل نابليون الثالث حينما تنوج بتاج الامبراطورية . واستعدت بلدية لوندرا لتقديم الصولجان له وتنهياً البرلمان لالباسه التاج وكاء الاحتفال برسم التنويج يتم في كنيسة وسع منستر حسب الاصول والتقاليد القديمة ولم يبق بينه وبين الفوز باماميه الا قاب قوسين أو ادنى . فحينئذ اكتشف على عصابة سرية من اصحاب الجمهورية وأنعمون على قتله ولا يؤخرهم عن الفتك به الا انتظار رسم التنويج ليفعلوا سيفهم المسلول في قلب ملك لا في قلب رئيس للجمهورية . فخاف ورجع عما تشتمه نفسه واظهر مياله للمحافظة على قوانين الجمهورية وكراهته في لبس التاج والتماكب واخفى شوقه لعروس المملكة وحرره الزائد على نيل وصالحها لان الظلم من شيم النفوس ...

وكان اولفيه كرومويل ذا اخلاق غريبة وطنية عجيبة وطبيعة متقلبة اجتمع في خصاله الضدان من شهامة ودناءة وجبن وشجاعة وشدة ورحمة وابن جانب وقساوة وحرية افكار ونفاق ومجاملة ولذا اتخذ فيكتور هوغو بطلاً لروايته وصور اخلاقه تصويراً بديعاً وجعل مجرى الرواية في ويت هال سنة ١٦٥٧ وافتتح الرواية بقوله : « غداً الخامس والعشرون من حزيران سنة الف وستماية وسبع وخمسين » وختمها بقول كرومويل « اذاً متى اصير ملكاً ؟ » اشارة الى شدة حرصه على الملك . فالادباء الناهجون منهج الطريقة الرومانية يعتبرون هذا المطالع وهذه الخاتمة من ابداع المطالع والخواتم وابلغها مع بساطتها وخلوها عن التشايب والاستعارات المدرسية . ويقولون بان انشاء الرواية من اعلى طبقات الانشاء ولكن تمثيلها على المراسح متعسر اطولها وكثرة اشخاصها فهي اشبه بكتاب تاريخي مدقق منها بالرواية التمثيلية . وعدا هذا فهو انما لم يحسن توصيف اخلاق الرجال ولم يستطع اعطاء كل رجل صفته الحقيقية بدون افراط ولا تفريط بل اتبع في الوصف تصوراته وخيالاته . والمطلوب في الرواية التمثيلية تصوير الرجل بذاته وافكاره بلا غلو ولا اطراء ولا مبالغة ولكل رجل تاريخي احوال مخصوصة تكثف به ينبغي مراعاتها

في تأليف الرواية فنبوليون مثلاً له تعبيرات وافكار واطوار لو خرج عنها مؤلف الرواية لافسد تأليفه وكذا الملك صلاح الدين الايوبي مثلاً . ولكننا لم نزل نجعل حقيقة تاريخنا فضلاً عن معرفة اخلاق رجل واطواره . أما الافرنج فلكثرة معلوماتهم وسعة اطلاعهم لو حضر أحدهم لتمثيل رواية وكان من اصحاب الذوق في الكلام لا يكتفي بالتبصر في محاسن الالفاظ وتنسيق الكلام ورونق الاشعار وعلو الانشاء بل ينظر مع ذلك الى الالم وهو حسن الموضوع وتصوير اخلاق الرجال وأستنتاج النتائج الادبية الفلسفية الاخلاقية . بخلاف من يتلو منا مقامات الحريري والهمذاني أو يستمع بلحين الاشعار وأنشائها على العود والقانون فان طربه في الغالب انما هو لحلاوة التعبير ويلهو بها عما يحتويه من الفكرة والمعاني فحلاوة التعبير هي كالدياج والحلي للإفكار والماداني . وربما يلهو المرء بحلي الغاية وزينتها عن جمالها الحقيقي كما نشاهد ذلك على المراسح في الشخصات المتوسطات في الحسن اذا برزن بزيينة الاميرات وبانواب الملكات

٢ - ابرناني

وسماها المؤلف ايضاً الشرف القشتالي وقشتالة ايلالة في وسط اسبانيا . وصور فيها الالة الاسبانية وهي في ذرى مجدها وأوج عزها وذلك ان العرب بمد فتحهم اسبانيا وتأسيسهم الدولة الاموية فيها فرقبة امراء القوط الى جبال استوريا في الشمال الغربي من اسبانيا وأسسوا فيها دولاً صغيرة . فلم يعأ بهم المسلمون وحسبهم من المنشردين فلم يستأصلوا جرتوئتهم ولا اجلوم الى ما وراء جبال البيرينه كما كانت تقتضيه الحكمة السياسية من تحكيم الثغور في هذه الجبال واتخاذها سداً مانعاً لهجوم الاعداء على المملكة الاسلامية . ثم ظهرت ملوك الطوائف من المرابطين والموحدين وبني زيان وبني هود وآخرهم بنو الاحمر ومؤسس هذه الدولة عبد الله محمد بن احمر سنة ٦٣٣ هـ وعدة ملوكها عشرون واستمر ملكهم ٢٦٥ سنة وكان آخرهم ابا عبد الله الصغير وكانت عاصمتهم غرناطة^(١) فلما ضعف امر المسلمين وكثر النزاع والجدال بين امرائهم قويت شوكة

(١) الخلافة الاموية في الاندلس من سنة ١٣٩ - ٤٢٣ = ٢٨٤ سنة هجرية

المسيحيين في شمال اسبانيا . وكان يوان الثاني حاكماً على اراغون وهي ايلة في شمال اسبانيا على ساحل البحر المتوسط وعلى صقلية فزوج ابنة فرديناند ابنة حاكم قشتالة وهي ايزابلا . وتلقب فرديناند بالكاثوليكي وخلف ابيه في الملك واستولى على قشتالة بالوصاية عن زوجته وحارب المسلمين وأخذ منهم غرناطة . أخرجهم من اسبانيا وأخذ من الفرنسيين مملكة نابولي في إيطاليا وفي أيامه اكتشفت اميركا وحمل ما فيها من الذهب الى أوروبا . وبعد وفاة ايزابلا انتقل ملك قشتالة بالارث الى بنتها حنة المجنونة وكانت متزوجة بفيليب المجليل ارشيدوق اوستريا وخلفت منه ولداً اسمه الدون كارلو فانتقل اليه بالارث ملك جده فرديناند وجدته ايزابلا واجتمعت له المملكة الاسبانية بما فيها من الثروة الاميركية . ثم ورث من جده الثاني امبراطورية المانيا وصار انتخابه لها وتلقب بشارلكن وحاز على جميع الممالك المذكورة في الجدول الآتي :

جدول في بيان ما ورثه شارلكن اي شارل الخامس من الممالك

(١) آل اسبانيا (٢) أوستريا

فرديناند الكاثوليكي تزوج ايزابلا دي قشتالة ملك
مكسيليان تزوج ماري دي بودغونيا ملكة
امبراطور ألمانيا الوارثة من شارل
اراغون ونابولي اسبانيا والمستعمرات وارشيدوق اوستريا الجسور (هولانده)
الاسبانية في اميركا وارث وفرنانش
(كوتيه)

ملوك الطوائف	من سنة	٤٢٣ — ٤٧٩ = ٥٦	سنة هجرية
دولة المرابطين (يوسف بن تاشفين)	➤	٤٧٩ — ٥٤٠ = ٦١	➤
دولة الموحدين	➤	٥٤١ — ٦٦٨ = ١٢٧	➤
ملوك الطوائف :	➤	٦٦٨ — ٨٩٨ = ٢٣٠	➤
فرديناند وايزابلا		١٤٧٩ ميلادية	
ال اوستريا (شارلكن)	➤	١٥١٩	➤
ال بوربون	➤	١٧٠٠	➤

فيليب الجليل

نزوجت

حنه المجنونة .

الدون قارلو وهو شارل دوتريش الذي لقب فيما بعد شاركين
 أما اوستريا فكانت احدى الامارات التي تتألف منها امبراطورية المانيا
 أما امبراطورية المانيا فكانت مجموع امارات ومدائن حرة وكانت الامبراطورية
 فيها بالانتخاب لا بالوراثة وذلك انه عند موت الامبراطور يجتمع امراء الامارات
 السبعة وهم اكبر الامراء الذين تتألف منهم الامبراطورية ولذا لقبوهم (المنتخبين
 السبعة) وانتخبوا امبراطوراً من اوستريا في الغالب اي من العائلة التي تملك على
 امارة اوستريا . فلما مات مكسميان امبرطور المانيا سنة ١٥١٩ م انتخب حفيده
 شارلكين . وكان فرانسوا الاول ملك فرانسوا صاحب عظمة وثروة ونفوذ وعسكر
 فكان يسعى مع المنتخبين في انتخاب نفسه ورشاهم بكثير من الاموال والهدايا
 فاخذوا ماله وانتخبوا عدوه شارلكين فاشتدت الرقابة بينهما . وكاد شارلكين يتفرد
 بالملك في اوربا ولم يبق له رقيب فيها سوى فرانسوا الاول ملك فرانسوا فخاربه
 واسره واحضره الى مدريد عاصمة ملكه وعقد معه معاهدة موافقة لسياسته ثم اطلق
 سراحه فلما وصل ارض فرانسوا نقض العهد واستعد السلطان سليمان القانوني وكان
 اقوى ملوك الارض قاطبة . وجرت محاربة بحرية في مياه تونس بين اسطول
 شارلكين واسطول خير الدين باشا المشهور باسم بارباروس اي ذي اللحية الشقراء
 وانتصر فيها العثمانيون وانتصرت العساكر الانكشارية أيضاً على العساكر الالمانية في
 محاربة اخرى برية وقعت على حدود النامسا والمانيا . وكان شارلكين شديد الحرص
 على التفرد بالملك والسودد فلما لم يستطع ادخال جميع اوربا في حكمه وتحت نفوذه
 استولى عليه اليأس وانقطعت آماله فتنازل عن ملك اسبانيا لابنه فيليب الثاني وتفرغ
 عن امبراطورية المانيا لاختيه فرديناند واعتكف هو في دير من الاديرة الى ان مات
 حزناً وكداً

أما موضوع رواية ابرناني فهو ان الدون قارلو قبل ان يصير امبراطوراً على
 المانيا وينسبى شالكين كان بهوى في ماريده غانية اسمها الدونة سوله وكان يهواها

أيضاً عمه الدوق روى غوميز . أما هي فكانت تعشق شاباً من الاشقياء وقطاع الطريق اسمه ايرناني وكان ثلاثتهم يترددون عليها بدون أن يشعر احدهم بالآخر . فصادف الدون كارلو عند معشوقته هذا الشاب مرتين في المرة الاولى بمكنه من الخروج ولم يمرض له وفي المرة الثانية ضيق عليه بالحرس وحصره بالعسكر وابعاح لهم دمه وجعل جائزة لمن يأتي برأسه ففر ايرناني بكل مشقة من بيت حبيته واختفى عن الابصار . فلما انقطع أمل هذه الغاية من الملك ومن حينها الشاب اثقت نفسها بين ايدي عاشقها الثالث وكبير شيخاً هرماً ففرح بها وحملها الى قصره واراد الدخول بها . ثم اهتدى ايرناني الى حبيته وجاء اليها وبينما هو يغازلها ويعانقها واذا دخل صاحب البيت وهو الدوق روى غوميز ووجدتهما متعانقين ثم جاءهم الملك بغتة واراد القبض على ايرناني فامتنع الدوق من تسليمه وعداً اخذه من بيته اهانته لشرفه و اشار الى صور ابائه واجداده المعلقة على جدران الغرفة وهم حماة الملوفين ومغنيو المستجيرين . فترك الملك ايرناني واخذ الغائبة عوضاً عنه وخرج بها من القصر فلما نجا ايرناني من الهلاك طلب من الدوق ان يطلق سراحه ليتعقب أثر محبوبته ويخلصها من ايدي الملك وعاهده على ان يعود اليه متى طلبه واعطاه بوقاً لينفخ فيه متى اراد ان يستدعيه فاذا سمع صوت البوق حضر اليه بالحال

ثم ينتقل مجلس التشخيص الى اكس لاشابل في المانيا وكانت عاصمة الامبراطور شارلمان وفيها قبره ثم جرت العادة بتتويج الامبراطور في هذه المدينة . فاذا ارادوا تولية امبراطور اجتمع المنتخبون وهم الملوك أو الامراء السبعة الذين لهم حق الانتخاب واختاروا أحدهم والبسوه التاج واطاعوه . وكان الدون كارلو مرشحاً لهذا الامر . فانحمرت عصبية على قتله وفيهم عمه الدوق روى غوميز واختلفوا في المحل الذي فيه قبر شارلمان واخذوا معهم ايرناني ليطلعنه بخنجره . فعلم بهم الدون كارلوس ودخل المقبرة ونزل لقبر شارلمان وفاه بكلام هو من ملوك الكلام ومن ابلغ ما نظم فيكتور هوغو . ثم اطلقت المدافع ودقت الاجراس اعلاناً بانتخابه امبراطوراً على المانيا وخليفة لشارلمان والقي القبض على المتآمرين واراد قتل ايرناني لانه ليس من ذوي الرتب والشرف ولكنه بين نسبه يظهر بان اسمه الحقيقي هو جان دراغون

دوق سيغورب وقاردونيا فغنى عنه وزوجه بمعشوقته الدونة سوله فلما اخذها وأراد الخلوة بها في قصره سَمِعَ صوت البوق فتذكر عهده وفضل الموت على عدم الوفاء بالوعد فذرب السم وشربت حبيته . ثم قتل الدوق روى غوميز نفسه أيضا من شدة حبه لتلك الغانية . فهذه الرواية ليس لها حقيقة تاريخية وانما هي من مختلعات الشاعر وتخيلاته ولكنها في اعلى طبقة من البلاغة والانسجام وحسن الذرق

٣ - روى بلاس

صور المؤلف في هذه الرواية التاريخية انحطاط دولة اسبانيا في اواخر القرن السابع عشر لليلاد وذلك انه بعد فيليب الثاني ابن شارلوكين المتقدم ذكره جلس على كرسي المملكة الاسبانية ابنه فيليب الرابع ثم شارل الثاني آخر ملوك هذه السلالة النامساوية . ولما جالس سنة ١٦٦٥ م كان عمره اربع سنوات وهو لا يستطيع المشي ولا الكلام فكانت الوصاية لاهله ثم لاخيه وامراته ووزراء دولته . وبعد ان كبر ايضا لم يلتفت لمصالح الملك وأهل ادارة مملكته وبيته وزوجته وكان يقضي ايامه في الصيد والتجول في البراري والغابات وامراته في هم وكدر من وحدتها وتكلفتها بمراسم التشریفات وابتاع بالدمر المريعة في قصر الملك ولم يكن لشارل الثاني ولد فوصى بالملك لوفيد لويس الرابع عشر ملك فرانسوا وانتقلت دولة اسبانيا من آل اوستريا الى آل بوربون سنة ١٧٠٠ وزال نفوذها واعتبارها من بين الدول الأوروبية ولم تنزل في انحطاط لم تنخلص منه الا ان ترى بعين الحسد تهافت الدل الأوروبية على استعمار افريقيا ومدم فيها السكك الحديدية وجرم المنافع التجارية وهي شاخصة بصرها كالمقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه . واضاعت بالامس آخر مستعمراتها في اميركا وهي جزيرة كوبه ثم جزائر فيلبين ولم تكسب اليوم من تقسيم البلاد المراكشية الا جزءا موهوماً على ساحل المحيط الغربي يسمى (ريودور) اي نهر الذهب . ويشاهد رسمه على الخريطة المرسومة بعد عقد المعاهدة بينها وبين فرنسا ولا يرى اثر الحقيقة مسماه وجل ما يعلم منه ان ليس هناك لا نهر ولا ذهب

فصور الشاعر في هذه الرواية المخطاط المملكة الاسبانية وشرح اسباب انقراض دولتها فاذا رفع الستار عن المسرح ظهرت غرفة من غرف قصر الملك في مادريد وفيها وزير المملكة وقد غضبت عليه الملكة وطردته من القصر لانه لم يقبل بان يتزوج بتاً من حاشيتها بعد ان راودها وحظي بها وقبل ان يخرج من القصر ليلتزم بيته صمم على الانتقام من الملكة فاستدعى ابن عم له يسمى قيصر وكان افقره معاشراً للهمل وقطاع الطريق مع ماله من الحسب والنسب وأراد ان يتخذ آلة لدسائسه . فاستكشف بمن ذلك ورد ما عرصه عليه من المال والجاه فامر بنفيه للهند فنفى اليها والبس خادمه روى بلاس لباس الاشرف ودعاه ابن عمه قيصر وقدمه لرجال الدولة واعيانها بعد ان استكتبه أوراقاً يعترف فيها باصله وخدمته له وكان روى بلاس يعشق الملكة فتقرب منها وحظي لديها بالقبول وصار من اعظم وزرائها واكبر مستشاريها . وبينما هو جاز على رضا الملكة وعلى اعظم مسند في المملكة ظهر له سيده وأخذ يهدد الملكة ويوحيها على هيامها في خادمه وعلى تفريطها بنفسها وطلب منها امناً ورقة ليتخذها حجة عليها ولا يبيع بسرهما ما دامت مسلمة له زمام الملك فكادت الملكة تقبل بذلك خوف الفضيحة والعار ولكن روى بلاس اشتد غضبه حرصاً على شرف الملكة محبوبته وقبيل سيده ثم شرب سمّاً ومات والملكة تندب عليه وتبكي . فهذا محصل الرواية

وقال فيكتور هوغو في مقدمتها :

ان المتفرجين في المراسح على ثلاثة اصناف : احدهما النساء . والثاني الخواص . والثالث العوام . فالذي يتطلبه العوام من التأليف الدراماتيقي بدون استثناء تقريباً هو العمل ^(١) والذي يتطلبه النساء قبل كل شيء هو الشهوة والذي يتطلبه الخواص على الخصوص هو الاخلاق . فاذا امعنا النظر في هذه الاصناف

(١) اي الفعل الذي يجري على المسرح من ضرب وقتل وقيام وقعود وحركة وسكون

الثلاثة من المتفرجين نجد العوام هائمين بالعمل لدرجة بنسأهلون فيها عند اللزوم بالاخلاق وبالشهوات . ونجد النساء مكثرات بالعمل ايضاً ولكنهن مستغربات بتفاصيل الشهوة حتى يقل اشتغالهن جداً بتصوير الاخلاق . ونجد الخواص يتلذذون بمشاهدة الاخلاق اي بمشاهدة الرجال احياء على المراسح ويتلقون الشهوة كلها عارض طبعي في التأليف الدراء اتقي ويحصل لهم انزعاج من العمل . والسبب في ذلك ان العوام انما يتطلبون في حضورهم المراسح الهيجان . والنساء يتطلبن الهيجان . والخواص يتطلبون التمسك . والجميع ينبغي لذة ولكن اولئك يرغبون لذة النظر . وهؤلاء يردن لذة القلب . والآخرين يرغبون لذة العقل . ومن ثم حصل في رواياتنا — اي روايات فيكتور هوغو — ثلاثة انواع مختلفة من التأليف . احدهما عامي سافل . والآخران رفيعان عاليان . ولكن في ثلاثهم الكفاية لسد الاحتياج . فالعوام لهم الميلودرام أي ما كان فيه انتقام وقتل وأزلال ونضيجة والنساء هن التراجيديا التي تشرح الشهوة . والخواص لهم الكوميديا التي تصور الاخلاق الانسانية

وربما يتداخل بعض هذه الثلاثة في الآخر لان العوام ربما كان فيهم من له شوق طبيعي لتطلب الجمال كما يكون له ذوق في الاشياء النافذة . ومن له هيام في التصورات والتخيلات ابديعة قد يكون له اقبال على الاشياء العادية المزدرى بها . وكل واحد من خواص الادباء البالغين في الادب رتبة الكمال ينبغي ان يتصف بصفة المرأة من جهة الاحساس القلبي كما ان المرأة تتصف احبائاً بصفة خواص الادباء المفكرين فاذا أمعنا النظر في اصناف المتفرجين الثلاثة نراهم جميعاً محقين . فان النساء لهن حق في ابتغائهن خلجان انقب . والخواص لهم الحق في ابتغائهم التعلم والاستفادة . والعوام لا لوم عليهم في طلبهم التسلية . فمن هذا الشرع ينتج قانون الدرام

فالقصد من الدرام والغاية منه هو تصوير الاخلاق . أي اختلاق رجال وتمثيلهم على المراسح بمقتضى الشروط المؤلفة من صناعة الادب ومن الطبيعة . واللقاء الشهوات في هؤلاء الرجال لبيان أخلاقهم وأيضاحها . ثم أستخراج الحياة

الانسانية من تصادم هذه الاخلاق والشهوات بالنوايا النبيلة الكبرى الالهية . أي استخراج وقائع كبيرة ، صغيرة ، مؤلمة ، مضحكة ، هائلة . تستعمل على لذة للقلب يسميها الناس المنفعة وعلى عبوة للعقل يسميها الناس محاسن الاخلاق . فيتضح من ذلك ان الدرام يخرج من التراجيديا بصور الشهوات ومن الكوميديا بتصوير الاخلاق والصفات . فالدرام هو الشكل الثالث الكبير من اشكال الصناعة الادبية ويشتمل على الاثنين الاولين ويجمعهما ويفضلها . فلو لم يوجد شكسبير بين قورنيل ومولير ولم يعط يده لليسرى لقورنيل ويده البني لمولير لبقى كل منهما بعيداً عن الآخر . ولكن بوجوده التقت الكوميديا بالتراجيديا التقاء القطب المثبت بالقطب المنفي من الكهربائية . فحصل من التقائهما شرارة هي الدرام . اه .

ثم انتقل فيكتور هوغو لبيان حقيقة الدرام بالنظر لفعلية التاريخ فقال :
اذا اقتربت مملكة من السقوط تمكن الناظر فيها من ملاحظة علام كثيرة . ففي بادئ الامر يميل الاشراف للانحلال ، وبانحلالها تنقسم على الوجه الاتي :
تضطرب المملكة وتنطفي السلالة المالكة . وتزول احكام القانون . وتتجاذب الدسائس الوحدة السياسية فتمزقها شذر مذر . وتحمد كبار العائلات وتتعرض . ويشمر الجميع في الداخل والخارج بضعف ممت . وتسقط عظام الامور التي تقوم عليها الدولة ولا تبقى واقفة الا على صفائر الامور وحدها ويصبح منظرها العمومي محزناً . ولا يبقى فيها لا ضابطة ولا عسكو ولا مالية . وكل واحد يحسب الساعة آتية لا ريب فيها . فمن ذلك يحدث في الازهان كدراً من البارح وخوف من الغد واحتراس من كل انسان ويأس من كل شيء ونفرة زائدة .
وحيث ان مرض الدولة في رأسها فاعيان المملكة الذين هم اقرب الى الرأس يكونون اول المصابين بهذا المرض . فاذا يحدث حينئذ لا يبقى في قصر الملك من الاعيان المقربين الا الذين هم اقل حياءً واسبواً اخلاقاً وجميعهم على وشك الاقتراض ويضيق الزمان وتنبغي العجلة ويلزم لهم الاستهلاك في جمع المال والارتقاء لاهل المراتب والاستفادة من الحال الحاضرة . ولا يفكر الواحد منهم الا بنفسه . ويجمع بلاشفقة على الوطن ثروة قليلة خاصة به في قرنة صغيرة من الفقر العام

الكبير. ويصير نديماً ويصير وزيراً وينتال ك في الوصول للسعادة ونفوذ الكلمة وينتق ذهنه باستحضار الأجوبة الظريفة وينافق ويداهن ويلطف فينجح . وكلهم يستحذون على مقامات الدولة ومناصبها وعلى وساماتها ورتبها والقابها واماوالها . ويأخذون الجميع . ويتعابون الجميع . وينهبون الجميع . ولا يعيش الواحد منهم الا بالحرص والطمع . ويخفون قلاقل الملكة وفسادها وسوء ادارتها الداخلية تحت مهابة ظاهرية . وتشر نفوسهم للعجب وتتأول اعناقهم للظمة والكبرياء . ولما كان الشرط الاول في حياة هؤلاء المقربين هو نسيان جميع الخواص الطبيعية فيصبح الواحد منهم كانه وحش مفترس . ومتى جاء يوم سقوطه وابعاده عن مناصب الدولة صار مدهشاً عجيباً وانقلب ابليساً

فاذا يشتت الدولة من حالتها ابعدت عن مراكزها النصف الثاني من اعيان المملكة الذين هم اكرم نسباً واحسن جرثومة . فيلازمون بيوتهم ويدخلون قصورهم ويذهبون لبلادهم ومعاقلمهم ومصائفهم وينفرون من مصالح الدولة ولا يستطيعون تدبير أمر ولا حيلة يدهم لان المملكة قد حان موتها ولم يبق في الايام الا ذماء . (الذماء بقية الروح في المذبوح) كيف العمل وماذا يجدي التحسر وما ينفع البكاء ؟ فينبغي التغافل وانحاض العين وتسلية النفس بالملاهي واللعب والاكل والشرب والتلذذ والتنعيم . من يعلم ؟ هل بقي للواحد منهم سنة أو سنتان امامه ؟ فاذا تفوه سادة المملكة وكبرائها بذلك أو شعروا به واحسوا بشيء منه فقط اقبلوا على التهور في مصالحهم والافراط في امورهم . فزادوا في مشترياتهم وفي - لي نسايتهم وفي ضيافتهم واتقان مطالبهم ومواندهم واسرقوا وبذروا واهدوا وفرقوا وابعوا واشتروا ورهنوا واستدانوا وسلموا انفسهم لآكلي الربا واتلفوا مداخيلهم واضرموا النار في الجوانب الاربعة من املاكهم . فيصبح الواحد منهم يوماً وقد حلت به المصيبة ونزل عليه البلاء . وخرب هو قبل خراب المملكة رغماً من سرعة سيرها نحو الانقراض . فينفد ماله ويحترق كله ولا يبقى من تلك الحياة الزاهرة والطهي والبهجة ولا الدخان لانه طار أيضاً . ولم يبق الا الرماد ولا اكثر من ذلك . فتركه جميع الناس وينسونه الا اصحاب الديوان . فتصير حالة هذا الشريف

المسكين الى ما يمكن أن تصير اليه . فيصبح بائساً سفيلاً من الرعاع ويدور مع الحمل ويختلط بجمهور العامة ويغيب بين افواجهم المزدحمة . . ولم يكن خالط العوام قبل ذلك ولا رآهم الا على ابوابه واعتابه فيفطس الان بينهم ويمتحي بهم . ولم يبق معه نزار وانما بقيت له (الشمس) أي نظام الحياة وهي ثروة من لامة ثروة له وبعد أن اقام في اعلى طبقات الجمعية فهو الان يقيم في اسفل طبقاتها . ويدرب نفسه على الذل بعد العز . ويهرأ بالذين مشتبه بهم الحرص والطمع حتى ناققوا وتقربوا من اولي الامر وصاروا من الاغنياء النافذي الكامة . وأما هو فيصير فيلسوفاً لا ييالي بالاقبال والأدبار ويشعبه من حوله من رعاا الناس واواباشهم بحاشية القصر ورجال المعة ويتخذ منهم جماعة واخذانسا ويتأس عليهم ويراعي النخوة والشهامة في جانبهم . وعدا هذا فهو طيب الغنصر جيبور القلب مفطور على النجابة والفظنة جمع في اخلاقه وخصاله بين ذوق الاديب الشاعر ودناءة الصملاوك الفقير وشهامة الرئيس الامير . لا ييالي بشيء ويسخر من كل شيء ويشوق رفاقه واصحابه للسرقه كما كان يبعث برجاله واتباعه للنهب والغارة ولكنه لا يتنزل لان يسرق أو يستعطي بنفسه . تراه رث الظاهر سليم الباطن ذا كرم وسخاء . كلالامير وتهور كتهور الياس الفقير . لم يبق له من الاصاله الا شرف النسب الذي يحافظ عليه والاسم الذي يخفيه والسيف الذي يشهره

فهانان الصورتان اللتان رسمناهما ووصفنا بهما قسم المقربين وقسم المبعدين من اشراف المملكة يوجدان في وقت من الاوقات في تاريخ جميع الممالك . ولكنهما في اواخر القرن السابع عشر الميلاد وجدتا في اسبانيا بصورة تستافت النظر ولذا شخصنا في هذه الرواية التمثيلية القسم الاول من كبراء اسبانيا في الدون سالوست المقرب في قصر الملك والمنعم عليه والقسم الثاني في الدون قيصر (سينار) الذي يرعى مع الحمل مع ان كلا منهما ابن عم الآخر . وعدا هذين الشخصين اللذين يتثل فيهما كبراء المملكة الاسبانية المقربين والمبعدين يوجد تحتهم شيء كبير مظلم مجهول يتوج في جنح الظلام . فهذا الشيء هو الشعب الذي له المستقبل وليس له الحاضر . فالشعب يتيم فقير ولكنه ذو قوة واستعداد وقابلية يتطلب العلمي وهو في

الدرك الاسفل . وعلى ظهره علامة الخدمة والاستعباد وفي قلبه شوق للمعالي .
الشعب خادم للسادة الكبراء وعاشق وهو في الذل والشقاء للصورة الوحيدة التي
تتألاً له وسط هذه الجمعية المنقرضة كأنها نور الهي ويتمثل له فيها الحاكمة والشفقة
والنمو . فالشعب هو روى بلاس خادم الدون سالوست

فاذا تصورنا هؤلاء الاشخاص الثلاثة على الوجه المشروح بقي علينا احيائهم
وتمشيتهم امام المتفرجين وان ندير عليهم اعمالاً ثلاثة تلخص فيها جميع احوال
المملكة الاسبانية في القرن اسابع عشر . ويوجد فوق هؤلاء الرجال الثلاثة مخلوقة
صافية نيرة . فهذه المخلوقة هي امرأة ومنكة وهي في شقاء من حيث انها امرأة
لانها لم يكن لها زوج . وهي في شقاء من حيث انها ملكة اذ ليس لها ملك .
ومتعطفة على من تحتها بعاطفة مائة وقلب امرأة وناظرة للدرك الاسفل . بينما ان
روى بلاس الذي تشخص فيه الامة ناظر للمقام الاعلى . فهذه الرووس الاربعة
المجتمعة على هذا الوجه (بقطع النظار عن الاشخاص الثانوية) هي في نظر
المؤرخ الفيلسوف النكات الاصلية لمملكة اسبانيا منذ ١٤٠ سنة . ويمكن لنا ان
نضيف رأساً خامساً لهذه الرووس الاربعة وهو رأس الملك شارل الثاني . ولكن
شارل الثاني ملك اسبانيا ا | يكن شخصاً بل هو في نظر التاريخ ظلٌ ولذا بقي في
الدرام ظلاً لم يبين شخصه

فما ذكرناه للآن انما هو بيان حقيقة هذه الرواية وهي روى بلاس بالنظر
لفلسفة التاريخ . وبمكننا النظر اليها باعتبار آخر . لان الاشياء في هذا العالم تختلف
اشكالها باختلاف النظر اليها . ومثل ذلك كمثل الجبل الابيض . ان نظرت اليه
من المحل المعروف باسم (فروادونابشر) تراه بهيئة غير الهيئة التي تراه فيها لو
نظرت اليه من المحل المعروف باسم (سالانش) . ومع ذلك فهو دائماً الجبل
الابيض . وكذا الحال في هذا الدرام فانه يختلف شكله باختلاف النظر اليه . فلو
نظرنا اليه باعتبار الانسانية المحضة لرأينا الدون سالوست يتشخص فيه حب الذات
والاهتمام واشتغال الفكر والتفرض . والدون سيزار بعكسه يتشخص فيه عدم
المبالاة وعدم الاهتمام وراحة البال وعدم التفرض . وروى بلاس يتشخص فيه

الذكاء والعشق وافتحام الاخطار والممالك . والمملكة يتشخص فيها الفضيلة الماثلة للانهك بسبب الملل وضيق الخلق

وأما باعتبار صناعة الادب فيجتمع في هذا التأليف الانواع الثلاثة من الروايات التمثيلية . الدون سالوست هو الدرام . واللون سينار هو الكوميديا وروثي بلاس هو التراجيديا . فالدرام يعقد العمل والكوميديا تشوشه والتراجيديا تحسمه

فالموضوع الفلسفي لهذه الرواية هو نطلع . الامة وتطلبها للمقامات العالية . والموضوع الانساني هو رجل يحب امرأة . والموضوع الدراماتيقي أي الفاجع أو الهائل هو محبة خادم للملكة . فجميع هذه الامور لا يرون الا الموضوع الاخير اي الدراماتيقي الذي هو الخادم . والحق معهم . وهكذا يقال في كل تأليف من هذا القبيل . فترتوف يضحك منه واحد ويرهب منه آخر . فان ترتوف حجة تسعى في البيت . فهو المرآئي بعينه . فيكون تارة انساناً وتارة معي . وأوتلو هو في نظر البعض اسود يحب بيضاء . وفي نظر البعض الآخر وضع بزواج بشريفة وفي نظر الاخرين غيور او هو الغيرة على النساء

ثم ان هذه الرواية لها تعلق من جهة المعنى التاريخي برواية ايرناني . فلب حالة الكبراء في الروايتين تظهر بجانب حالة المملكة . ففي ايرناني لم تكن اسبانيا اكتسبت شكل الحكومة المطلقة ولذا كانت الكبراء ينازعون الملك في الامر ويقرون عليه تارة بالنفوذ وتارة بالسيوف ويخرجون عليه مرة ويطيعونه أخرى — كما كان الحال في المملكة العثمانية على عهد الجزائر صاحب عكا وباشوات مصر وبكوات تونس ودايات الجزائر وبقية الامراء الذين يقال لهم دره بك — ففي سنة ١٥١٩م كان الكبراء في اسبانيا يتعدون عن قصر الملك ويقعون في الجبال وفي المعازل والحصون . ويكونون تارة من قطاع الطريق مثل ايرناني وتارة من الامراء المستقلين في ادارتهم الداخلية مثل روى غومز كما فصلت احوالهم في تلك الرواية : ثم بعد هتفي سنة من ذلك التاريخ انقلبت القضية فصار الكبير الذي كان اشبه بالمستقل في ادارته رجلاً من رجال المعية ينافق لينفق والبعض الآخر من الكبراء سقطوا في الفقر والمذلة فهم يخفون اسماءهم لا للتملص من سطوة الملك بل للتملص من اصحاب

الديوان والخاصهم فواحد منهم لا يصير قاطع طريق بل يصير نورياً أي من الرعايا . فيرى من ذلك ان الحكومة المطلقة مرت على هؤلاء الكبراء اعواماً كثيرة فاحنت رأس هذا وقطعت رأس ذاك

ثم ان بين رواية ايراني ورواية روى بلاس مضى على اسبانيا قرنان من الدهر حكم خلفاء شارلكين في غضونهما الدنيا . وكان من الحكمة الالهية عدم زيادة ساعة ولا نقص ساعة في هذين القرنين . لان شارلكين ولد سنة ١٥٠٠ م وشارل الثاني مات سنة ١٧٠٠ م ورث لويس الرابع عشر شارلكين كما ورث نابليون سنة ١٨٠٠ م لويس الرابع عشر . فلوئذ عطف انظاره نحو التاريخ ونحو ظهور هذه الدول المعظمة فيه وملاً رواية ايراني بضياء الفجر ورواية روى بلاس بظلام الشفق . ففي ايراني اشرقت شمس آل اوستريا . وفي روى بلاس غربت شمس باريس في ٢٥ نوفمبر سنة ١٨٣٨ م . انتهى

فيتضح من هذه المقدمة مع ما فيها من ركاكة الترجمة لعدم تنقيحها بسبب ضيق الوقت حقيقة الروايات التمثيلية وكيفية تشخيصها للاخلاق الانسانية وتصويرها الوقائع التاريخية كما يظهر الفرق بين انواع الروايات من درام وكوميديا وتراجيديا فان تأليف الروايات له شروط وقواعد وأساليب كما ان له غاية ومقصداً . ويتضح من ذلك ايضاً وجه اعتراض الافرنج على المقامات الحزبية التي هي أشبه بالكوميديا . ولعل ادباءنا يتهجون هذا المنهج الجديد في التأليف الادبية ولا يقفون عند حد القصيد والجز أو الرسائل والمقامات والخطب فان القرن العشرين مفتقر الى تصوير الاخلاق الشرقية بأسلوب الروايات التمثيلية ومحتاج الى درس تاريخ الامم الشرقية درساً مدققاً ومعرفة خصال كل رجل من مشاهير رجاله كصلاح الدين وموسى بن نصير وامثالهما . ونظم الكونت دوليسل وهو خليفة فيكتور هوغو والمنتخب عوضاً له في الاكاديمية قصيدة غراء سماها موسى الكبير وصور فيها محاكمة موسى بن نصير ووقوفه بين يدي الخليفة الاموي ومدافعته عما اتهم به كما ان عبد الحق حامد بك ألف باللسان العثماني رواية طارق بن زياد وهي ثرية تمثيلية وفيها اشعار بدعية

٤ — الملك يتعلى

صور فيها المؤلف فرانسوا الاول ملك فرنسا ومجنونة ترييوله . لان الملك كان لهم مجانين ومهرجون ومضحكون واقزام قصار القامة ومساخر . ولم يزل يشاهد اثرهم وبقيتهم في بلاد الشرق . ولما قد قارب كان للولاية في بلادنا مساخر ومضحكون يسمونهم المهرج والسوطري ولم يزل منهم من هو حي ليومنا . واما في اوربا فاعتاضوا عن جميع ذلك بالمراسح وتفننوا في تنويعها . فجعل المؤلف فرانسوا الملك المتكبر الجبار وترييوله المجنون المضحك الجزنة على طرفي تقيض في مرسح اللعب . ولكن ترييوله مع ما هو عليه من دناءة النفس والتلصص كان ابا حنوناً شفوفاً على اولاده . فكانت له خصلة حسنة من جهة الابوة وقد قام بحماها احسن قيام واطور احساسه الابوي على بنته حينما اراد الملك ان يقع بها للتسلية .

٥ — لوكريس بوجيا

بوجيا عائلة اسبانية الاصل انتخب منها باباوات اشهرهم اسكندر السادس وصار لهذه العائلة نفوذ عظيم في رومية وايطالي وجميع العالم الكاثوليكي . وكان للبابا اسكندر السادس اولاد منهم قصر بوجيا المشهور بارتكاب الافعال الدينية والجنايات الفظيعة وكان اسقفاً وله اخت تسمى لوكريس بوجيا فموضوع الراية ان خمسة شبان من اولاد الكبراء اجتمعوا في البندقية (فينيسيا) في مرقص تنكر فيه الراقصون والراقصات بالبراقع ثم جلس هؤلاء الاصحاب ينسامرون وافضى بهم الحديث الى ذكر الفضائح وتعداد الجنايات التي ارتكبتها عائلة بوجيا . وكان احدهم القبطان جينارو نام على حديثهم ثم استفاق على قبلة قبلته اياها في جبهته امرأة مسترة بالبرقع لم يعرفها . فهذه المرأة هي امه لوكريس بوجيا وسمعت قذف اولئك الشبان في حقها وحق عائلتها . ولم يكنف الشباب بالكلام بل مروا بباب دار زوجها الدوق دوفيرار ومعهم جينارو فتناول على تاج الدوقية المرسوم على بابه وطعن في لوكريس بوجيا وفي اخيها وايبها . فامر الدوق

بالتقاء القبض عليه وجبسا وطلبت زوجته قتله ثم لما علمت بانها ولدها طلبت العفو عنه . فاغتشش الدوق دوفيرار من ذلك وظنه واحداً من عشاقها واجبرها على سقيه السم . وبعد خروج زوجها من البيت سقت ولدها المسموم ترياقاً نافعاً ضد السم فشفي وفتح له الباب وهربته وهو لا يدري بانها امه ثم ارادت الانتقام من رفقة الخمسة الذين طعنوا فيها في مرقص البندقية . فاحتلت في دعوتهم عند الاميرة تفروني وفي سقيهم السم القاتل وبينما هم منهكون في اللذات على المائدة ومتنعمون بنعيم الضيافة سمع النواح ودخل الرهبان باثواب المآثم وخلفهم خمسة نوابيت لحمل الموتى . وظهرت لوكريس بورجيا على المسرح شامته في اعدائها الخمسة الذين قذفوا في عرضها والسم يدور في بدنهم ولا يملهم الا برهة قليلة . ولكن جينارو لحق برفاقه وأراد الموت معهم وشرب من كأسهم ورفض من امه الترياق الذي ناولته اياه لتقذه من السم وطعنها بخنجره وهو لا يدري انها امه فقالت له حينئذ نوكة يس بورجيا (انا امك) وختمت الرواية بموتهم جميعاً . ومراد المؤلف من هذه الرواية بيان ان اشقى النفوس اظلمها واطفاها قد تتجمل باحساس كالاحساس الناشئ من محبة الوالدة لولدها

٦ - توركاذه

وهي من الروايات التمثيلية التاريخية . اما توماس توركاذه فهو رئيس محاكم التفتيش الديني في اسبانيا . وقد اشتهرت هذه المحاكم بالظلم والعدوان والتعذيب بانواع آلات العذاب كالضرب الشديد وشد المعذبين بالمشدات حتى تتخلل عظامهم وتنف شعورهم والباسهم الطاسات المحمية ووضعهم في صناديق مسورة حتى اذا تحرك الموضوع فيها دخل المسبار في بدنه ومزق جلده ولحمه وغير ذلك من انواع العذاب والاحراق بالنار أو التفريق في الانهار والبحار . وعرفت هذه المحاكم باسم (انكيزيسون) وكان اول تأسيسها في قشتالة واراغون من اسبانيا لحاكمية المسلمين واليهود والمشكلوك في ايمانهم من النصارى الذين يتساهلون بفرائض الدين الكاثوليكي وتوفي توركاذه سنة ١٤٩٨ م أي عقب اخراج المسلمين من اسبانيا .

٧ — بورغراف

وهي من الروايات التمثيلية ايضاً . وهذا الاسم يطلق على ذوي الاراء السخيفة لا سيما في المسائل السياسية . والبورغراف هم امراء البلاد ومحافظو القلاع كما كان الجزار في عكا وابونبوت في يافه ولم يزل له لي يافه سبيل ينسب اليه . ويروى عن هؤلاء الولاة والامراء الروايات الغريبة والاقاصيص العجيبة . فصور فيكتور هوغو في رواية بورغراف اخلاق امراء الالماني وغرائب احوالهم

٨ — ماري تيدف وهي ملكة الانكليز (١٥١٦ — ١٥٥٣ م) بنت هانري الثامن . وكانت مخالفة للاصلاحات والنظامات الجديدة شأن المستبدين من الملوك . فالف الشاعر فيها هذه الرواية

١٠ — انجلو . اسم ملك ظالم من ملوك بادو في ايطاليا اتخذه الشاعر موضوعاً لروايته

١٠ — ماريون دولورم . غانية من غواني باريس كانت على عهد لويس الثالث عشر والكردينال ريشيليو الرزير الشهير فصورها الشاعر في روايته

١١ — اسمرالده . اسم نورية في بلويسر ولعلها من الاشخاص الموهومة واتخذها المؤلف عروساً لهذه الرواية التمثيلية وقصة « نوتردام دوباري »

١٢ — امي روبسار

فهذا ما الفه فيكتور هوغو من الروايات التمثيلية وسماه درام . واكثر هذه الروايات منظوم ومنها ما هو نثر

نثر فيكتور هوغو

المشهور من كلام فيكتور هوغو على فنون كثيرة منها فن القصص المعبر عنها بالرومان ومنها الادب والفلسفة والانتقاد الادبي والتاريخ والرحلة والمراسلات والاقوال والاعمال والمشهودات ونحو ذلك

١ — فاشهر القصص التي ألفها هي قصة البؤساء وذكرنا فيما سبق ان العلامة الفاضل شمس الدين سامي بك الفراشري — وفراشقرية في ولاية يانيه من بلاد الارناؤود — ترجم جزءاً كبيراً من هذه القصة للسان العالي وسماه السفلاء ونشره بمطبعة مهران في الاسنانة . ولسامي بك تأليف كبيرة مفيدة مثل قاموس الاعلام في ستة مجلدات ضخمة وقواميس صغيرة وكبيرة من التركية للفرنساوية ومن الفرنسية للتركية وغير ذلك من المؤلفات النافعة العصرية

أما الباعث على تأليف هذا الكتاب فهو ما ذكره المؤلف في مقدمته حيث قال :

طالما وجد عذاب اجتماعي بفعل القوانين والعادات ، طالما لم تحلّ الثلاث المسائل العصرية وهي الخط من كرامة الانسان بكثرة البؤساء وسقوط المرأة في العهر بسبب الجوع وققر دم الاولاد باشتداد برد الليل ، وطالما وجد في الناس حالة وققر فلكتب التي هي من جنس هذا الكتاب لا تخلو من الفائدة

وموضوع الكتاب ان رجلاً فقيراً يدعى جان فلجان كسر قفل اخباز وسرق رغيفاً ليطعمه لاولاد اخته الجياع فحكمت عليه المحكمة وفقاً للقوانين بالاشغال الشاقة والتي في الحبس الذي هو جهنم الهيئة الاجتماعية ولاقي من الآلام والمحن ما لا يطاق على زعم النصارى المسيح بن مريم عليهما السلام تخلصاً للبشر من الخطايا . فكان جان فلجان فداء للاخلاق الانسانية . وبعد تحمله الآلام والمشاق الكثيرة صعد الى النور . وكان الاسقف ميريل وهو من اشخاص هذه القصة وعظ هذا الجاني بالصبر على المصيبة ووضع في نفسه المظلمة شعاعاً طفيفاً فاستنارت ثم توقدت وتوهجت فصور الشاعر ما اختلج في صدر هذا المحكوم عليه من الهيجان وعبر عن ذلك

بحدوث زوبعة عاصفة في قرعة الرأس . ومن اشخاص هذه القصة وابطالها البنت فوزيت والبوليس جافر وبين حالة العملة والشغال الذين يلجئهم الفقر والجوع الى ارتكاب القبائح والجرائم وحالة البنات الشغالات اللواتي صيرتهن المثر به من العواهر الفاجرات وصور الفقر المدقع والجوع القتال احسن تصوير . وفي هذه القصة أيضاً اخبار كافروش وهو من رعاى باريس وما جرى له مع البوليس جافر وقد اشهر خبرهما حتى ضرب بهما المثل . وما ذكره المؤلف بطريق العرض في هذه القصة محاربة واترلو التي غنمها نابوليون الاول ووصفها بكلام ثمري اشبه بالشعر الحماسي . وذكر أيضاً الفتنة التي حدثت في باريس سنة ١٨٣٢ أما البوليس جافر فجعله مثلاً للطاعة والقيام بآداء الوظيفة

٢ — نوتردام دو باري . وهي كنيسة باريس الجامعة سمى بها قصته لجران حوادثها في هذه الكنيسة وفي اطرافها . وهي بيان ضخمة غليظة وفي وسط باريس بقرب نظارة الضبطية ونظارة العدلية أو الخزانة . وموضوع القصة عشق ضابط فرنساوي يدعى فوبوس لرقاصة نورية تدعى اسميرالده ورقاية راهب الكنيسة لها وخطف احد الاشقياء المدعو كازيمودو للبنت . فال موضوع بسيط عادي ومهارة المؤلف تظهر في تصوير الحالة التي كانت عليها باريس في القرون الوسطى ووصف ما فيها من الازقة المظلمة والطرق الغير المستقيمة ووصف أهلها ما بين بائع وتاجر وصانع وتلميذ وجندي وشريف ووضع وهم يمرون امام الكنيسة أفواجاً أفواجاً ويروحون ويفقدون في فنائنها ويستظلون بظلها وصور جميع ذلك بصورة خيالية وهمية لطيفة تعجب القارئين وهي مؤلفة على اسلوب اللغة الرومانية

٣ — هان الاسلاندي . هي قصة مصورة للجمال الذي قد يكون في الشنيع كما صور محبة الوالدة لولدها وتهافتها على اتقاذه من مغالب الموت في رواية لوكريس بورجيا زغما عن قساوة اخلاقها وسوء افعالها . وكما صور هذا المؤلف ايضا في رواية الملك يتسلى اشفاق الوالد على بنته وغيرته على ناموسها وسعيه في تخليصها من ايدي الملك مع ان هذا الوالد لا يفار على ناموس نفسه ولا على شرفها ولا يبالي في ارتكاب انواع الدناءة والمجون . ومن بديع الحكم التي في قصة هان الاسلاندي

ما ذكره في مقدمتها عن (نضج القريحة) قال :

في كل مصنف فكري مثل الدرام والشعر والرومان ثلاثة اشياء : ما شعر به المؤلف ، وما نظر فيه المؤلف ، وما تنبأ به المؤلف ، فليكون الرومان (القصة) حسناً ينبغي ان يكون فيه كثير مما شعر به وكثير مما نظر فيه . وأما الشيء المتنبأ به فيلزم ان يظهر من تمام الشيء الذي شعر به والشيء الذي نظر فيه بنير احتياج للحل وانما بالطبع والبداهة

فاذا انقضى الفصل الاول من العمر وانحنت الجبهة على الكتاب والكتابة وشعر المرء باحتياجه لعمل شيء آخر خلافاً للحكايات الغريبة التي يخوف بها النساء العجائز والاولاد الصغار واحتك بالحياء احتكاً كما اخلق ديباج شبابه ، يعلم حينئذ ان كل ايجاد وكل اخلاق وكل تنبؤ في هذه الصناعة ينبغي ان يكون اساسه مبنيّاً على الدرس والنظر والتفكير ولعلم والقياس والمقابلة والتعقل الصحيح وكال الدقة في تصوير الاشياء بحسب الطبيعة وتقديرها تقدراً خالياً من الغرض والهوى . فالالهام الحاصل من مراعاة هذه الشروط الجديدة لا يضيع شيئاً من هذه الصناعة الادبيه وانما يكسب صاحبها نفساً عالياً وجناحاً قوياً ويعرف الشاعر بالطريق التي يسلكها حينئذ . وجميع التخيلات الهوائية التي تخيلها في سني حياته الاولى تجمد على هيئة مخصوصة كما يجمد الجليد ويتشكل منها فكرة ورأي . فهذا الدور الثاني من حياة المصنف المتقن هو الزمن الذي يولف فيه أحسن مصنفاته ويكون فيه شاباً نضيج الرأي . فهذه هي الصحيفة الثمينة والنقطة العليا التي هي الاوج والساعة التي يشتد فيها الحر والضياء من وسط النهار واللحظة التي يقل فيها الظل الى اقل ما يمكن ويكثر فيها النور الى أكثر ما يمكن اهـ

٤ — بوغ جارغال . حرر فبكتور هو كوك هذه القصة وهو في السادسة عشرة من عمره وطبعها ثم صححها واعاد طبعها وموضوعها انه في سنة ١٧٩١ اي في اثناء الانقلاب الكبير الفرنسي كان في جزيرة سن دومينيك من جزر الانتيل الاميركانية عبد اسود يسمى بييرو يخدم عند اوربي من اغنياء المستعمرين فاحب ابنته مارية حباً شديداً وكانت بدعة الحسن والجمال ، ولها خطيب فاخفى العبد حبها ولم يبح لها

بشيء ولكنها كانت تلاحظ حنوه واشفاقه عليها وخطيئها كان يرى ذلك ويعجب من جراته على محبة خطيئته . ثم حصلت ثورة العبيد السود ان على المستعمرين من البيضان وفي اثناء معامع الثورة خطف احد السودانيين مارية وذهب بها الى مكان بعيد فخرج خطيئها يفتش عنها فقبض عليه الثائرون وارادوا قتله واحضره بين يدي بييرو وكان انتخب بوج جارغال نبي رئيساً للثائرين فحماه من شرهم وجمع بينه وبين خطيئته مارية . ثم ان بوج جارغال ضحى نفسه لسلامة معشوقته وخطيئها وتخلصها من ايدي العبيد الثائرين وسلم نفسه لاعدائهم البيضان ليقتلوه وأداه حبه الى فداء روحه في سبيل محبوبته . ومن هذه القصة يظهر اقتدار المؤلف في تصوير الوقائع مع حداثة سنه

٥ — آخر ايام المحكوم عليه بالقتل . الف فيكتور هوغو هذه القصة سنة ١٨٢٩
وصور فيها المحكوم عليه بالاعدام وهو في سجنه ينتظر حلول الساعة التي ينقضي فيها اجله وتزهد روحه . وعبر بأسلوب بديع عن بكائه واضطرابه وانزعاجه وبين جميع ذلك بأساليب شعرية لا وصفية فقط . فكان المؤلف كأنه يشاهد جميع حركات هذا المسكين وارتجافه واختلاج عضلاته اختلاجاً طبيعياً لكسر سلاسل الحديد التي برجله والجلل المربوط بيديه وكأنه يفهم ما يقوم في فنهه ويخطر في باله من الافكار المرعبة والتصورات الهائلة المدهشة فحرر جميع ذلك بكيفية مؤثرة محزنة يكاد القارىء يحزن من تلاوتها . ففيكتور هوغو اجهد نفسه كثيراً في ابطال الجزاء بقتل النفس وسعى في الغاء هذا الجزاء بقلمه ولسانه وخطب في هذا الموضوع خطباً كثيرة في مجلس النواب وفي النوادي والمجتمعات ولكنه لم يوفق لرفع جزاء القتل من القانون الفرنسي

٦ — المشتغلون بالبحر . ومقدمتها تبحث عن ارخيل بحر المانش الفاصل بين فرنسا وانكلترا . فصور المؤلف في هذه القصة ما يكابده الملاحون والنوتية من الهذاب الاليم وما يقاسونه من الاهوال والشدائد عند تخالف الهواء وحصول الانواء وتلاطم الامواج وانكسار السفن واشراف من فيها على الهلاك ووقوعه له فريسة لحيوانات البحر ومنها الحيتان الكبيرة ومنها ما يلتف على الانسان كما يلتف

الحبل ويشد وثاقه سداً محكماً حتى لا يستطيع حراكاً ثم يضع بدنه كالعلقة ويمتص دمه ويسمى هذا الحيوان البحري (Pieuve) هبراو (رييله) ومن البلاء الذي يقع فيه الفلاحون وصيادو السمك أيضاً رمال المستنقعات التي على سواحل البحار يحسبها الواحد منهم ارضاً يابسة فاذا وطئها غاصت رجلاه في الرمال وكلما تحرك حركة للتخلص منها زاد غطساً فيها الى رأسه ويستمر في هذا العذاب الاليم وهو يشاهد الموت بعينه ولا سبيل للنجاة حتى يعرق ويموت خنقاً . فوصف الشاعر مجاهدة المشتغلين بالبحر من افراد الانسان والمعترك الذي يحصل بينهم وبين الطبيعة اثم وصف مما يذكره بقصة السندباد البحري وما لاقاه في اسفاره

٧ — الانسان الضاحك . الف فيكتور هوكو هذه القصة سنة ١٨٦٩ وجعل حوادثها تجري في انكلترا على عهد ملكتها حنه (آن) المعاصرة للويس الرابع عشر في اوائل القرن الثامن عشر للميلاد . وموضوع القصة ان احد مرقصي الدب كان يتجول في جنوب انكلترا ومعه دب سماه هومو ومركبة يسكن فيها ويجر اثقاله عليها كما يفعل مرقصو الدب ليومنا هذا في اوربا ولم يزل منهم في جنوب فرانسوا واكثرهم عثمانيون من اهل البوسنة والهرسك يحملون الباسابورط ويحتمون بقناصل الدولة العلية . فكان هذا الرجل يرقص دبه امام الجمهور ويضحكهم ويسليهم ويمتاش من احساناتهم وعطاياهم وكان صافي النية حسن الطوية مع كونه هزأة ومسخرة للناس . فالتقى ذات يوم بصبي مشوه الخلقه يحسبه الناظر اليه ضاحكاً على الدوام وكان هذا الصبي اختطفه سارقو الاولاد فشوهوا خنقته وتركوه وحده في البراري فالتقى بينت حسنة الوجه ولكنها عيباء كانت خرجت مع امها قتل الثلج عليهم وماتت امها من شدة البرد فاصطحب الصبي بالبت وأحبها . ثم ان ذاك الرجل التقى بهما وتبناهما وحملهما معه في مركبته وطاق بهما البلاد وهو يسترزق من حرفته ويطعما . ولم يزل على ذلك الى ان كبرا وبلغا أشدهما . فذهب بهما الرجل يوماً الى لوندرا فمعرف أناس الى الشاب واخبروه بانه ابن البارون فلانشاري من اعيان انكلترا ولورداتها فاستلم هذا الانسان الضاحك ثروة ابيه وملكه وصار عضواً في مجلس اللوردات بعد تلك السفالة التي

قضاها في سني صبوته وصار لا يتكلم في المجلس الا بالحمامة عرج البؤساء والتقرير على الاعيان والكبراء الذين لا ينظرون الى الضعفاء والمساكين وكان ذا لهجة شديدة ولكنها غير منتظمة فكان اذا اتم خطبته استولى الضحك على جميع الاعضاء ولم يقرروا اجراء شيء من طلباته

واورد المصنف في هذه القصة كثيراً من الحكم والفلسفة . من ذلك ما قلته عن الطبيعة والحياة : بعد كل شيء فالانسان لا يعيش كثيراً والحياة قصيرة تمضي بسرعة . كلاً ! بل هي طويلة !! لان الطبيعة اظهرت — ولو بشيء قليل — عنايتها بالانسان لكيلا تفر همناً في غضون ذلك ولكي يكون على بصيرة غشاوة فنرضى بالبقاء ولا نفتنم الفرص المناسبة لشنق انفسنا بما اعدته لنا من الحبال والمسامير ولذا أنبتت لنا القمح وانضجت العنب وانطقت البابل وهي مرائية بانشادها اغاني السرور اخفاؤها الكد . وارتنا في بعض الايام شعاعاً من الفجر فهذا ما يسمونه بالسعادة . وما هي الا طرف رقيق من الخير يحيط بكفن عريض من الشر . فهذا حظنا من الدنيا نسج الشيطان منه السداة واللجمة ولم يطرز الرحمن فيه الا اطرافه وحواشيه . اه

قال المعري مخاطباً الدنيا :

بموج بحرك والاهواء غالبة لراكيه فهل للسفر ارساء
اذا تعطفت يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء
.....
فلا تغرنك شم من جبالهم وعزة في زمان الملك تعساء
نالوا قليلاً من اللذات وارتحلوا برغمهم فاذا النعاه بأساء

٨ — ثلاث وتسعون . سماه بذلك لانه يبحث فيه عن وقائع سنة ١٨٩٣ وقص فيه قصصاً حكيمية فلسفية موضحة لحقيقة الانقلاب الكبير الفرنسي والسبب الحامل لاصحابه على الثورة ومقاومة بعض الاهالي للتأثرين لعدم فهمهم المراد من الانقلاب ومن الاصلاحات الجديدة ولاعتقادهم ان الملك قوة الهية مفوضة للملك يفعل بمقتضاها ما يشاء برعيته فهم عبيدة يتصرف بهم تصرف المالك في ملكه فيبين

المؤلف ذلك بأساليب بدیعة يفهمها العوام والفلاحون وعرفهم بان القوة الحاكمة ينبغي ان تكون في الامة وأن سيد القوم يجب ان يكون خادمهم

وأما ما ألفه في التاريخ فهو :

١ — نابوليون الصغير : كتبه المصنف بعد لبس نابوليون الثالث تاج الامبراطورية وكان هو يستشيط من ذلك غضاً قهّور في الطعن فيه والخط عليه ولا طبع الكتاب جاء احد المتبصّين بنسخة منه للامبراطور وكان في قصر سن كلو وهو في ضواحي باريس على نهر السين فنظر فيه لمويلاً ثم التفت لمن حوله من الوزراء وامراء العسكرية وقال لهم باستهزاء وسخرية انظروا يا سادة هذا نابوليون الصغير ألفه فيكتور هوغو الكبير . فلما بلغ الخبر مسامع فيكتور هوغو هجّاه بقصيدة بليغة لم أر لها مثيلاً في شعر أهل العصر الا قصيدة كمال بك كبير الشعراء عند الاتراك

٢ — تاريخ جرم : وهو تاريخ حادثة نابوليون الثالث سنة ١٨٥١ ألفه المصنف في خمسة أشهر ولم ينشر الا بعد ٢٥ سنة حينما سقط نابوليون الثالث ويقسم هذا التاريخ الى اربعة ايام : يوم المكيدة والكمين . يوم الحرب والنزال . يوم الذبح وقتل الاطفال . يوم الفوز بالنصر . ثم اتبعه بفصل خامس عنوانه يوم السقوط . فوضح المؤرخ في هذا التاريخ صورة الجرم ثم بين القصاص واستنتج من ذلك وظيفة فرنساويين وهي العدل والحق

« الرين » وهو عنوان كتاب صنفه فيكتور هوغو في الرحلة والسياحة وحرر فيه ما وجدته في نفسه من التأثير والاحساس الباطني والانفعال بمشاهدة ضفاف الرين وهو نهر في اوربا ينبع من جبال الالب ويمر من بحيرة قونستانس وبمدينة بال ومايانس وقوبلنتس وقولونيا واوترخت وليدن ويصب في بحر الشمال ومما قاله في هذا التأليف عن الضمير والكائنات :

... لا شيء في يعارض كون الشجرة عالمة بثمرتها . ولكن من المحقق ان الانسان لا علم له بالمقدرة عليه . حياة الانسان وعقله هما على خاطر وهوى لا ادري

أيها ماكنة مظلمة يسميها البعض عناية الهية والبعض الآخر يسميها صدقة . فهذه الماكنة أو الآلة نخلط وتمزج وتحلل كل شيء في الوجود... وهي تخفي دواليها في الظلمات وتعرض نتائج محصولاتها في رابعة النهار . يحسب المرء نفسه يفعل شيئاً آخر . فالتاريخ مملوء بذلك :

ولكن بين هذا الاختباط يوجد قوانين . فالاختباط ما هو الا في الظاهر والانتظام في الباطن . فبعد انقضاء مدة طويلة ترجع الحوادث المدهشة التي فتحت عيون اجدادنا كما ترجع النجوم ذوات الاذناب من اعماق التاريخ المظلمة . فلفخاخ هي دائماً تلك الفخاخ بعينها والسهقوط دائماً عين ذاك السقوط . والغدر دائماً عين ذاك الغدر . والمهلك هي دائماً تلك المهالك بعينها . فالاسماء تتغير والاشياء ثابتة

أما ما حرره فيكتور هوغو في المقدمة فهو :

١ — أدب وفلسفة ممزوج ببعضها ببعض : وقد ذكرنا فيما سبق من هذا الكتاب تعريف الشعر وبأنه لا يكفي وجود الاسلوب الحسن والشكل الخاريف في البيت بل ينبغي ان يحتوي على فكر أو صورة أو احساس وشبه بيت الشعر بيت النحل الذي يتخذ من الشمع والشعر فيه كالعسل وقال ايضاً في تعريف الانشاء :

الانشاء هو الذي يخلد ذكر الشاعر ويبقى تأليفه . لأن حلاوة التعبير تزين الفكر كالميناء على السن

وقال في تعريف الواجب :

ما دام الممكن لم يفعل فالواجب لم يود . فهذا فكر من افكاره ومنها ايضاً في الزواج :

الزواج هو تطعيم فيه امساك جيد أوردى .

وقال في التغير والتقلب :

إذا قلنا عن رجل « رأيه السياسي لم يتغير منذ اربعين سنة » نكون مدحناه

مدحاً مذموماً . لان تولنا هذا يؤدي الى انه لم يحصل له تجربة في المسائل اليومية ولا حصل لفكره انعكاس ولا اشعاع على الحوادث . فهذا من قبيل مدحنا الماء بكونه راكداً والشجرة بكونها ميتة . وتفضيلنا ما في الصدف من سمك البحر على النسر الطائر . فبالعكس كل شيء متغير في الرأي . وفي الاشياء السياسية لا شيء مطلق على اطلاقه الا الاخلاق الباطنية لتلك الاشياء . فهذه الاخلاق هي من خصائص الوجدان وليست من خصائص الرأي ومتعلقاته . فرأي الرجل يمكن حينئذ ان يتغير تغيراً لا يمس بشرفه بشرط ان لا يتنير وجدانه . فالحركة سواء كانت تقدّمية أو تأخرية هي في حد ذاتها حيوية ، انسانية ، اجتماعية . اهـ

وهكذا يقال في صاحب الجريدة كما يقال في رجل السياسة . وقد رأينا في ما تقدم ان رقباء فيكتور هوكو عابوا عليه تقبله في احزاب السياسة وتغير رأيه من الملكية الى الامبرطورية الى الجمهورية

٢ — ولیم شکسبیر : وما ورد في هذا التأليف من الحكم ما ذكره عن التقدم والترقي قال :

فطائفة التقدم تدعى انقلابات . فاذا تمت الانقلابات اعترف الانسان بما يأتي وهو : ان النوع الانساني تألم وترضض ولكنه مشى
فالتخريب هو الشغل والنعيم هو العمل (أي البناء كما في بناء الدار فان فيها تعميراً مثل رفع الجدران الجايذة وتخريب مثل هدم الجدران القديمة وحفر الاسس)
فالتقدم يهدم باليد اليسرى . اما باليد اليمنى فهو يعمر . فاليد اليسرى تسمى القوة واليد اليمنى تسمى العقل . اهـ

ففيما ذكر من مؤلفات فيكتور هوكو كفاية لمعرفة ماهيتها ولا حاجة لذكر بقيتها

الخاتمة

لا ريب في ان فيكتور هوغو من اكابر الشعراء الذين أنبغوا في العالم الانساني كله في قديم الزمان وحديثه . وهو عند الفرنسيين شيخ الطريقة الرومانية والشعر الغرامي المعروف باسم « ايريك » . كما انه من نخول القصاصين وهوائى الروايات التمثيلية المشهورة باسم « درام » . غير ان الطريقة الرومانية التي كان لها المقام الاول في صناعة الادب سقطت بظهور الطريقة الحقيقية التي امامها اميل زولا . وروايات فيكتور هوغو التمثيلية لم تبلغ درجة الاعجاز لا بالنظر الى المؤلفات السابقة عليها ولا الى المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع . لعدم كشف فيكتور هوغو اسرار القلب الانساني واظهار ما فيه من الاحساس الحقيقي . ومع ذلك فهو لم يزل امام الشعر الغرامي ومجدد اساليب النظم والنثر ولذا لقبوه بابي الشعر المعصري واقفى الشعراء اثره وسلكوا مسلكه . وكان اباعث على عبقريته في العالم المتمدن كله من اوربي واميريكي وما يلحق بهما ثلاثة امور : احدها سياسي وثانيها ديني وثالثها علمي :

نبغ فيكتور هوغو في عصر الانقلاب والتجدد وطال عمره وكثر عمله . وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسية والتبدلات الاجتماعية واستوقفوا نحوه انظار العالم المتمدن بأسره . فكان هذا الشاعر لسان حال الامة وتوجانها في كل انقلاب حدث فيها وتبدل طرأ عليها وغير حكومتها من ملكية مطلقة الى جمهورية مفرطة ، الى ابراطورية ديمقراطية ، الى ملكية مقيدة بقليل أو بكثير من القيود ، الى جمهورية ثانية ، الى امبراطورية ثانية ، ثم الى جمهورية ثالثة . فهذه التقلبات هيجت الافكار العمومية وكثرت الاحزاب السياسية ودعت الى استماع قول الشاعر الحكيم والتمثل بأشعاره في نوادي السمر الادبية والسياسية على اختلاف الاراء وتبدل المشارب . ومتى تحدث أهل العاصمة بامرسات الركبان بحديثهم الى الولايات واطراف المملكة ثم فشى في الممالك المجاورة وجسمه البعد في الخيلات فاصبح صده في الخارج اشد من صوته في الداخل . وبعد ان استبد نابوليون الثالث بالحكم مال لابهة الملك وعظمة السلطنة وتفاخر بالصيت والشهرة واشتد حرصه

على السمعة في البلاد الاجنبية . وانتشرت اللغة الفرنسية على عهده في اكثر الممالك المتقدمة وصارت اللسان الرسمي المتداول بين الدول في المناسبات الدبلوماسية وفي الاجتماعات السياسية والادبية وفي قصور الملوك والامراء وفي حفلاتهم وسهراتهم ومراقصهم وعلى موائد ضيافتهم وفي تحرير المراسلات والمعاهدات كما اصبحت اللسان الرسمي في نظارة الخارجية العثمانية وفي كثير من دوائر الدولة العلية ومعاملاتها ولم تزل الى يومنا هذا

فلما اقترن اسم فيكتور هوكر باسم نابوليون بسبب مدحه نابوليون الاول وهجوه نابوليون الثالث زاد شوق الناس للاطلاع على اشعاره وقصصه في داخل فرنسا وخارجها وراجت بفاعته في الادب فلم يدع باباً من ابواب الشعر الا طرقة ولا مسألة الا بحث فيها . ثم شاء . ته الظروف بالانتصار على نابوليون الثالث بعد حرب السبعين الالمانية وتشكل الجمهورية الثالثة فزاد ذلك في اهمية الشاعر وفي انتشار شعره وبالغ رجال الجمهورية في الاحتفاء به والاحتفال له كاحتفال الامبراطورية بشخص الامبراطور

أما السبب الثاني لشهرته فهو سهولة اشعاره ووضوحها وتصويرها المسائل العظيمة والافكار الدقيقة . فظهر بشعره فرحه وسروره بنعمة الحياة وابتهاجه بالخلقوات . ورأى في امنا الدنيا بقرة حلوباً تدور على ابنائها بلبن سائغ للشاربين وتكلم على افراح العائلة وزينة البيوت بالاولاد ولذة اجتماع الاهل على المائدة ومحبة الوالدين وحنوها . وحضاً على الاحسان للفقراء والمساكين والشفقة عليهم وبين اعتقاده بالله الغفور الرحيم ورجاءه بتقديم نوع الانسان في الحضارة وتحسن الحياة البشرية والمعيشة الانسانية بسبب انتشار الافكار الجديدة وتغلب الحق رويداً رويداً على القوة والنور على الظلمة حتى تتساوى الناس في الحقوق ويرتفع عنهم الضغط والاستبداد ويزول من بينهم الظلم والاستعباد وينشر العدل ويزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً فجميع ذلك مما يرغب الجمهور في تلاوة اشعاره وتعليمها للاولاد ونشرها في البيوت بين النساء والبنات . بخلاف اشعار المعري التي لا يذكر فيها الا بخل أم دفر على بنيتها بالحقوق ومبادرتهم لها بالعقوق .

ولا يرى بقرة فيكتور هوغو تجود الا بسهم قطيب أي بمزيج بحلاوة . ومع غنى المعري وثروته لم يلتذ بالمال والبنين ولا بشيء من زينة الحياة الدنيا وزهد في اكل اللحوم وشرب المكيفات وعي بصره عن مشاهدة المناظر الطبيعية والرياض النضرة وحيث كان لفكتور هوغو اعتقاد ثابت في الله ورجاء كبير في حسن المستقبل وارتقاء الانسان الى دار السعادة عرف وظيفة الشاعر وبين ما يترتب عليه وعلى كل عاقل مفكر في الامر من نشر الحقائق بين قومه واثبات لسانه وزعم ان الشاعر ينبغي ان يكون رسولا للامة ونورا يسمي بين يديها ليهديها للصراط المستقيم فكان في المعري يقول له :
واخولن الفطالة في إختيال . كأنهم لقوم انبياء

ولم يكن فيكتور هوغو يهودياً ولا نصرانياً وتبرأ من أصحاب هذين الدينين وقال بأنهم اتخذوا دينهم لعباً وهواً وأوصى بعدم دفعه على سنن واحد منهما وعدم حضور أحد من رهبان النصارى ولا من انصار اليهود في جنازاته . كما انه لم يكن يعرف حقيقة الدين الاسلامي ولا امن نظره في آيات القرآن لما قدمنا ذكره من الاسباب وهو عدم توسع دائرة المعارف الاسلامية في عصره . والذي ذكره في شعره من القرآن هو امثال قليلة نقلها عن غيره بدون ان يبحث فيها بفكره ومع ذلك ففيكتور هوغو موحد اعترف في كثير من اشعاره باعتقاده بالله وحسن رجائه باليوم الآخر واهتدى للتوحيد بنظره في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار كما اهتدى ابراهيم جد الانبياء عليه وعليهم السلام : « واذ قال ابراهيم لايه آزر آتخذ اصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السموات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدينى ربي لاكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا اكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السموات والارض خيفاً وما انا من المشركين . »

وهكذا قال فيكتور هوغو لقومه اني بريء مما تعبدون . فلم يكن مشركاً بالله

ولا كان منكراً جاحداً، نكار الشاعر فولتير وجحوده بل ربما كان حنيفاً . والحنيف هو الذي يؤمن بالله ولا يتخذ شكلاً مخصوصاً للعبادة وكان منهم اناس في جزيرة العرب قبل الاسلام مثل ورقة بن نوفل وغيره . فاذا امعنا النظر في كلام فيكتور هوكونراه من الذين يذكرون الله قياماً وقوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والارض . ونراه ايضا كثير البغض في الجبارة المستبدين ويدعو الناس الى عدم اتخاذ ارباب من دون الله وقد ورد في القرآن الكريم في سورة آل عمران وهي السورة الثالثة والآية ٦٠ .

« قل يا اهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون . يا اهل الكتاب لم تهاجون في ابراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والانجيل الا من بعده افلا تعقلون . ها انتم هؤلاء حاجتكم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وانتم لا تعلمون . ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين . إن أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولي المؤمنين . » انظر الى بلاغة هذا الكلام وتأمل قوله ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله تجد جميع الاديان من قديم وحديث ومن عربي أو اعجمي عالة عليه في هذه البلاغة التي وصلت اعلى الدرجات وهي المعبر عنها في صناعة الادب بالاعجاز . ولقد ورد ليفكتور هوكو كلام متشابه يدل على حيرته والحيرة مقام من مقامات العلم بالله ولكنه لم يفتر عن القول بأنه موجود موجود موجود . ولما مات بنته وأشدت حزنه سب الله عدواً بغير علم ثم رجع وأستغفر لذنبه وشبه نفسه بالصبي الذي غضب ورمى البحر بحصاة . فهو لم يضر البحر في شيء ولكن فعله دليل على سفاهته وحقه . فثل الله كثل البحر والله المثل الاعلى : قال الحكمم الفيلسوف ارنست رينان عن فيكتور هوكو وعن فولتر بأنهما سارا من قطبين متخالفين ولم يتلاقيا الا على محبة العدل والانسانية والباعث الثالث على شهرة فيكتور هوكو هو كثرة عمله وغزارة معارفه . عدا معرفته بدقائق اللغة الفرنسية وبعلم القوافي والعروض والموسيقى وما يلزم للشعر

وكان حكيماً فيلسوفاً يضع كل شيء في موضعه وكل معنى في قلبه ولم يغب عن علمه شيء من التاريخ والجغرافيا واسماء البلدان وله اطلاع على العلوم الرياضية وجميع المسائل الاجتماعية وكليات القوانين البشرية والسياسية . وله اقتدار عجيب في التخيلات والتصورات والاختلافات . واذا نظر في شيء تمكن من رؤيته بعين لم يتيسر لغيره من الشعراء الرؤية بها . فوقف على كنه الاشياء وحقيقتها وعلى جميع ما يمرض لها من الصور والاشكال والالوان وبقيّة الخواص الظاهرة والباطنة . واذا ذكر اسبانيا مثلاً لم يترك فيها مدينة الا وصفها بالوصف اللائق بها سواء كان وصفاً جغرافياً أو طبيعياً أو تاريخياً بالنظر لمن اشتهر فيها أو لما ينبت في ارضها أو لمراها الطبيعي ومنظرها الخارجي وذكر كذلك كثيراً من مدن فرنسا وإيطاليا وقال في جبل نارها فيزرف

نابولي مرساها معطر بالازهار يقف فيه فصل الربيع ولا يمر

وجبل فيزوف المثلث بالنار ينفثه بتاج متوقد .

كانه فارس من فرسان الحرب كثير الغيرة والحسد شهد عرساً .

خسدا اهله على افراحهم ورمى بقلنسوته الحمراء وهبط ازغارهم .

ولا يخفى ان ضباط العساكر الفرنسية يزنون قلنسواتهم بلریش الحمراء وهي على هيئة جبل النار في حالة اشتعاله وتصاعد الدخان واللييب من جوفه . ومن عادة الاسبانيين اذا طربوا بروية وجه حسن او سماع نغم أو حضور مناطقة الثيران والبقر رموا بقبعاتهم الى الارض ونحروا نخرة او تأوهوا . وقد شاهدت هذه العادة في شباب بعض المدن الشرقية والسورية ولما لم اخذوها عن الاسبانيين بواسطة اليهود الذين لم يزالوا في بلاد الشرق يتكلمون اللغة الاسبانية رغماً من كل ما اجراه الاسبانيون فيهم من النفي والاجلاء والتعذيب في محاكم الانكبيزيون . فهذه الايات على حد قول الشاعر العربي في حمص الاندلس وهي اشيلية :

غدا التهر عقدك والطود تا جك والشمس اعلاه ياقوته

وتقدم ذكر الايات فيما سبق

فهذا مثال لاساليب فيكتور هوغو وتشبيهاته وكانت له ولع بالامور العظيمة والمقامات العالية والمنظر الواسعة والمعاني الدقيقة فمرفج البحر الذي لا يرى ساحله وبعد الفضاء الذي لا تدرك نهايته وقلد اصوات الاشياء ووصف الجادات وصفاً يخال منه للقارئ انها حية تنطق . ولذا قالوا بأن فيكتور هوغو انطق الجاد ونفخ فيه بأساليبه الشعرية روح الحياة . وله ابتكارات بدیعة وتشابه غريبة وتعبيرات لطيفة . ونجد لما ورد في كلامه من التشبيه والتخيل والبدیع امثالا كثيرة في الشعر العربي والانديسي تكلم عليها الباقلاني في اعجاز القرآن والجرجاني في اسرار البلاغة المطبوع في جريدة المار من سلك مسالكنا من علماء اللغة والبلاغة . ولكن فيكتور هوغو يفوق بسعة الاطلاع والاحاطة بالمسائل . واكثر شعراء العرب انحصرت اقواهم في الدائرة الذين هم فيها فلم يخرجوا منها ولا تعدوا الاساليب التي رضعها شعراء الجاهلية . والذين خرجوا عن تلك الاساليب واتسعت مداركهم قليلون مثل المتنبي والمعري الذي تكلم على كثير من المسائل الاجتماعية والسياسية ونادى بالحرية والمساواة بين افراد البشر وبين ماهية الحق والعدل وشرح كثيراً من المسائل الفلسفية واظهر شعوره واحساسه بالوسط الذي القينا فيه فكان سجنًا لنا لا لاص منه الا بالموت . فهو متحير في هذه العقدة التي أضلت الادباء في حلها

ثم ان اهل النقد الادني من بلغاء الافرنج يقولون نعم ان فيكتور هوغو انطق الجاد وتوصل بأساليبه الشعرية الى وصف المناظر الطبيعية وتصوير العصور الخالية والهيئة الاجتماعية باحسن تصوير وابدع وصف . فهذا لا ينكر ولكنه لم يتوصل الى معرفة باطن القلب الانساني ولا لايجاد اوصاف تامة ولا حياة طبيعية للاشخاص الذين اختلفهم على مسرح التمثيل . ولذا لم يكن اوجد الادباء في تأليف روايات الدرام . فهو وان انطق الجاد لكنه اخرس البليغ . مثال ذلك ان ابدع ما في رواية ايرناني التمثيلية هو الفصل المنظوم على لسان الدون كارلو الذي انتخب امبراطوراً لالمانيا وتلقب بشارلكين . فهذا الفصل هو بيت القصيد من هذه الرواية كما ان فصل القبله أو المافذة هو بيت القصيد من رواية (سيرانودو برجبراق)

التي اشتهر بتأليفها شاعر العصر ادمون روستان وقد انتخب بالامس عضواً في
الأكاديمية الفرنسية وموضوع هذا الفصل ان المشرقة وقعت في النافذة (البالكون)
وعاشقها واقف تحت النافذة يغازلها ويطلب منها قبلة وهو يتلثم في كلامه. ولم يدر
كيف يكلمها بلسان الادب. قال الشاعر سيرانو دو برجرىاق مخاطبها عنه وافصح في
تعبيره عن حقيقة الألم والتعبيل حتى لانت بكلامه وانجذبت اليه. وهناك تظهر قوة
البيان وان من البيان لسجرا. فكلام شاراكين في رواية ايرناني هو من كلام
الملوك فينبغي ان يكون من ملوك الكلام. فلما كان زمن انتخاب الامبراطور
ونرشح الدون كارلو لهذا المسعد العظيم وحصلت المؤامرة على قتله بدسائس فرانسوا
الاول ملك فرنسا انتطاب ايضاً لهذا المسند موافق المؤتمرون على الاجتماع في
الغار الذي فيه قبر شارلمان بمدينة اكس لاشابال من المانيا. اكتشف الدون كارلو
اي شاراكين على مؤامرتهم وسبقهم الى ذلك الغار وكان الهيام بمحبوبته قد اخذ كل
ياخذ واستولى على جميع حواسه فكان يتلمب شرقاً وغرباً إليها وقد قربت ساعة
الوصال. ومعشوقة الملوك كما لا يخفى هي المملكة ولا يحبون احداً سواها ويضجون
كل عزيز عليهم في سبيلها اذ لا اعز منها عليهم لادين ولا ولد ولا زوجة ولا اب.
فكم قتل الوالد ابنته والابن اباه للتوصل للملك كما ان معشوقة الراهب العابد هي
الكنيسة وزوج الراهبة العابدة وحبيب قلبها هو السيد المسيح عليه السلام. وكذا
مقال في الهائمين بحب الله والمفتونين بجمال نبيه المصطفى عليه السلام. ونظموا في
ذلك القصائد والدواوين البديعة. ففيكتور هوغو شخص في رواية ايرناني جميع
ذلك وعند ما يرتفع الستار عن هذا الفصل من الرواية يرى الحاضرون الغار الذي
فيه قبر شارلمان وينزل اليه تحت الارض بدرج متصل الى بهو كبير عليه قبة وفيه
مخدع جعل فيه قبر شارلمان ويظهر على المرسع شاراكين بلباسه الملوكي متمنطقاً
بسيفه تلوح على وجهه علائم الاهتمام فيزور القبر ويتكلم وحده بما يدور في خلد
ويخطر في باله وينظر الى التاريخ نظرة عامة والى الذي ناله شارلمان بلبسه تاج
قيصرة الرومان فتوق نفسه وترتفع حواسه ويرغى ويزبد كالبحر العجاج المتلاطم
بالامواج. فالحاضرون تشخيص الرواية لا يرون فيها عيياً ولا نقصاناً وأما أهل

النقد الادبي وهم ارباب الذوق في الكلام الذين اعتادوا التفريق فيه بين الفث والسمين — كما اعتاد ارباب الذوق في الخور التفريق بين خمر واخرى لكثرة ذوقهم وطوافهم على معاصر الخمر وعلى الاقبية المحزونة فيها أيضاً بوظيفهم وصنعتهم التجارية — يقولون نعم أن شارلكين في هذه الرواية هو بيت القصيد وهو من ملوك الكلام ولا ننكر فصاحته وبلاغته وانما عيبه عندنا هو عدم وجود الروح فيه . فهذه النفس الناطقة التي ارانا اياها الشاعر على مسرح اللعب والتشخيص هي نفس المؤلف أي نفس فيكتور هوكو وليست نفس المشبه به وهو شارلكين فالحاسة التي اظهرها المؤلف في شعره ليست بطبيعية ولا هي حقيقية بل هي عندية أي من عند الشاعر ولم تبن على الحنجرة والبراهين الادبية التي اشترطها اصحاب الطريقة الحقيقية وسماها اميل زولا (دوليان) . فاصحاب هذه الطريقة الجديدة يلومون فيكتور هوكو على تعظيمه الامور وشبهون قريحته بمرآة مكبرة تكبر الشيء المعكوس فيها ونجسه تجسماً خارجاً عن الحقيقة وعن العرف والعادة . ومن عادة فيكتور هوكو ارجاؤه انعمان للقوة الواهمة والخيالية واذا نجد في مؤلفاته مثل كازيمودو ومثل الرجل الضاحك من الاشخاص الموهومة التي لا توجد الا في كتاب الف ليلة وليلة وما كان على نسقه

بما انتقد فيه على فيكتور هوكو من جهة الاخلاق تبدل رأيه السياسي وتقلبه فيه ذات اليمين الى ذات الشمال ومن حزب الملكية الى حزب الجمهورية . ورأينا فيما تقدم جوابه على هذا الاعتراض بقوله ان مدحنا الرجل بالثبات على رأي واحد في السياسة مدة طويلة ليس بمدح مستحسن وانما هو كمدحنا الماء الراكد وتفضيلنا اياه على الماء الجاري . والجواب الصحيح على هذا الاعتراض أن فيكتور هوكو مع ظهور معجزاته في المعاني ما هو الا بشر غير معصوم تميل نفسه الى شهواتها التي منها التقرب من الملوك واولي الامر . ولكننا نجده محافظاً على الاعتدال في امر الشهوات النفسية صبوراً متجلداً عند الحاجة وبينما نرى امثاله واقرائه من ادباء باريس لا يقنع أحدهم بعشر نسوة نجده اقتصر هو على اثنتين أم اولاده والممثلة البارعة جولييت . ومن غريب امر هذا الشاعر انه خالف القاعدة المعتمدة في عطاء الرجال . فكان

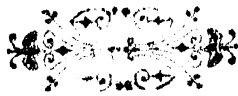
في شبابه من حزب الملكيين المحافظين على بقاء الحال على ما كانت عليه فانقلب من ذلك رويداً رويداً حتى صار في شيخوخته من حزب المفرطين في محبة الحرية المائلين للانقلاب والارتقاء شديد العدوة للاستبداد والمستبدين . وهذا خلاف المطرد في اخلاق الرجال فانهم كلما تقدموا في السن عدلوا عن حب التجدد والانقلاب والحرية ومالوا للبقاء على حالتهم الراهنة . ومن الاخلاق التي نهى عنها في شعره واتى بمثلها في عمله تربية الاطفال فانه حرر كتباً ونظم اشعاراً كثيرة في حقهم ولكنه لم يحسن ذلك بعمله وفعله . ومع غلمة بان عصا التأديب من الجنة لم يستعملها في تربية اولاده ولا اصفاة واطلق العنان لشهواتهم فاحدى بقتيبه عرضت نفسها للخطر فمات هي وزوجها غرقاً . والثانية تزوجت على غير رضاه وسافرت للهند فنكبت واصيبت بعقلها . وجفدته لم تطف معلقة زوجها ولا قدرت ان تصبر على حكمه ففارقه وحكم بينهما بالطلاق . وابنه افترط في اللذات فمات فجأة عند صاحبة له في بوردو ولم يزل الناس يشيرون بالبنان الى البيت الذي مات فيه . ومما يشابه ذلك ما انتقد فيه على امام الادب عند العثمانيين وهو ذاق كمال بك وكان كثيراً ما يلجج بالاصلاحات والحرية فلما عين متصرفاً لجزيرة مروندس انتقد عليه رقبائه بانه لم يجر فيها من الاصلاحات سوى رفع الكلاب من أزقتها وشوارعها . ومثل ذلك ما ينقل من ضيا باشا وهو من مشاهير الادباء العثمانيين وكان رئيس الكتاب في المابين الهمايوني على عهد ساكي اعجاز السلطان عبد العزيز ثم نال رتبة الوزارة وعين والياً لاحدى الولايات وله نظم كثير ودواوين شعر من ذلك نظم قصة المولد الشريف و (ترجيع بند) في التصوف ومحاسن الاخلاق وكان لاشعاره رواج في الزوايا والتكايا وفي المدارس والجوامع . واتفق ان احد ظلبة العلم الصلحاء في مدينة بروسة كان كثير الانشاد لها والترنم بها فهاهد نفسه اذا ذهب الى الاستانة ليزورن هذا الشاعر الفاضل لا لطلب مأمورية أو احسان منه وانما لمجرد التبرك بلثم يده والاسترشاد بنصائحه والافتias من فضائله . فلما جاء الاستانة زار الشاعر الوزير في بيته حتى اذا قارب غروب الشمس ودخل وقت الكراحة قرأ ما لا يحب رؤيته العلماء المتعففون عن لذات الدنيا ونعيمها فندم على

سميه وخرج وهو يقول: الشعراء يقولون ما لا يفعلون

اما الثروة التي تركها فيكتور هوغو فقد قدرت باكثر من ثلاثة ملايين فرنك ورث بعضها ولدا ابنه وهما حنه وجورج . والبعض الآخر ورثته بته اديل (عادله) التي تزوجت على غير رضاه واصيبت بخلل في عقلاها . وفوض امر تنفيذ وصيته الى اوغوست فاكييري الشاعر وهو اخ لزوج ابنته الثانية التي غرقت مع زوجها والى الاديب بول موريس واوصاها بنشر ما لم يطبع في حياته من مؤلفاته

« انتهى الكتاب »

حررت هذا الكتاب في بوردو سنة ١٩٠٢ م وقدمته لأمي ايضاً ببعض ما لها عليّ من الحقوق ورجائي بأن لا تحسب الخرابي عنها من العقوق



فهرست .

ترجمت حياة فيكتور هوغو في احوارها الثلاثة صفحة ٩

فيكتور هوغو وعلم الادب .

نظرة عامة في الادب . -- تبعية اللفظ للمعنى . النظر في ادب الامم المتعددة .
عدم اختصاص الشعر بلسان العرب صفحة ٣١

ادب العرب . -- لغة حمير ومضرو والغة السامية والحذور في تدوينها . --
طبقة الجاهلية من ادباء العرب . -- افصح الكلام واباغه الكلام المرسل لان اللفظ
يتبع فيه المعنى صفحة ٣٨

فهور الاسلام بالقرآن العظيم . -- بلاغة القرآن ووقوع اللفظ فيه تابعاً للمعنى
لم يغادر القرآن الكريم صغيرة ولا كبيرة الا احصاها . الباقلاني وفن الانتقاد الادبي
. صفحة ٤٩

أهل الطبقة الاسلامية ويجمع كلامهم كتاب الاغاني . وكلامهم اعلى طبقة
من كلام الجاهلية صفحة ٥٣

ترجمة كتب العلم عن خمس لغات . كتاب كيلة ودمنة . أشعر أهل الطبقة
الاسلامية البحري . الكتب المعول عليها في تاريخ الادب : تأليف ابن قتيبة
والمبرد . كتائب الباهر لابن المنجم . يتيمة الدهر للثعالبي . دمية لقصر للباخرزي .
وشاح الدمية للبيهقي . خريدة القصر لابن العماد . زينة الدهر للوراق . الخ صفحة ٥٤
طبقة المثني والمعري وهي طبقة فلاسفة الشعراء . تعريف الشعر والاسلوب .
استبداد الرؤساء ووضعهم السيف في موضع القلم . تعريفهم الادب بالسكوت والهمس
. صفحة ٦١

اتساع دائرة الادب في الاندلس واستحداث الفنون والاعاريض الجديدة
فيه . بيان الهدف الذي يرمي نحوه أدباء العرب . انتقاد الافرنج عليهم . تأثير
لغات الاعاجم على لسان العرب . تأثير ادب العرب على ادب الافرنج صفحة ٦٢

منشأ ادب الافرنج : تأسيس الدولة الافرنجية الاولى وهي دولة آل ميرونة (ميروفينجيان) . ظهور لغة رومان . انقسام لغة رومان الى لسان أوق ولسان اويل
صفحة ٧٥

دخول العرب بلاد الافرنج : فتح اسبانيا والبورثقال . ارجاع موسى بن نصير عن عزمه وفكته . نار غريجوار ورفع الحصار عن القسطنطينية . حبال البيرينة وفتح بربون قرقسون ، نيم . ولاية عبد الرحمن وفتح افينيون . مرور عبد الرحمن من روتسفو وفتح بايون ، نوردو ، بواتيه ، تور . منتهى حدود الفتح الاسلامي في فرنسا
صفحة ٧٩

شارل مارتيل والمركة بقرب بواتيه ورجوع العرب الى نربون . اخذ المسلمين بثار عبد الرحمن واسترداد ايلات فرنسا الجنوبية وضبطهم ايلة بروفانس . اتفاق شارل مارتيل مع ملك لمبارديه وارجاعها المسلمين الى سفح جبال البيرينه .
صفحة ٩٤

ظهر الدولة الافرنجية الثانية وهي دولة آل قارلو أي آل شارلمان وتسمى قارلو فينجيان . أخذ بين القيصر مدينة بربون من المسلمين . عبد الرحمن الداخل والدولة الاموية في الاندلس . شارلمان وحر به مع الامويين واتفاقه مع العباسيين . فتح المسلمين جزر البحر الشامي ومستعمرتهم فراقسينه بين نيس وطولون وغزوم بلاد السويس
صفحة ٩٥

الحروب الصليبية الثمانية

اختلاط العرب بالافرنجية وتبادل الافكار . البابا سيلفستر الثاني . انشاد فقراء الافرنج النشائد والمدائح العربية . أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب . انتقال هذا العلم الى شعراء الشمال وهم التروفير
صفحة ١٠٢

تأسيس الدولة الافرنجية الثالثة وهي دولة آل قابت (قابتان) وظهور المملكة الفرنساوية واللغة الفرنساوية سنة ٩٧٧ معاهدة فيرودن سنة ٨٤٣ ويمين ستراسبوغ اغاني رولان . حجج شارلمان مدرسة مون بيليه واطباء العرب . ترجمة الكتب الى

الفرنساوية . عصر لويس الرابع عشر . دار الماركيزة رامبويه : الاكاديمية الفرنسية
الادباء : قورنيل ، راسين الخ
صفحة ١٠٥

الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في آداب الافرنج

نسج ادباء الافرنج على منوال شعر اليونان والرومان . ظهور الطريقة المدرسية
الانقلاب الكبير . ظهور فيكتور هوغو وتكوينه الطريقة الرومانية في مقدمة رواية
كرومويل . مؤسس الطريقة الرومانية وشيخها الاكبر وامم شكسبير . ظهور الطريقة
الحقيقية والطبيعية
صفحة ١١١

مؤلفات فيكتور هوغو

المطبوع منها في ستين مجلداً . ما نشره في حياة المؤلف وما نشر بعد وفاته .
شركاء المؤلف في اعماله
صفحة ١٧٥

نظم فيكتور هوغو : تعريفه الشعر . افاين الشعر واقسامه . دواوين الشعر
الذي نظم في الدور الاول من حياته . ديوان الشرقيات في نظر الادباء . القصيدة
الاندلسية . ديوان اوراق الخريف ووافق فيه المعري في شيء وخالفه في آخر .
ديوان الاصوات الداخلية وقصيدة البقرة ومخالفته فيها للمعري . ديوان الاشعة
والظلال وبيان وظيفة الشاعر . ديوان القصاص وهجاء نابوليون الثالث . ديوان
التأملات وراثاء ابنته . ديوان سير الدهور وموافقته في كثير منه لما نظمه المعري .
ما نظمه الشاعر في شيخوخته وهي التصانيد الفلسفية
صفحة ١٨٢

الدرام وهي الروايات الشخصية المنظومة . تعريف فيكتور هوغو الدرام .
رواياته الاثنا عشرة
صفحة ٢٥٠

نثر فيكتور هوغو : القصص وهي الرومان . قصة البؤساء . قصة نوتردام
دوباري . قصة هان الاسلاندي وتعريفه في مقدمتها (نضج القريحة) . قصة

الانسان الضاحك وما ورد فيها عن الطبيعة والحياة • التاريخ • الرحلة • ما ذكره
في رحلة نهر الرين عن الضمير والكائنات • الادب والفلسفة • تعريف الانشاء •
تعريف الواجب • تعريف الزواج • تبديل المسالك السياسي • تعريف الانقلاب
صفحة ٢٦٨

الخاتمة

سبب شهرة فيكتور هوغو • المتقدم فيه على فيكتور هوغو • معتقد فيكتور
هوغو • ثروة فيكتور هوغو •
صفحة ٢٧٧

تم الفهرست



مؤلفات جرجي زيدان.

صاحب الهلال

١ — مؤلفاته التاريخية

البريد	التمن	
٤	٤٠	تاريخ مصر الحديث مزين بالرسوم جزآن (طبعة ثانية)
٢	٢٠	د المأسونية العام
٢٠	٣	د اليونان والرومان (مختصر)
١	٤	د انكلترا مزين بالرسوم
٥	٧٥	د التمدن الاسلامي ٥ اجزاء مزين بالرسوم
٢	٢٠	د العرب قبل الاسلام جزء اول
٢٠	٨	التاريخ العام الجزء الاول
٥	٤٠	تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر مزين بالرسوم جزآن مجلدان (طبعة ثانية)

٢ — مؤلفاته العلمية واللغوية وغيرها

٨٠		الهلال — مجلة علمية تاريخية ادبية تصدر مرة في الشهر مزينة بالرسوم قيمة اشترائها بالسنة للقطر المصري والسودان
١٥٠		وقيمة اشترائها بالسنة للخارج
٦٠	٥	سنو الهلال من السنة الاولى الى الخامسة عشرة ثمن السنة
٨٠	٥	ومن السنة السادسة عشرة الى الاخيرة
١٠	١	الفلسفة اللغوية (طبعة ثانية)
٥	٢٠	تاريخ اللغة العربية
٢٠		« آداب اللغة العربية الجزء الاول والثاني . ثمن الجزء
٤	٢٠	انساب العرب القدماء

البريد	الثلث	
٢	١٤	علم الفراسة الحديث مزين بالرسوم

٣ - سلسلة روايات تاريخ الاسلام

٣	٢٠	١ « فتاة غسان جزآن طبعة ثالثة
٢	١٠	٢ « ارمانوسة المصرية " "
٢	١٠	٣ « عذراء قریش " "
٢	١٠	٤ « ١٧ رمضان " ثانية
٢٠ ١	١٠	٥ « غادة كربلاء " "
٢٠ ١	١٠	٦ « الحجاج بن يوسف " "
٢٠ ١	١٠	٧ « فتح الاندلس " "
٢٠ ١	١٠	٨ « شارل عبد الرحمن " "
٢٠ ١	١٠	٩ « ابو مسلم الخراساني " "
٢٠ ١	١٠	١٠ « العباسة اخت الرشيد " "
٢٠ ١	١٠	١١ « الامين والمأمون
٢٠ ١	١٠	١٢ « عروس فرغانة
١٠ ١	١٠	١٣ « احمد بن طولون
٢٠ ١	١٠	١٤ « عبد الرحمن الناصر
٢٠ ١	١٠	١٥ « الانقلاب العثماني

٤ - رواياته الاخرى التاريخية

٢	١٠	اسير المتهدي	طبعة ثالثة
٢٠ ١	٨	استبداد المالک	د ثالثة
٢٠ ١	٨	المملوك الشارد	د ثالثة
٢٠ ١	٦	جهاد المحبين اديبة غرامية	د ثالثة

